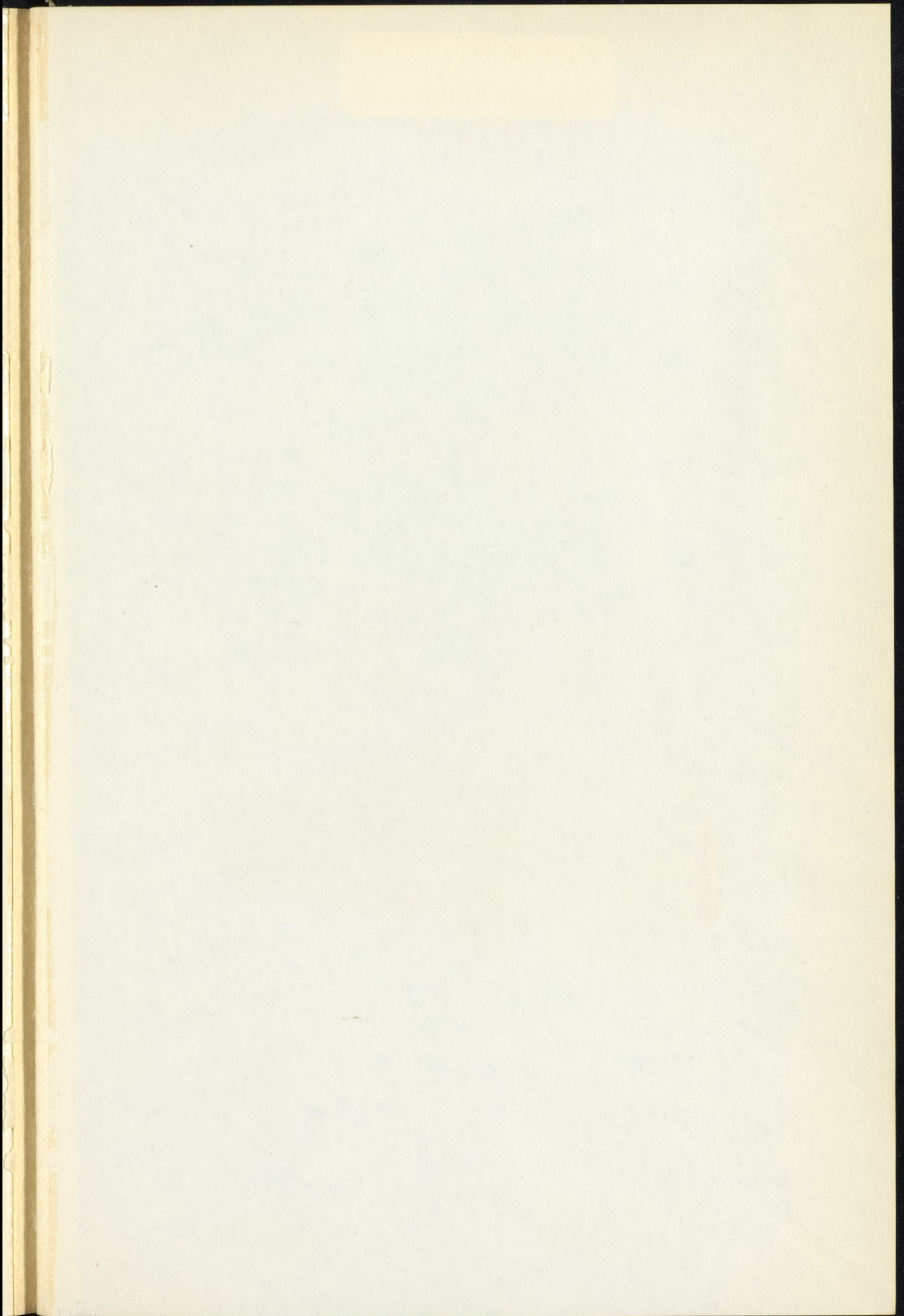
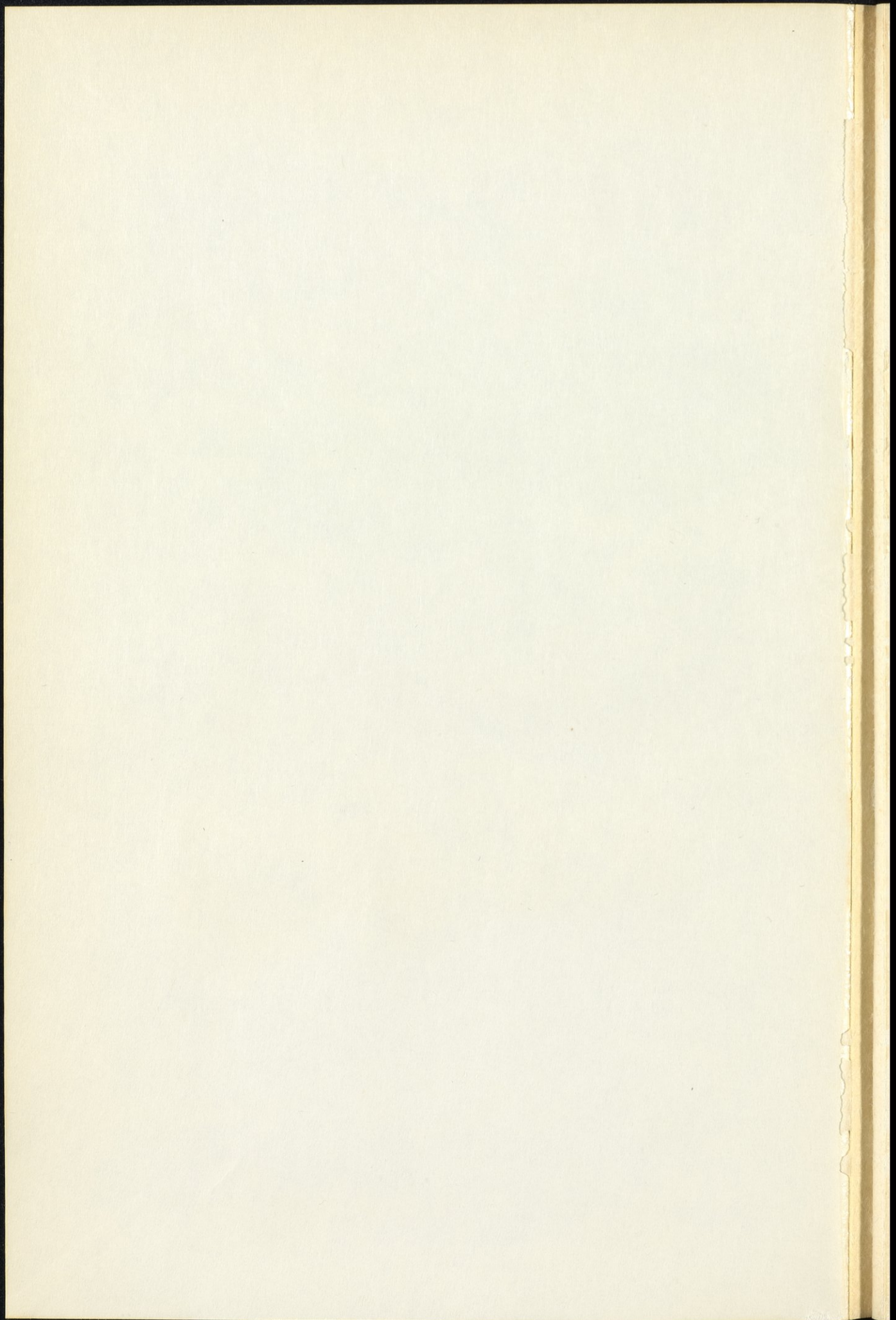


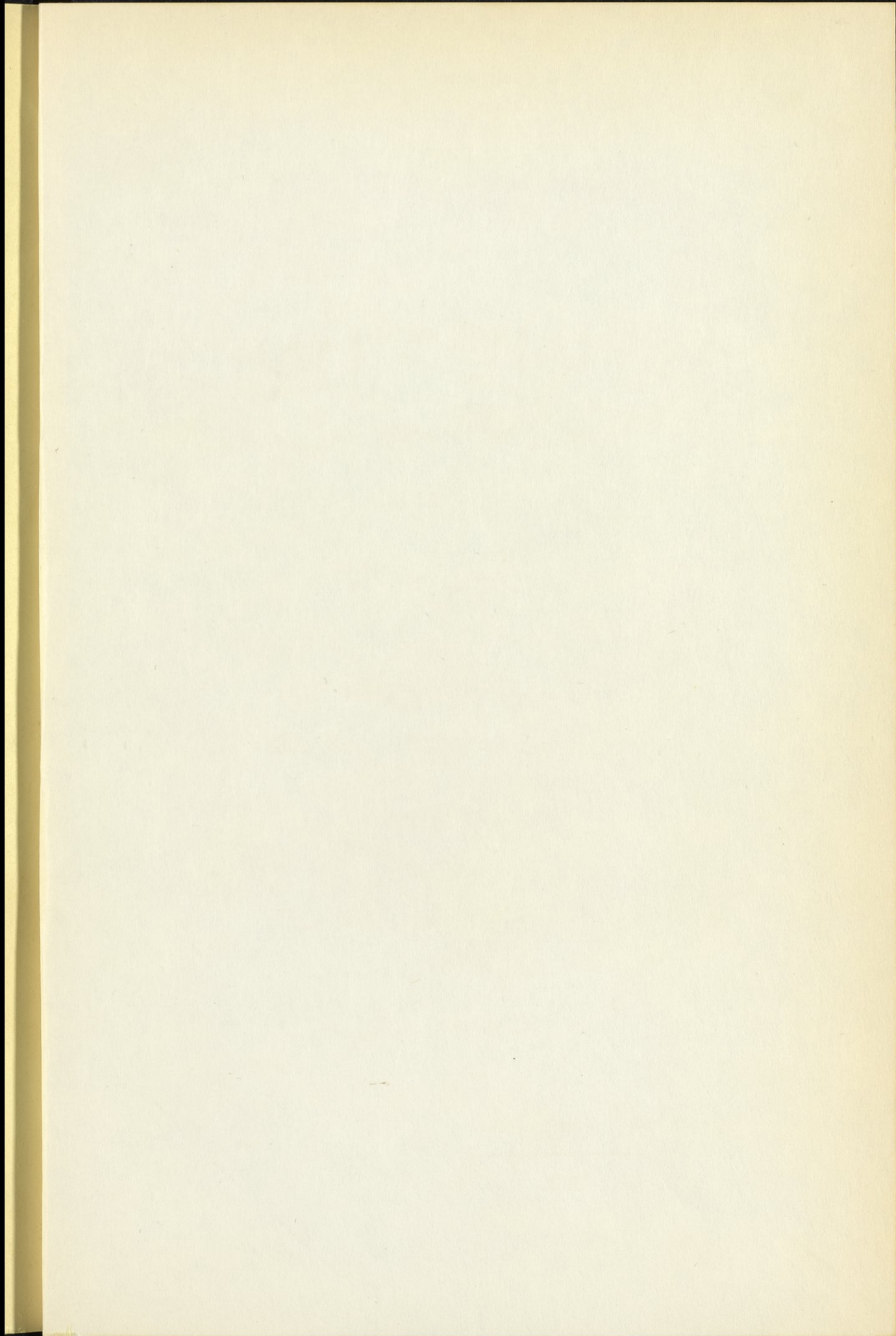
Princeton University Library



32101 074485663







منشورات جامعة النجف الدينية

٣

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي الزرق

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الثالث

تصدي لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

السيد محمد كلانتر

قدم له

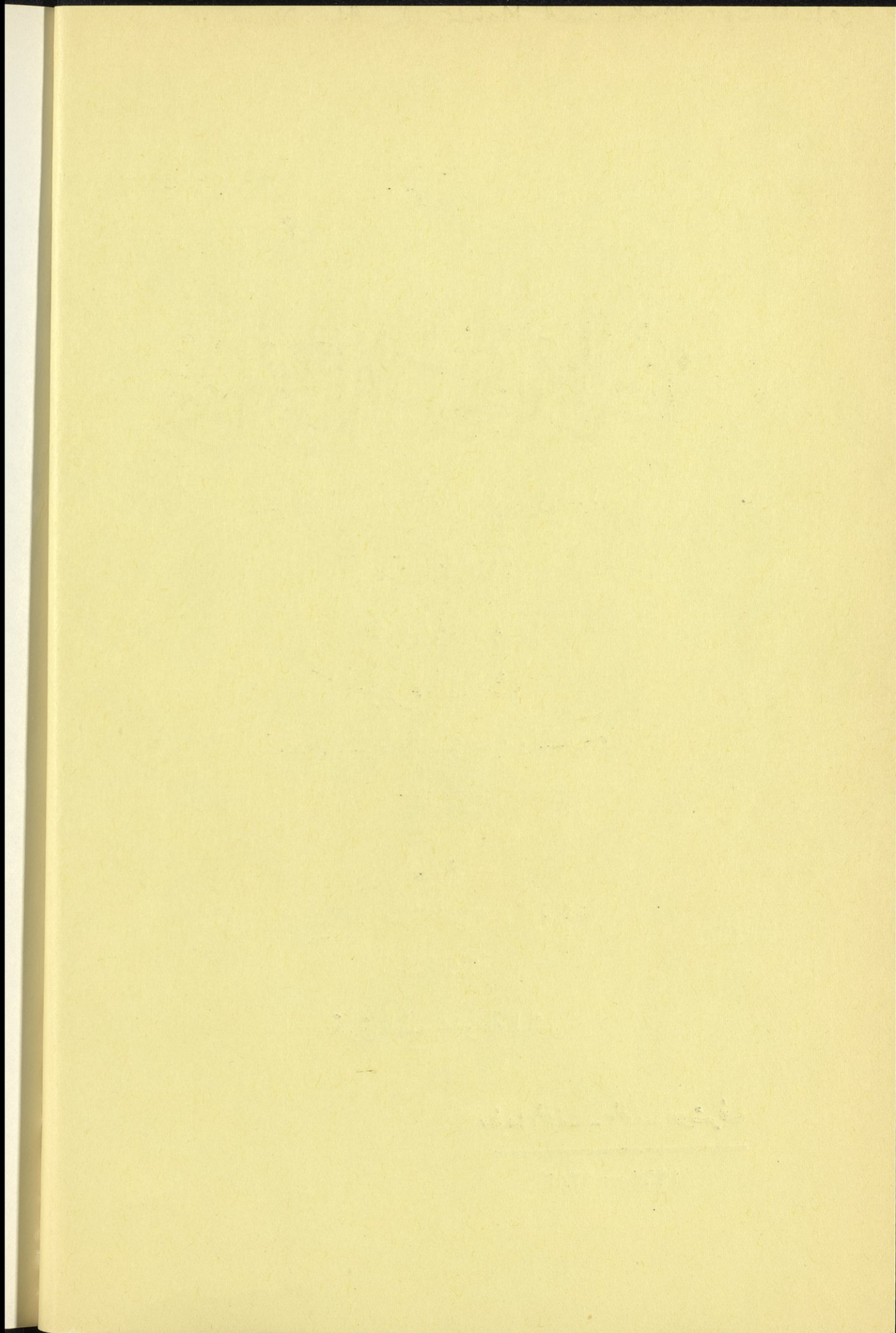
الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الثالثة

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٣ - ١٩٦٣



منشورات جامعة النجف الدينية

Jāmi' al-sa'ādāt ٣

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي الزرق

المتوفى ١٢٠٩ هـ

الجزء الثالث

تصدي لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

السيد محمد كلأتر

قدم له

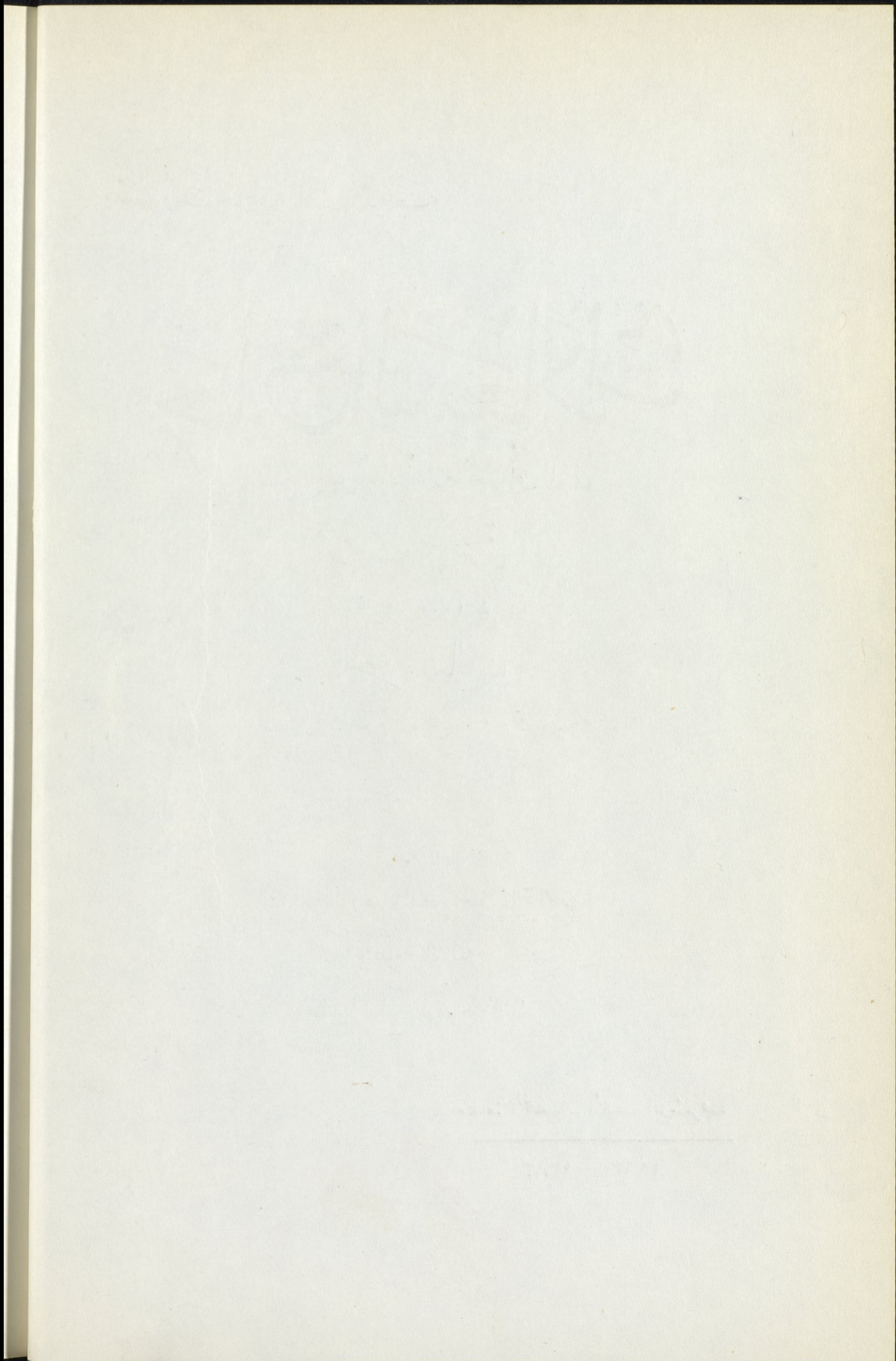
الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الثالثة

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٣ - ١٩٦٣



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(بقية المقام الرابع)

ومنها (١):

الغرور

معنى الغرور - ذمه - طوائف المغرورين : المغرورون من الكفار
والعصاة والفساق من المؤمنين - المغترون من أهل العلم وفرقهم - المغترون
من الوعاظ كثيرين - المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة - المغترون من
المتصوفة أكثر - المغترون من الأغنياء أكثر من سائر الطوائف - ضد
الغرور الفطانة والعلم والزهد .

* * *

وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة
وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن
شبهة فاسدة ، فهو مغرور. ولما كان أكثر الناس ظانين بانفسهم خيراً ،
ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والأفعال وخيريته ، مع أنهم
مخطئون فيه ، فهم مغرورون، مثلاً من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف

(١) أى من الرذائل المتعلقة بائنتين من القوى الثلاث أو بجمعها : وهى القوة العاقلة
والنفسية والشهوية . وهذه الرذيلة هى الرذيلة (الواحدة والمشرون) منها .

2272

7085

349

13

3

الخير ، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها ، يظن أن هذا خير له وسعادة ، مع أنه محض الغرور ، حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيراً ، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته ، يظن أنه في طاعة الله ، مع أنه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته .

ثم لا ريب في أن سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل الطبع إليه عن شبهة ومخيلة ، مركب من أمرين : (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع ، (وثانيهما) حبها وطلبها باطنياً لمقتضيات الشهوة أو الغضب . فإن الواعظ إذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقداً أنه يجلب به الثواب ، تكون له رغبة إلى الجاه واعتقاد بكونه خيراً له ، إذ الغنى إذا أمسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة ، وواظب على العبادة معتقداً أن مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وإن كان بخيلاً ، يكون له حب للمال واعتقاد بأنه على الخير . ثم الاعتقاد المذكور راجع إلى نوع معين من الجهل المركب ، وهو الجهل الذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئاً يوافق الهوى ، فيكون من رذائل القوة العاقلة ، والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتي الغضب والشهوة . فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث ، أو من رذائل العاقلة مع أحدهما .

فصل

(ذم الغرور)

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وأم كل شقاوة ، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والأخبار ، قال الله - سبحانه - :

« فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ

الْمَغْرُورُ» (١) . وقال - عز وجل - : « وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
 أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ
 حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْمَغْرُورُ » (٢) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « حينذا نوم الاكياس
 وفطرتهم ، كيف يغبنون سهر الحق واجتهادهم ، ولثقال ذرة من صاحب
 تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين » . وقال الصادق عليه السلام :
 « المغرور في الدنيا مسكين ، وفي الآخرة مغبون ، لأنه باع الأفضل بالأدنى ،
 ولا تعجب من نفسك ، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك أن لعلك تبقى .
 وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك واصحابك لعلك تنجو بهم . وربما
 اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مأمولك وهواك ، فظننت أنك صادق
 ومصيب . وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة ، ولعل
 الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك . وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله
 يريد الاخلاص . وربما افتخرت بعلمك ونسبك ، وأنت غافل عن مضمرة
 ما في غيب الله تعالى . وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه . وربما
 حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريد لهم لنفسك أن يميلوا اليك . وربما ذممت
 نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة » (٣) .

فصل

(طوائف المغرورين)

إعلم أن فرق المغترين كثيرة ، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة ،

(١) لقمان ، الآية : ٣٣ . فاطر ، الآية : ٥ . (٢) صححه على مصباح المرية : الباب ٣٦ .

(٣) الحديد ، الآية : ١٤ .

وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على أمر ، إلا ويوجد فيهم فرق من المغترين . إلا أن بعض الطوائف كلهم مغترون ، كالكفار والعصاة والفساق ، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور ، وإن كان معظم كل طائفة أرباب الغرور . ونحن نشير إلى مجارى الغرور ، وإلى غرور كل طائفة ، ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه ، إذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريها يمكنه أن يأخذ منها حذره ، ويبنى على الجزم والبصيرة أمره . فنقول :

الطائفة الأولى

(الكفار)

وهم مغرورون بأسرهم ، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا ، وبين من غره الشيطان بالله ، وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان في قلوبهم : (أولهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة ، والنقد خير من النسيئة . (وثانيهما) أن لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها ، واليقيني خير من المشكوك ، فلا يترك به . وهذه أقيسة فاسدة ، تشبه قياس إبليس ، حيث قال :

« أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ

مِنْ طِينٍ » (١) .

وعلاج هذا الغرور - بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقبة النبي - صلى الله عليه وآله - ، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والأدلة - إما أن يتبع مقتضى إيمانه ويصدق الله تعالى في قوله :

(١) الأعراف ، الآية : ١١ . ص ، الآية : ٢٦ .

« مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » (١) . وفي قوله تعالى : « وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (٢) . وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (٣) . وقوله : « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » (٤) . وقوله تعالى : « فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » (٥) .

وإما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين ، حتى يزول عن نفسه ما تأديا إليه من الغرور . وطريق معرفة الفساد في (القياس الأول) : أن يتأمل في أن كون الدنيا نقداً والآخرة نسبيته صحيح ، إلا أن كون كل نقد خيراً من النسبيته غير صحيح ، بل هو محل التلبيس ، إذ المسلم خيرية النقد على النسبيته إن كان مثلها في المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء ، وأما إن كان أقل منها في ذلك وأدون ، فالنسبيته خير ، ألا ترى أن هذا المغرور إذا حذره الطبيب من لذائذ الاطعمة يتركها في الحال خوفاً من ألم المرض في الاستقبال ، ويبدل درهماً في الحال ليأخذ درهمين نسبيته ، ويتعب في الاسفار ويركب البحار في الحال لأجل الراحة والرجح نسبيته . وقس عليه جميع اعمال الناس وصنائعهم في الدنيا : من الزراعة والتجارة والمعاملات ، فانهم يبذلون فيها المال نقداً ليصلوا إلى أكثر منه نسبيته ، فإن كان عشرة في ثانی الحال خيراً من واحد في الحال ، فانسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة إلى لذة الآخرة من هذه الحثيات ، فإن من عرف حقيقة الدنيا والآخرة ، يعلم أنه ليس للدنيا قدر

(١) النحل ، الآية : ٩٦ . (٤) آل عمران ، الآية : ١٨٥ . الحديد ، الآية : ٢٠ .

(٢) الاعلى ، الآية : ١٧ . (٥) لقمان ، الآية : ٣٣ . فاطر ، الآية : ٥ .

(٣) القصص ، الآية : ٦٠ . الشورى ، الآية : ٣٦ .

محسوس بالنسبة الى الآخرة ، على أن لذة الدنيا مكذبة مشوبة بانواع المنغصات ، ولذات الآخرة صافية غير ممزجة بشيء من المكدرات .

وأما طريق معرفة فساد (القياس الثاني) باصليه : هو أن يعرف أن كون لذات الآخرة مشكوكا فيها خطأ ، وأن كل يقين خير من المشكوك غلط : (أما الأول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة . وليقينيهم مدركان : - أحدهما - ما يدركه عموم الخلق ، وهو اتفاق عظماء الناس من الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء ، فإن ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل ، كما أن المريض الذي لا يعرف دواء علته إذا اتفق جميع أرباب الصناعة على أن دواءه كذا ، فإنه تطمئن نفسه الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين ، بل يثق بقولهم ويعمل به . وإن كذبهم صبي أو معتوه أو سوادى . ولا ريب فى أن المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطالين بالنظر الى المخبرين عن أحوال الآخرة والمشاهدين لها من الأنبياء والأولياء أدون حالا وأقل رتبة من صبي أو معتوه أو سوادى بالنظر الى أطباء بلد أو مملكة . - وثانيهما - ما لا يدركه إلا الأنبياء والأولياء ، وهو الوحي والالهام ، فالوحي للأنبياء والالهام والكشف للأولياء ، فإنه قد كشفت لهم حقائق الأشياء كما هي عليها ، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد ، ولا تظن أن معرفة النبي - صلى الله عليه وآله - لأمر الآخرة ولأمر الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسمع منه ، كما أن معرفتك لها تقليد للنبي ، هيئات ! فإن الأنبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت ، وينظرون اليها بعين البصيرة واليقين ، وإن أكد ذلك بالقاء الملك والسمع منه .

وأما المغرورون بالله ، وهم الذين يقدررون فى انفسهم ويقولون

بألسنتهم : إن كان لله معاد فنحن فيه أوفر حظاً وأسعد حالاً من غيرنا ، كما
أخبر الله - سبحانه - عن قول الرجلين المتحاورين ، إذ قال :

« وما أظنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا » (١).

وباعت ذلك : ما ألقى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة إلى نعم الله
عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون إلى تأخير الله العذاب
عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة ، كما قال الله - تعالى - :

« وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا
نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَّأُونَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ » (٢).

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء محتاجون ، فيقولون : لو أحبهم
الله لأحسن إليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن إلينا فيها ، فلما لم يحسن إليهم
في الدنيا وأحسن إلينا فيها فيكون محباً لنا ولا يكون محباً لهم ، فيكون الأمر
في الآخرة كذلك ، كما قال الشاعر :

كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة ، فإن من
ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والاکرام فقد اغتر بالله ، إذ ظن أنه كريم
عند الله ، بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند أولى البصائر على الهوان
والخذلان ، لأن نعم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله ، وأن الله
يحمي أحياءه الدنيا كما يحمي الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الأطعمة ، ومثل

(١) الكهف ، الآية : ٣٧ .

(٢) المجادلة ، الآية : ٨ .

معاملة الله - سبحانه - مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق، حيث يزوى الدنيا عن الأول ويصب نعمها ولذاتها على الثاني ، مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر ، فيمنع الأول من اللعب ويلزمه المكتتب ويحبسه فيه ، ليعلمه الأدب ويمنعه من لذائذ الأطمعة والفواكه التي تضره ويسقيه الأدوية البشعة التي تنفعه ، ويهمل الثاني ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كل ما يشتهي ، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم عند سيده لتمكّنه من شهواته ولذاته ، وأن الآخر مبعوض عنده لمنعه عن مشتتهياته ، كان مغروراً أحمق ، وقد كان الخائفون من ذوى البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجبت عقوبته ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحباً بشعار الصالحين ! وأما المغرورون فعلى خلاف ذلك ، لظنهم أن اقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن ادبارها عنهم هو ان لهم ، كما اخبر الله - تعالى - عنه بقوله :

« فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ

وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ

عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » (١) .

وعلاج هذا الغرور: أن يعرف ان اقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والاحسان ، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب الى الله - سبحانه - والطريق الى هذه المعرفة: إما ملاحظة أحوال الأنبياء والأولياء وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الاتقياء، أو التدبر في الآيات والأخبار . قال الله - سبحانه - :

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ،
 تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » (١) . وقال
 الله - سبحانه - : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ
 لَا يَعْلَمُونَ » (٢) . وقال - تعالى - : « فَلَمَّا تَسُوا مَا ذُكِّرُوا
 بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
 بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَا مِنْهُمْ بَغْتَةً فَإِذَاهُمْ مُبْلِسُونَ » (٣) . وقال
 - تعالى - : « إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِتْمَامًا » (٤) . . . الى غير ذلك
 من الآيات والأخبار .

ومنشأ هذا الغرور : الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن
 مكره ولا يغتر به بامثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر إلى قارون وفرعون
 وغيرهما من الملوك والجبابة ، كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميراً ،
 وقد حذر الله عباده عن مكره واستدراجه فقال :

« فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » (٥) .
 وقال : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (٦) .

الطائفة الثانية

(العصاة والفساق من المؤمنين)

وسبب غرورهم وغفلتهم : إما بعض بواعث غرور الكافرين - كما

- (١) المؤمنون ، الآية : ٥٦ - ٥٧ .
 (٢) الاعراف ، الآية : ١٨٦ . القلم ، الآية : ٤٤ .
 (٣) الانعام ، الآية : ٤٤ .
 (٤) آل عمران ، الآية : ١٧٨ .
 (٥) الاعراف ، الآية : ٩٩ .
 (٦) آل عمران ، الآية : ٥٤ .

تقدم - أو ظنهم أن الله - تعالى - كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة ، وأين معاصي العباد في جنب بحار رحمته ، ويقولون : انا موحدون ومؤمنون ، فكيف يعذبنا مع التوحيد والايمن ، ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء - كما تقدم - . وربما اغتر بعضهم بصلاح آباءهم وعلو رتبتهم ، كما اغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آباءهم الطاهرين في الخوف والورع . وعلاج هذا الغرور : أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمنى المذموم ، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا ، بل هو تمنى مذموم ، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله ، . فإن الرجاء لا ينفك عن العمل ، إذ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه ، وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو لم ينكح ، أو نكح ولم يجامع ، أو جامع ولم ينزل ، فهو مغرور أحمق ، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، أو آمن ولم يترك المعاصي ، أو تركها ولم يعمل صالحاً ، فهو مغرور جاهل ، كيف وقد قال الله - سبحانه - :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ أَوْ لِسَبِيلِ اللَّهِ يُرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ » (١).

يعنى أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم ، وذلك لأن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال ، كما قال - تعالى - :

« جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٢) . وقال : « وَأَتِمَّا

تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) . وقال : « وَأَنْ

(١) البقرة ، الآية : ٢١٨ . (٢) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٣) السجدة ، الآية : ١٧ . الاحقاف ، الآية : ١٤ . الواقعة ، الآية : ٢٤ .

لَيْسَ لِإِلَاءِ نَسَانٍ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى « (١) . وقال : « كُتِلَتْ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً » (٢) .

أفتري أن من استوَجِرَ على إصلاح أو انٍ وشرط له اجرة عليها ، وكان الشارط كريماً يفي بوعده وشرطه ، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه ، فجاء الاجير وكسر الاواني وافسدها جميعاً ، ثم جلس ينتظر الاجر زعماً منه أن المستاجر كريم ، افيراه العقلاء في انتظاره راجياً أو مغروراً متمنياً ؟ وبالجملة : سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة ، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق .

ثم إن المغرور به لو رتبة آبائه ، ظاناً ان الله تعالى يحب آباءه ، ومن أحب انساناً أحب أولاده ، أشد حمقاً من المغرور بالله ؛ لأن الله - سبحانه - يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لآبائهما ، فكأنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع ، وليس يمكن أن يسرى من الأب إلى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى ، إذ لا تزر وازرة وزر اخرى ، فمن زعم أنه ينجو بتقوى أبيه ، كان كمن زعم انه يشبع باكل أبيه ، أو يصير عالماً بتعلم أبيه ، أو يصل الى الكعبة بمشي أبيه ، فهيهات هيهات ! إن التقوى فرض على كل أحد ، فلا يجزى والد عن ولده شيئاً ، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، ولا ينفع أحد أحد إلا على سبيل الشفاعة ، بعد تحقق شرائطها .

ثم العصاة المغرورون ، إما ليست لهم طاعات ، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل - كما مر - ، أو لهم طاعات ولكن معاصيهم أكثر ، وهم عالمون باكثرية

(٢) المدثر ، الآية : ٣٨ .

(١) النجم ، الآية : ٣٩ - ٤٠ .

المعاصي ، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم ، وهو أيضاً غاية الجهل ، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً أو ألفين ، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة ، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه ، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها ، كالذي يحج طول عمره حجة ويبنى مسجداً ، ثم لا يكون شيء من عباداته على النحو المطلوب ، ولا يحتنب من اخذ اموال المسلمين ، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره ، ويقول : كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت مسجداً؟ وكالذي يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق اعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد ، ويكون نظره الى عدد سبحته مع غفلته عن هديانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، فهو يتأمل دائماً في فضيلة التسبيحات ، ولا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتابين والنمامين والفحاشين ، ولو كان كتبة اعماله يطلبون منه اجرة الزايد من هديانه على تسبيحاته ، لكان عند ذلك يسعى في كفت لسانه عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته ، حتى لا يكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه اجرة نسخ الزائد . فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً أن يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفاً من فوت العالمين ومجاورة رب العالمين !

الطائفة الثالثة

(أهل العلم)

والمخترون منهم فرق :

(فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة ، ليتفاخر في اندية الرجال ويتفوق على الاقران والامثال ، من غير أن يكون له في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد ، بل يختار تارة ذلك وتارة هذا ، وتكون عقيدته كخييط مرسل في الهواء تفيثه الريح مرة هكذا ومرة هكذا ، ومع ذلك يظن بغروره أنه اعرف الناس واعلمهم بالله وبصفاته .

و (منهم) من اقتصر من العلم على علم النحو واللغة ، أو الشعر أو المنطق ، واغتر به وافنى عمره فيها ، وزعم أن علم الشريعة والحكمة موقوف عليها ، ولم يعلم أن ما ليس مطلوباً لذاته ويكون وسيلة الى ما هو مقصود لذاته يجب ان يقتصر عليه بقدر الضرورة ، والتعمق فيه الى درجات لا تنتهى فضول مستغنى عنها ، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته .

و (منهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه ، المتضمن لـكيفية الحكم والقضاء بين الناس ، واشتغل باجراء الأحكام ، واعرض عن علم العقائد والأخلاق ، بل عن فن العبادات من الفقه ، واهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الأخلاق ويتحلى بفضائل المملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات .

و (منهم) من حصل فن العبادات ايضاً ، بل احكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها واشتغل ، ولكن ترك العلم الإلهي وعلم الأخلاق ، ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي ، ولم يعمرها بالطاعات .

و (منهم) من احكم جميع العلوم من العقلية والشرعية ، وتعمق فيها واشتغل بها ، إلا أنه اهمل العمل رأساً ، أو واظب على الطاعات الظاهرة واهمل صفات القلب ، وربما تفقد صفات القلب و اخلاق النفس ايضاً ، وجاهد نفسه في التبرى عنها ، وقلع من قلبه منابتها الجليلة القوية ، ولكنه بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان ، وخبايا وتلبسات النفس ما دق وغمض مدركه فلا يتفطن بها .

و جميع هؤلاء غافلون مغرورون ، اذا كان اعتقادهم انهم على خير وسعادة ، وإن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدّة ، إذ سعادة النفس و خلاصها عن العذاب لا تحصل إلا بمعرفة الله - تعالى - ومعرفة صفاته وافعاله واحوال النشأة الآخرة ، والعلم برذائل الاخلاق وشرائفها ، ثم تهذيب الباطن بفضائل الاخلاق وعمارة الظاهر بصالح الطاعات والاعمال ، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم - أعنى معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول إلى الله - وظن انه على خير كان مغروراً ، واذا مات ملوناً بتلك الصفات كان محبباً عن الله ، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره ، فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة ، كما ان من احكم العلوم بأسرها وترك العمل ، مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه ، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه ، فإنه لا ريب في ان مجرد تعلم الدواء لا يشفيه ، بل لو كتب منه الف نسخة وعلمه الف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئاً ، حتى يشتري هذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته ، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه ، فكيف اذا لم يشربه اصلاً ،

فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور ، فكذلك من احكم علم الطاعات ولم يعملها ، واحكم علم المعاصي ولم يجتنبها ، واحكم علم الاخلاق ولم يترك نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها ، فهو في غاية الغرور ، إذ قال الله تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » (١)

ولم يقل : قد أفلح من علم طريق تزكيتها .

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الاخلاق والغرور ، أدى بهم الى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها ، وأنهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها ، وإنما يبتلى بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم . ثم اذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال : ما هذا تكبراً ، إنما هو طلب اعزاز الدين ، واظهار شرف العلم ، وارغام انف المخالفين . ومهما ظهرت منه آثار الحسد ، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئاً من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد . بل يقول : إن هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه ، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم ، ورد عليه قوله ، ومنع من منصبه ، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن ، بل ربما يفرح به ، ولو كان غضبه للحق لا للحسد على أقرانه وخبث باطنه ، لا ستوى غضبه في الحالين . واذا خطر له خاطر الرياء قال : غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ، ليهدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتداءهم به ، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح به صلاحهم على يد من كان ، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لا يخليه الشيطان ، بل يقول : إنما ذلك لأنهم اذا اهدوا بي كان الأجر والثواب لي ،

(١) الشمس ، الآية : ٩ .

ففرحى إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق ، هذا ما يظن بنفسه ، والله مطلع على سريرته ، إذ ربما كان باطنه فى الخباثة بحيث لو علم قطعاً بأن ثوابه فى الخمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه فى الاظهار ، لا حتال مع ذلك فى اظهار رئاسة، من تدريس أو وعظ أو امامة أو غير ذلك . واذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويشئى عليهم ويتواضع لهم ، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام ، قال له الشيطان : إن ذلك عند الطمع فى مالهم ، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع ، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض اقرانه قبول عند ذلك السلطان ، وكان بحيث يقبل شفاعته فى كل احد ، وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين ، يشغل ذلك عليه ، بحيث لو قدر أن يقبض حاله عند السلطان لفعل . وربما انتهى الغرور فى بعضهم إلى أن يأخذ من أموالهم المحرمة ، واذا خطر له أنها حرام ، قال له الشيطان : هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدق به إمام المسلمين ، وأنت إمامهم وعالمهم ، وبك قوام دين الله ، فيحله لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقي على مصالح المسلمين ، فيغتر بهذا التلبيس ، ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئاً منها فى مصرف غيره . وربما انتهى الغرور فى بعضهم إلى حيث إنه اذا حضرت مائدتهم واكل طعامهم وقيل له : إن هذا لا يليق بمثلك ، قال : الا كل جائز بل واجب ، إذ هذا مال لا يعلم مالسه ، فيجب التصديق به على الفقراء ، ويجب على مثل بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد فى استخلاصه من يد الظالم وايصاله إلى اهله - أعنى الفقراء - واكلى منها نوع قدرة على استخلاصه ، فأكل منه واتصدق بقيمته على الفقراء ، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقوله، وإنما هو تلبيس ألقاه الشيطان فى روعه ، لئلا يضعف اعتقاد العامة فى

حقه ، وربما كان بحيث لا يبالي من اخذ ما لهم واكل طعامهم خفية ، ولو علم أنه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به ، امتنع منه غاية الامتناع. وربما كان بعضهم في الباطن مائلا الى الدخول على السلاطين والامراء وتاركه في الظاهر ، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قلوب العامة ، ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه . وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الإسلام ، ومع ذلك لو أمّ غيره ممن هو اعلم واورع منه في مسجده ، أو يتخلف بعض من يقتدى به عن الاقتداء به ، قامت عليه القيامة ، وربما لم يكن باعثة على الحركة إلى المسجد للإمامة مجرد التقرب والامثال لأمر الله ، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة ، أو مركباً منه ومن نية الثواب . وربما اتخذ بعضهم الإمامة شغلا ووسيلة لأمر المعاش ، ومع ذلك يظن أنه مشغول بامر الخير ، والظاهر في امثال زماننا ندور الإمام الذي كان قصده من الإمامة مجرد التقرب إلى الله ، من دون وجود شيء من حب طلب المنزلة في القلوب ، أو تحصيل المال ، أو دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه ، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب أن تشد الرحال من المواضع البعيدة اليه ليقتدى به ، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب إلى المسجد للإمامة ذهب ، ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف ، وصلى منفرداً ، وهو الذي يستوى عنده اقتداء الناس به وعدمه ، ويستوى عنده كثرة المقتدين وقتهم ، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحال عند صلاته منفرداً ، من دون أن يجد في نفسه تفاوتاً في الحالين .

وبالجملة : اصناف غرور أهل العلم - (لا سيما في هذه الاعصار - كثيرة ، والمتأمل يعلم أن الغرور أو التلبيس أو غيرهما من ذمائم الأفعال انتهى في

بعضهم الى أن وجودهم مضر بالإسلام والمسلمين وموتهم أنفع للإيمان
والمؤمنين، لأنهم دجالو الدين وقوا مو مذهب الشياطين، ومثلهم كما قال عيسى
ابن مريم - عليه السلام - : « العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادى ،
فلاهى تشرب الماء ولاهى تترك الماء يتخلص الى الزرع ، » .

الطائفة الرابعة

(الوعاظ)

والمغتربون منهم كثيرون :

(فمنهم) من يتكلم فى وعظه فى أخلاق النفس وصفات القلب ، من
الخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرضا ، والصبر ، والشكر ، ونظائرها ،
ويظن أنه اذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق اليها صار موصوفاً بها ، وهو
منفك عنها فى الواقع ، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، ويزعم
ان غرضه اصلاح الخلق دون أمر آخر ، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد
من أقرانه وصلحوا على يديه ، وكان أقوى منه فى الارشاد والاصلاح ، لمات
غماً وحسداً ، ولو اثنى احد المترددين عليه على بعض أقرانه ، اصرار بغض
خلق الله اليه .

و (منهم) من اشتغل بالشطح والطامات ، وتلفيق كلمات خارجة عن
قانون الشرع والعقل ، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة ، وتصنع
التشبيهاً والمقدمات ، وشغف بطيارات النكمت وتجميع الألفاظ وتلفيقها ،
طلباً للاعوان والأنصار ، وشوقاً الى تكثير البكاء والرقه والتواجد والرجبات
فى مجلسه ، والتذاذاً بتحريك الرؤس على كلامه والبكاء عليه ، وفرحاً بكثرة
الأصحاب والمستفيدين والمعتقدين به ، وسروراً بالتخصيص بهذه الخاصة

من بين سائر الاقران ، وربما لم يبال بالكذب في نقل الاخبار والآثار ،
ظناً منه أنه أوقع في النفوس وأشدّ تأثيراً في رقة العوام وتواجدهم .
ولا ريب في أن هؤلاء شرّ الناس ، بل شياطين الانس ، ضلوا وأضلوا عن
سواء السبيل ، إذ الأولون إن لم يصلحوا أنفسهم ، فقد أصلحوا غيرهم
وصححوا كلامهم ووعظهم ، وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون
الخلق الى الغرور بالله ، لأن سعيهم في ذكر ما يسر به العامة ، ليصلوا به منهم
إلى اغراضهم الفاسدة ، فلا يزالون يذكرون ما يقوى الرجاء ، ويزيدهم جرأة
على المعاصي ورغبة في الدنيا ، (لا سيما إذا كان هذا الواعظ أيضاً ممن يرغب
إلى الدنيا ، ويسر بوصول المال اليه ، ويتزين بالثياب الفاخرة والمراكب
الفارحة ، وغيرهما من زينة الدنيا . فمثلُه ممن يضل ويكون افساده أكثر من
اصلاحه ، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين ، فهو
أشدّ المغرورين والغافلين .

و (منهم) من هذب أخلاقه ، وراقب قلبه ، وصفاه عن جميع
الكدورات ، وصغرت الدنيا في عينه ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت
اليهم ، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله الى نصحتهم واستخلاصهم عن امراض
المعاصي بالوعظ ، فلما استقل به وجد الشيطان مجال الفتنة ، فدعاه الى الرئاسة
دعاه خفياً - اخفى من ديب النملة - لا يشعر به ، ولم يزل ذلك في قلبه يربو
وينمو حتى دعاه الى التصنع والتزين للخلق : بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات ،
والتصنع في الزى والهيمّة والشمائل ، وأقبل الناس اليه يعظمونه ويوقرونه
توقيراً يزيد على توقير الملوك ، إذ رأوه شافياً لأمراضهم بمحض الرحمة
والشفقة من غير طمع ، فأثروه بابدانهم وأموالهم ، وصاروا له كالخدم
والعبيد ، فعند ذلك انتشر طمعه وارتاحت نفسه ، وذاق لذة يالها من لذة ،

وأصاب من الدنيا شهوة يستحققر معها كل شهوة، فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تارك للدنيا ، فقد غره الشيطان على ما لا يشعر به . وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه : أنه لو ظهر من أقرانه من مالت القلوب الى قبوله ، وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه ، شق ذلك عليه ، إذ لو لا أن النفس قد استبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتم ذلك .

وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا اذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم الى الله - تعالى - ، وكان يسره غاية السرور ظهور من يهينه على ارشادهم أو اهتدائهم من عند انفسهم ، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم ، واستوى عنده حمدهم وذمهم ، ولم يبالي بدمهم اذا كان الله يمدحه ، ولم يفرح بمدحهم اذا لم يقترن به مدح الله ، ونظر اليهم كما ينظر الى من هو أعلم منه وأورع ، حيث لا ينكر عليه ويراه خيراً من نفسه ، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله بالخاتمة ، والى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم ، فإنه لا يبالي كيف يراه البهائم ، فلا يتزين لها ، إذ راعى الماشية إنما غرضه رعايتها ودفع الذئب عنها ، دون نظر الماشية اليه بعين المدح والثناء .

ثم لو ترقى الواعظ ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان ، واشتغل بنفسه وترك النصح ، أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص ، لحيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور ، فيكون اعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور ، وهو المهلك الأعظم من كل ذنب ، ولذلك قال الشيطان : « يا ابن آدم ! اذا ظننت أنك بعملك تخلصت مني فيجهدك قد وقعت في حياثي ، . ثم لو دفع عن نفسه العجب ، وعلم أن ذلك من الله - تعالى - لا منه ، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق الله ، وأنه ضعيف عاجز

لا يقدر على شيء أصلاً ، فضلاً عن دفع الشيطان ، لحيف عليه الغرور ، بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل . ولا ريب أن الأمن من مكر الله خاسر مغرور ، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانتقطاع عن الدنيا ولذاتها ، أن يرى ذلك كله من فضل الله ، وكان خائفاً على نفسه من سلب حاله في كل لحظة ، وغير آمن من مكر الله ، وغير غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا يحيص عنه وخوف لا نجاة منه ، إلا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة ، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزح - وكان قد بقي له نفس - قال : (أفلت مني يا فلان !) ، فقال : (لا ! بعد) .

الطائفة الخامسة

(أهل العبادة والعمل)

والمغرورون منهم فرق كثيرة :

(فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في إزالة النجاسة وفي الوضوء ، فيبالغ فيه ولا يرتضى الماء المحسوم بالطهارة في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة ، وإذا آل الأمر إلى الأكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل ، بل ربما أكل الحرام المحض وقدر له محملاً بعيداً لحله ، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة أكابر الأولياء . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب إحدى يديه على وجهه أو يده الأخرى ، ولا يدري هذا المغرور أن هذا العمل إن كان مع اليقين بمحصول ما يلزم شرعاً فهو تضییع للعمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، وإن كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء إلى البشرة ، فما باله يتيقن

بوصول الماء إلى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط ، مع أن حصول القطع بإيصال الماء إلى البشرة في الغسل ألزم وأوجب . ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات ، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء ، زاعماً أن هذا يكفي لنجاته ، فهو مغرور في غاية الغرور . و (منهم) من اغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها ، فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أو فضيلة الوقت ، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه ، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته ، ولا يحضر قلبه ، ويغتر بذلك ، ويظن أنه إذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير . وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة ، وأخرج حروف الفاتحة وسائر الأذكار عن مخارجها ، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة . من غير اهتمام فيما عدا ذلك . من حضور القلب والتفكير في معاني الأذكار ، ظناً منه أنه إذا صححت القراءة فالصلاة مقبولة ، وهذا أقيح أنواع الغرور .

و (منهم) من اغتر بالصوم ، وربما صام الأيام الشريفة ، بل صام الدهر ، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة ، ولا بطنه عن الحرام عند الإفطار ، ثم يظن بنفسه الخير ، وذلك في غاية الغرور .

و (منهم) من اغتر بالحج ، فيخرج إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال ، ويضيع في الطريق الصلاة ، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذمائم الصفات ، ومع ذلك يظن أنه على خير . فهو في غاية الغرور . و (منهم) من اغتر بقراءة القرآن ، فيهدأ هذا ، وربما يحتتم في اليوم

والليلة مرة ، فيجري به لسانه ، وقلبه مردد في أودية الأمانى ، وربما أسرع في القراءة غاية السرعة ، ويظن أن سرعة اللسان من الكجالات ، ويتفاخر به على الأمثال والأقران .

و (منهم) من اغتر ببعض النوافل ، كصلاة الليل ، أو مجرد غسل الجمعة ، أو أمثال ذلك ، من غير اعتداد بالفرائض ، زاعماً أن المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيهِ في الآخرة ، فهو أيضاً من المغرورين .

و (منهم) من تزهد وقنع بالدون من المطاعم والملبس والمسكن ، ظاناً أنه أدرك رتبة الزهاد ، ومع ذلك راغب في الرئاسة باشتهاره بالزهد ، فهو ترك أهون المهلكين بأعظمها ، إذ حب الجاه أشد فساداً من حب المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان أقرب إلى السلامة ، فهو مغرور ، إذ ظن أنه من الزهاد ، ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة ، وهو يجبها ، فكيف يكون زاهداً ؟

الطائفة السادسة

(المتصوفة)

والمعترون فيهم أكثر من أن يحصى :

(فمنهم) أرباب البوقات ، وهم القلندرية الذين لا يعرفون معنى التصوف ولا شيئاً من مراسم الدين ، وصرخوا أوقانهم في التسكدي والسؤال من الناس ، ويظنون أنهم تاركون الدنيا مقبلون على الآخرة ، مع أنهم لو ظفروا بشيء من أمور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم ، فهؤلاء أراذل الناس بوجوه كثيرة لا تحفى .

و (منهم) من اغتر بالزى ، والمنطق ، ولبس الصوف ، واطراق الرأس وادخاله في الجيب ، وخفض الصوت ، وتنفس الصعداء ، وتحريك البدن في

الطول والعرض ، والسقوط إلى الأرض ، (لا) سيما إذا سمعوا كلاماً في الوحدة والعشق ، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منهما . وربما تجاوز بعضهم من ذلك إلى الرقص والتصفيق ، وابداء الشهيق والنهيق ، واختراع الاذكار ، والتغنى بالاشعار . . . وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة ، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل إلى الدرجات العالية ، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد إلى سخط الله وعذابه .

و (منهم) من وقع في الإباحة ، وطوى بساط الشرع والأحكام ، وترك الفصل بين الحلال والحرام ، يتكالب على الحرام والشبهات ، ولا يحتز عن أموال الظلمة والسلاطين . وربما قال : المال مال الله والخلق عيال الله ، فهم فيه سواء . وربما قال : ان الله مستغن عن عملي ، فأى حاجة إلى أن أتعب نفسي فيه ؟ وربما قال : لا وزن لأعمال الجوارح ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة إلى حب الله وأصلة إلى معرفة الله . وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية ، وقالوا : إنها لا تصدنا عن طريق الله ، لقوة نفوسنا وقوة أقدامنا فيها ، وإنما يحتاج العوام إلى تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، ونحن مستغنون عنه . فهو لاء يرفعون درجاتهم عن درجة الأنبياء عليهم السلام - إذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الأمور المباحة فضلاً عن الخطايا والمعاصي يصدحهم عن طريق الله ، حتى يبكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح ، فهم أشد الناس غروراً ، وأعظم الخلق حماقة وجهلاً .

و (منهم) من يدعى غاية المعرفة واليقين والوصول إلى درجات المقربين ، ومشاهدة المعبود ، ومجاورة المقام المحمود ، والملازمة في عين الشهود ، وتلقف من الطامات كلمات يرددها ، ويظن أنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن السماء . وينظر إلى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء

بعين الحقدارة والازدراء ، يقول في العباد : إنهم أجراء مبهوثون ، وفي العلماء : إنهم بالحديث عن الله لمحجوبون ، ويدعى لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبي ولا ولي ، ويدعى كونه واصلاً إلى الحق فارغاً عن أعباء التكليف ، لا علماً أحكم ولا عملاً هذب ، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الأغنياء للوصول إلى بعض حطامهم الخبيثة ، فهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، مع ظنه أنه من المقربين ، فهو أشد الغافلين المغرورين .

و (منهم) ملامية يرتكبون قبائح الأعمال وشنائع الأفعال الموجبة للبعد عن طريق المروة ، ظناً منهم أن هذا موجب لكسر النفس وإزالة ذمائم الأخلاق ، ولم يعلموا أن هذه الأفعال من الذمائم ، وقد نهى صاحب الشرع عنه .

و (منهم) من اشتغل بالرياضة والمجاهدة ، وقطع بعض المنازل ، ووصل إلى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته ، إلا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات ، إما لاعتراض مفسد في أثناء السلوك ، أو لوقوعه في الأثناء ظناً منه أنه وصل إلى الله ولم يصل بعد ، فإن لله سبعين حجاباً من نور ، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل ، واليه الإشارة في حكاية الخليل ، حيث رأى أولاً كوكباً ، فقال : « هذا ربي » ، ثم انتقل إلى القمر ، ثم عنه إلى الشمس ، فإنه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الأجسام المضيئة ، فإن شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة . بل هذا ينافي شأنه ورتبته ، فالمراد بهذا الأنوار التي هي من حجب الله ، ويراها السالك في الطريق ، ولا يتصور الوصول إلى الله إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهي حجب من النور بعضها أعظم من

بعض ، فاستعير لفظ الكوكب لصغره لأقل مراتبها ، والقمر لا وسطها ، والشمس لأعظم مراتبها ، والخليل ^{عليه السلام} لم يزل عند سيره في الملكوت يصل إلى نور بعد نور ، ويتخيل إليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل ، ثم انكشف له أن وراه امر ، فيترقى إليه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب ، فقال : هذا أكبر ، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ، قال :

« لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي ... » (١)

فسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب ، وربما يغتر بالحجاب الأول ، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه ، فإنه - أيضاً - أمر رباني ونور من أنوار الله ، تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره اشراقاً عظيماً ، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه ، وهو في أول الأمر كان محجوباً ، فاذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد اشراق نور الله - تعالى - ربما التفت صاحب القلب إلى القلب ، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة ، فيقول : انا الحق ! فإن لم يتضح له ما وراء ذلك ، اغتر به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ، ولم يصل بعد إلى القمر ، فضلاً عن الشمس ، فهو مغرور . وهذا محل الالتباس ، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج ، كما قيل :

رقّ الزجاج ورقّت الخمر فتشابهها وتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح ، فأوا اشراق نور الله قد تلاً لا فيه ، فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء ، فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء ، فيمد اليد اليه ، فهو مغرور . وأنواع الغرور في طريق السلوك الى الله كثيرة لا تحفى على أرباب البصيرة .

ثم أكثر المتلبسين بلباس العارفين - مع كذبهم فيما يدعون به ، ونقصانهم في طريق السلوك ، وجهلهم بحقيقة الأمر ، وعدم قطعهم جل المقامات - يتشبهون بالصادقين من العرفاء في زيهم وهيتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم ، ظانين أنهم بهذا التشبه يصلون الى مراتبهم ، فهيات هيات 1 إن الوصول الى درجة كل أحد إنما تحصل بالانصاف باوصافه الباطنة والتخلق باخلاقه النفيسة ، دون التشبه به في حالاته الظاهرة ، وقد شبههم بعض الأكارب بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها الى أن تكون مثلهم ، فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلمت من رجز الأبطال ألياناً ، وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان ، وتلقفت جميع شمائلهم في الزى والمنطق والحركات والسكنات، وتوجهت الى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان ، فلما وصلت اليه ، أنفذت الى ديوان العرض ، وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع ، وينظر الى حقيقتها ، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتهما ، فلما جردت فاذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شئ ، فقيل لها : أجمت الاستهزاء بالملك واهل حضرته ؟ خذوها والقوها قدام الفيل ، فداسها ونحتها . فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة ، اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا الى القاضى الحق الذى لا ينظر الى الزى واللباس بل الى سر القلب وصفاته

الطائفة السابعة

(الأغنياء وأرباب الأموال)

والمغتربون فيهم أكثر من المغتربين من سائر الطوائف :

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالأموال المحرمة ، وربما غصب أرض المساجد والمدارس ، وربما صير لها موقوفات أخذها من غير حلها ، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة ، ولذا يسمى في كتابة اسمه على أحجارها ليتخذ ذكره ويبقى بعد الموت أثره ، ويظن المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك ، وأنه مخلص فيه ، ولم يدرك أنه تعرض لسخط الله في كسب هذه الأموال وفي انفاقها ، وكان الواجب عليه الامتناع عن أخذها من أهله ، وإذا عصى الله وأخذها ، كان الواجب عليه التوبة وردها إلى أهلها ، فإن لم يبق من أخذها منه ولا وراثته ، كان الواجب أن يتصدق بها على المساكين ، مع أنه ربما كان في بلده أو في جواره مسكين يكون في غاية الفقر والمسكينة ولا يعطيه درهما .

و (منهم) من ينفق الأموال في الصدقات ، إلا أنه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والافشاء للمعروف ، ويكره التصديق في السر ، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها ، وربما يكره التصديق على فقراء بلده ويرغب أن يعطى أهل البلاد الآخر مع أكثرية استحقاق فقراء بلده ، طلباً لاشتهاره بالبذل والعطاء في البلاد الخارجة البعيدة ، وربما يصرف كثيراً منه إلى رجل معروف في البلاد وإن لم يكن مستحقاً ، ليشتهر ذلك في البلاد ، ولا يعطى قليلاً منه إلى فقير له غاية الاستحقاق إذا كان حامل الذكر ، يفعل هذا ويظن أنه يجلب بذلك الأجر والثواب ، ولم يدرك المغرور أن هذا القصد

احبط عمله واضاع ثوابه .

و (منهم) من يجمع مالا من غير حله ، ولا يبالي باخذ المال من أى طريق كان ، ثم يمسكه غاية الامسك ، إلا أنه لا يبالي بصرف بعضه فى طريق الحج ، إما لنفسه فقط ، أو لأولاده وازواجه أيضاً ، إما للاشتهار ، أو لما وصل اليه : أن تارك الحج يبتلى بالفقر .

و (منهم) من غلب عليه البخل ، فلا تسمح نفسه بانفاق شىء من ماله ، فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة ، ظناً منه أن ذلك يكفى لنتجاته ، ولم يدرك ان البخل صفة مهلكة لا بد من ازالتها ، وعلاجه : بذل المال دون العبادات البدنية . ومثله مثل من دخلت فى ثوبه حية ، وقد اشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السمكنجبين ليسكن الصفراء ، وغافل بأن الحية تقتله الآن ، ومن قتلته الحية فأى حاجة له الى السمكنجبين ؟

وصل

(ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد)

قد عرفت ان الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب . فصدّه الفطانة والعلم والزهد ، فمن كان فطناً كيساً عارفاً بربه ونفسه وبالآخرة والدنيا ، وعالماً بكيفية سلوك الطريق الى الله وبما يقربه اليه وبما يبعده عنه ، وعالماً بأفات الطريق وعقباته وغوائله ، لا جتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان فى شىء من الامور ، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريباً فى هذا العالم اجنبياً من هذه الشهوات البهيمية ، عرف كون هذه الشهوات مضرة له . وأن الموافق له طبعاً هو معرفة الله والنظر الى وجهه ، فلا يسكن نفسه الى شهوات الدنيا ، ومن عرف ربه وعرف الدنيا والآخرة ولداتهما وعدم النسبة بينهما ثار فى قلبه حب الله والرغبة إلى دار الآخرة والانزجار

عن الدنيا ولذاتها ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صححت نيته في الأمور كلها ، فإن أكل - مثلاً - أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الأغراض والنزوع الى الدنيا وإلى الجاه والمال ، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله ، لم يمكنه الخلاص من الغرور. فالأصل في علاج الغرور : أن يفرغ القلب من حب الدنيا ، ويغلب عليه حب الله ، حتى تتقوى به الإرادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور . قال الصادق عليه السلام : « واعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتنى إلا بصدق الإنابة الى الله ، والاحبات له ، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم ، ولا يحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى ، وإن كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد أشقى بعملك منك وأضيع عمراً ، فأورثت حسرة يوم القيامة » (١) .

ومنها :

طول الأمل

معنى طول الأمل ومرجه - علاجه - ضده قصر الأمل - اختلاف الناس في طول الأمل - ذكر الموت مقصر للأمل - التعجب ممن ينسى الموت - الموت أعظم الدواهي - مراتب الناس في ذكر الموت .

* * *

وهو أن يقدر ويعتقد بقاءه الى مدة متبادية ، مع رغبته في جميع توابغ البقاء : من المال والأهل والدار وغير ذلك ، وهو من رذائل قوى العاقلة والشهوة، إذ الاعتقاد المذكور راجع الى الجهل المتعلق بالعاقلة ، وحب

لجميع توابع البقاء وميله اليه من شعب حب الدنيا . وجهله راجع الى تعويله : إما على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، ولا يتفكر المسكين في ان مشايخ بلده لو عدوا لسكوا أقل من عشر عشير أهل البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب اكثر ، والى أن يموت شيخ يموت الف صبي وشاب ، أو على صحته وقوته ، ويستبعد مجيء الموت فجأة ، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد ، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد ، إذ كل مرض انما يقع فجأة ، واذا مرض لم يكن الموت بعيداً . ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من شباب وشيب وكهولة ، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع ، وليل ونهار ، وحضر وسفر ؛ لكان دائماً مستشعراً غير غافل عنه ، وعظم اشتغاله بالاستعداد له ، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل ، فهو أبداً يظن أن الموت بين يديه ، ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه ، ويشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه ، والفه بتكرر مشاهدة موت غيره . وأما موت نفسه ، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه ؛ لأنه لم يقع ، واذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده ، فهو الأول وهو الآخر !

وأما حبه لتوابع البقاء : من المال والدار والمراكب والضياع والعقار ، فراجع الى الانس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة ، فيثقل على قلبه مفارقتها ، فيمنع قلبه عن التفكير في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، إذ كل من كره شيئاً يدفعه عن نفسه . والانسان لما كان مشغولاً بالاماني الباطلة ، وبالدينا وشهواتها ولذاتها وعلائقها ، فتمتنى نفسه أبداً ما يوافق مراده ، ومراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقررره في نفسه ، ويقدر توابع البقاء من اسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربته ، فإن خطر له في بعض الاحيان امر الموت والحاجة

إلى الاستعداد له ، سوف ووعد نفسه الى أن يكبر فيتوب ، وإذا كبر آخر
التوبة الى أن يصير شيخاً ، وإذا صار شيخاً يؤخرها الى أن يفرغ من عمارة هذه
الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير
مسكن له ، ولا يزال يسوف ويؤخر الى ان يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه ،
فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته ، وقد ورد أن أكثر أهل النار صياحهم
من سوف ، يقولون واحزنناه من سوف ! والمسوف المسكين لا يدري أن
الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً ، وإنما يزداد بطول المدة قوة
ورسوخا ، إذ الخائض في الدنيا لا يتصور له الفراغ منها قط ، اذا ما قضى من
اخذ منها لباتته ، وإنما فرغ منها من اطرحها .

فصل

(علاج طول الأمل)

لما عرفت أن طول الأمل منشأ الجهل وحب الدنيا ، فينبغي أن يدفع
الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى ، وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة ،
فإن من تفكر يعلم أن الموت اقرب اليه من كل شيء ، وأنه لا بد أن تحمل
جنازته ويدفن في قبره ، ولعل اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ
منه ، ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به . وأما
حب الدنيا فينبغي أن يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة
الآخرة ، وما ورد في الأخبار من الذم والعقاب في حب الدنيا والرغبة اليها ،
ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها ، وقد تقدم ما يكفي لهذا البيان ،
وينبغي - أيضاً - أن يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الأمل - أعني قصر
الأمل كما يأتي - وما ورد في ذم طول الأمل ، كقوله - صلى الله عليه وآله - :
« إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل . فأما اتباع

الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا - ثم قال - :
 إن الله يعطى الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب عبداً أعطاه الايمان ، ألا إن
 للدين ابناء وللدنيا ابناء ، فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء
 الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ، ألا إن الآخرة قد اتت مقبلة ، ألا
 وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وانكم يوشك أن تكونوا في يوم
 حساب ليس فيه عمل ، (١) . وقوله - صلى الله عليه وآله - : « نجا أول هذه
 الأمة باليقين والزهد ، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » . وقول
 أمير المؤمنين - عليه السلام - : « ما أطال عبد الأمل إلا أساء الأمل » .

وصل

(قصر الأمل)

ضد طول الأمل قصره ، وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين ، ولذا
 ورد في الأمر به والنهي عن ضده ما ورد ، قال رسول الله - صلى الله عليه
 وآله - : « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث
 نفسك بالصباح ، وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك لموتك ، ومن
 صحتك لسقمك ، فإنك لا تدري ما اسمك غداً » . وقال - صلى الله عليه وآله -
 بعد ما سمع أن اسامة اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر : « إن اسامة لطويل
 الأمل ، والذي نفسى بيده ! ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم : ٤ / ٣٨٤ ، وهو يرويه عن علي - عليه السلام -
 عن النبي - صلى الله عليه وآله - ، ولا يكن في كثر العيال : ٢ / ١٦٩ ، يرويه : انه من
 كلام علي - عليه السلام - نفسه ، مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء . وعبارة السكندر
 أبلغ وأرصن ، وفيه كلمة (الآخرة) بدل (الدين) ، ونفس الكلام مع اختلاف يسير أيضاً
 (وهو أبلغ وأعلى من العبارتين) ، صروي في نهج البلاغة : رقم ٤١ من باب الخطب ، فراجع .

حتى يقبض الله روحى ، ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى اقبض ،
 ولا لقمتم لقمة إلا ظننت أنى لا اسيغها حتى اغص بها من الموت ، ثم قال :
 « يا بنى آدم ! إن كنتم تعقلون فعدوا انفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده !
 أن ما توعدون لآت وما أتم بمعجزين » . وروى : « أنه - صلى الله عليه وآله -
 قد اطلع ذات عشية الى الناس ، فقال : أيها الناس ! أما تستحيون من الله
 تعالى ؟ قالوا : وما ذلك يا رسول الله ! قال : تجمعون ما لا تأكلون ،
 وتأملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تسكنون » . وقال - صلى الله عليه
 وآله - : أكلكم يجب أن يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ! قال :
 قصروا من الأمل ، واجعلوا آجالكم بين ابصاركم ، واستحيوا من الله حق
 الحياء . وكان - صلى الله عليه وآله - يقول فى دعائه : « اللهم إني أعوذ بك
 من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ
 بك من أمل يمنع خير العمل » . وكان - صلى الله عليه وآله - يتيمم مع القدرة
 على الماء قبل مضى ساعة ، ويقول لعلى لا أبلغه . وقال عيسى - عليه السلام - :
 « لا تهتموا برزق غد ، فإن لم يكن غداً من آجالكم فستأتى أرزاقكم مع
 آجالكم ، وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم » .

فصل

(اختلاف الناس فى طول الأمل)

الناس فى طول الأمل وقصره مختلفون : (فمنهم) من يأمل البقاء
 ويشتهيهِ أبداً ، كما قال الله - سبحانه - :

« يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ » (١)

(١) البقرة ، الآية : ٩٦ .

وهو الذى انغمر فى الدنيا وخاض فى لذاتها ، وليس له من الآخرة نصيب . (ومنهم) من يأمل البقاء الى اقصى مدة العمر الذى يتصور لأهل عصره ، وهو الذى يحب الدنيا حباً شديداً ، ويشتغل بجمع ما يمكنه فى هذه المدة ، وربما يجتهد بجمع الأزيد منه . (ومنهم) من يأمل أقل من ذلك إلى أن ينتهى الى من لا يأمل ازيد من سنة ، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ، ولا يقدر لنفسه وجوده فى عام قابل ، فإن بلغه حمد الله على ذلك ، ومثله يستعد فى الصيف للشتاء وفى الشتاء للصيف ، واذا جمع ما يكفيه السنة اشتغل بالعبادة . (ومنهم) من يأمل أقل من السنة إلى أن ينتهى إلى من لا يأمل ازيد من يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره دون غده . (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه ، كأنه واقع به وهو ينتظره ، ومثله يصلى دائماً صلاة المودعين . وروى : « أن النبي - صلى الله عليه وآله - سأل بعض الصحابة عن حقيقة ايمانه ، قال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها اخرى . » وكان بعضهم اذا يصلى يلتفت يمينا وشمالا ، ولما قيل له : ما هذا الالتفات ؟ قال : « انتظر ملك الموت من أى جهة يأتينى . »

ثم اكثر الخلق - (لا) سيما فى أمثال زماننا - قد غلبهم طول الأمل ، بحيث لا يأمل اقل من أقصى مدة السن ، وقلّ فيهم من قصر أمله ، والعجب أنه كلما يزداد السن يزداد طول الأمل ، وفى عصرنا اكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أملهم اكثر من الشبان ، ومن هنا قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان : الحرص ، وطول الأمل . » وقال - صلى الله عليه وآله - : حب الشيخ شاب فى طلب الدنيا ، وإن التفت ترقواته من الكبر ، إلا الذين اتقوا ، وقليل ما هم . »

ثم يعرف طول الأمل وقصره بالأعمال : فمن اعتنى بجمع اسباب

لا يحتاج اليها في سنة فهو طويل الأمل ، وكذلك من انتشرت اموره ، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات إلى مدة معينة ، كالسنة وازيد منها ، وكان عليه ديون من الناس كذلك ، ومع ذلك لم يكن مضطرباً ولا خائفاً فهو طويل الأمل . فعلامة قصر الأمل : أن يجمع امره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء ، ولا يسعى لطلب قوت الزائد على أربعين يوماً ، ويصرف أوقاته في الطاعة والعبادة . ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد .

فصل

(ذكر الموت مقصر للأمل)

ذكر الموت يقصر الأمل ويدفع طوله ، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود ، ولذا ورد في فضيلته والترغيب فيه اخبار كثيرة ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « اكثروا ذكر هادم اللذات » ، قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « الموت » ، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعة إلا ضاقت عليه الدنيا ، ولا في شدة إلا اتسعت عليه . وقال - صلى الله عليه وآله - : « تحفة المؤمن الموت » . وقال - صلى الله عليه وآله - : « الموت كفارة لكل مسلم » . وقيل له - صلى الله عليه وآله - : هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نعم ! من يذكر الموت في اليوم واللييلة عشرين مرة » . وقال - صلى الله عليه وآله - : « اكثروا من ذكر الموت ، فإنه يمحص الذنوب ، ويزهد في الدنيا » . وقال - صلى الله عليه وآله - : « كفى بالموت واعظاً » . وقال - صلى الله عليه وآله - : « الموت الموت ، ألا ولا بد من الموت ، جاء الموت بما فيه ، جاء بالروح والراحة والمكرة المباركة إلى جنة عالية لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم » . وقال - صلى الله عليه وآله - : « اذا استحققت ولاية الله والسعادة ، جاء الأجل بين العينين وذهب وآله - : »

الأمل وراء الظهر ، وإذا استحققت ولاية الشيطان والشقاوة ، جاء الأمل بين
العينين وذهب الأجل وراء الظهر ، و ذكر عنده - صلى الله عليه وآله - رجل ،
فاحسنوا الثناء عليه ، فقال - صلى الله عليه وآله - : « كيف ذكر صاحبكم للموت ؟ » ،
قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال : « فان صاحبكم ليس هنالك » ، وسئل :
أى المؤمنين أكيس وأكرم ؟ فقال : « أكثرهم ذكراً للموت ، واشدهم استعداداً
له ، أولئك هم الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » ، وقال
الباقر - عليه السلام - : « أكثروا ذكر الموت ، فإنه لم يكثر ذكره انسان
إلا زهد في الدنيا » ، وقال الصادق - عليه السلام - : « اذا انت حملت جنازة
فيكن كأنك انت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع الى الدنيا ففعل ، فانظر
ماذا تستأنف » ، ثم قال - عليه السلام - : « عجباً لقوم حبس أولهم عن
آخرهم ، ثم نودى فيهم بالرحيل وهم يلعبون » ، وقال - عليه السلام - لأبي
بصير - بعد ما شكى اليه الوسواس - : « اذكر يا ابا محمد تقطع أو صالك
في قبرك ، ورجوع أحيائك عنك اذا دفنوك في حفرتك ، وخروج بنات الماء
من منخريك ، واكل الدود لحمك ، فإن ذلك يسلي عليك ما أنت فيه » ، قال
ابو بصير : فوالله ! ما ذكرته إلا سلى عني ما أنا فيه من هم الدنيا . وقال
- عليه السلام - : « من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين ، وكان
ما جوراً كلما نظر اليه » ، (١) . وقال - عليه السلام - : « ذكر الموت يميت
الشهوات في النفس ، ويقطع منابت الغفلة ، ويقوى القلب بمواعد الله ، ويرق
الطبع ، ويكسر اعلام الهوى ، ويطنق نار الحرص ، ويحقر الدنيا ، وهو
معنى ما قال النبي - صلى الله عليه وآله - : (فمكر ساعة خير من عبادة سنة) ،

(١) صححنا أكثر الاحاديث على الوسائل - ج ١ : الباب ٢٣ من ابواب الاستحضار

في كتاب الظهارة - ، وعلى احياء العلوم : ٤ / ٢٨٣ .

وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخرة ، ولا ينسکر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة ، ومن لا يعتبر بالموت ، وقلة حيلته ، وكثرة عجزه ، وطول مقامه في القبر ، وتحيره في القيامة : فلا خير فيه . وقال النبي - صلى الله عليه وآله - : (اكثرُوا ذكر هادم اللذات ...) ، ثم ذكر تمام الحديث كما مر ... ثم قال - عليه السلام - : والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا ، فطوبى لمن اكرم عند النزول باولها ، وطوبى لمن احسن مشايعته في آخرها ، والموت أقرب الأشياء من بنى آدم ، وهو بعده ابعد ، فما أجراً الانسان على نفسه ، وما أضعفه من خلق ، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ، ولذلك اشتاق من اشتاق الى الموت وكره من كرهه ، قال النبي - صلى الله عليه وآله - : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كرهه لقاءه) ، (١) .

فصل

(العجب ممن ينسى الموت)

عجباً لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه ، وهو اظهر اليقينيات والقطعيات في العالم ، واسرع الأشياء إلى بنى آدم ، قال الله - سبحانه وتعالى - :
 « أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكِكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي
 بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ » (٢) . وقال - سبحانه - : « كُلُّ نَفْسٍ
 ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ
 زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : الباب ٨٤ .

(٢) الفساء ، الآية : ٧٧ .

الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » (١) .

وقال الصادق - عليه السلام - : « ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » . وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - : « ما انزل الموت حق منزلته من عدّ غداً من أجله » . وقال - عليه السلام - : « لو رأى العبد أجله وسرعته اليه ، لأبغض العمل من الدنيا » . وقال الصادق عليه السلام : « مامن أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات » . وقد تقدمت اخبار آخر في هذا المعنى .

فصل

(الموت أعظم الدواهي)

اعلم أن الموت داهية من الدواهي العظمى ، ومن كل داهية أشد وادهى ، وهو من الأخطار العظيمة والأهوال الجسيمة ، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والدود أنيسه والمقارب والحيات جليسه ، فحدير أن تطول حسرته وتدوم عبرته ، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته ، وتشتد لأجله رزيقته ، ويرى نفسه في أصحاب القبور ويعدها من الاموات ، إذ كل ما هو آت قريب ، والبهيم ما ليس بآت ، وحقيق ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده إلا فيه وله ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - « لو أن البهائم يعلمون ما تعملون ما اكلتم منها سمياً » . وقال - صلى الله عليه وآله - تقوم يتحدثون ويضحكون : « اذكروا الموت ، أما والذي نفسي بيده ! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » . ومر - صلى الله عليه وآله - بمجلس قد استعلاه الضحك ،

(١) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

فقال : « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر الذات » . قالوا : وما مكدر الذات ؟
قال : « الموت » .

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكيرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره
ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها ، فلا
ينفع ذكره في قلبه ، فالطريق فيه : أن يفرغ القلب عن كل شيء إلا عن
ذكر الموت الذي بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى بلد بعيد ما بينهما
مفازة خطيرة ، أو بحر عظيم لا بد أن يركبه ، فإنه لا يتفكر إلا فيه ، ومن
تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك ، لا أثر ذكره في قلبه ، وعند
ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا ، وتزجر نفسه عنها ، وينسكس قلبه ،
ويستعد لأجله . وأوقع طريق فيه : أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله ،
ونقلوا من انس العشرة إلى وحشة الوحدة . ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللجود ،
ومن ملاعبة الجراري والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان ، ويتذكر مصرعهم
تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ثم يتفكر كيف
محي التراب الآن حسن صورتهم . وكيف تبددت اجزائهم في قبورهم ، وكيف
أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم
ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأوحشت ديارهم ، فمهما تذكر رجلا رجلا ، وفصل
في قلبه حاله وكيفية حياته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وأمله في العيش
والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمؤثرات الأسباب ، وركونه إلى القوة
والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع
والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه
ومفاصله ، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد
أكل التراب لسانه ، وكيف دبر لنفسه الأمور وجمع من حطام الدنيا ما لا
يتفق احتياجه إليه على مر الأعوام والشهور وكر الأزمنة والدهور . ثم يتأمل

أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وسيصير حاله في القبر كحالهم ، فملازمة هذه الأفكار وامثالها ، مع دخول المقابر وتشجيع الجنائز ومشاهدة المرضى ، تجدد ذكر الموت في قلبه ، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه ، وعند ذلك ربما يستعدله ويتجافى عن دار الغرور ، وأما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى في التنبية والايقاظ . ومهما طاب قلبه بشيء من اسباب الدنيا ، فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتة . كما نقل : أن بعض الاكابر نظر يوماً الى داره فاعجبه حسنها ، فبكى وقال : والله لو لا الموت لكنت بها مسروراً .

فصل

(مراتب الناس في ذكر الموت)

الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها ، وبين تائب مبتدئ ، وعارف منتهى .

(فالأول) : لا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره ليذمه لصدده عما يحبه من الدنيا ، وهو الذي يفر منه ، وقال الله - تعالى - فيه :

« قُلْ إِنْ أُلِّمْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ فَلْيُحْمَلْهُ الَّذِينَ آفَرْتُمُ بِهِمْ إِنْ كُنْتُمْ عَادِلِينَ »

مُؤَلَّفِيكُمْ... الآية (١) .

وهذا يزيد ذكر الموت بعداً من الله ، إلا اذا استفاد منه التجافى عن الدنيا ، ويتنصص عليه نعيمه ، ويتكدر صفو لذته ، وحينئذ ينفعه ، لأن كل ما يكدر على الانسان اللذات فهو من أسباب نجاته .

(والثاني) : يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والحشية ، فيفي

بتمام التوبة ، وربما يكرهه خيفة من أن يحتطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة ، وهو معذور في كراهة الموت ، ولا يدخل تحت قوله - صلى الله عليه وآله - : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، لان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلاً بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقاءه . وعلامة هذا : أن يكون دائماً الاستعداد للموت لا يشغل له سواه ، وإن لم يكن مستعداً له عاملاً بما ينفعه في الآخرة التحق بالاول .

(واما الثالث) : فانه يذكر الموت دائماً ؛ لانه موعد للقاء حبيبه ، والمحبة لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا في غالب الامر يستبطنه محبي الموت ويحب مجيئه ، ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما روى : « أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من رده ، اللهم إن كنت تعلم أن الفقير أحب إلي من الغني ، والسقم أحب إلي من الصحة ، والموت أحب إلي من الحياة ، فسهل علي الموت حتى ألقاك » . وأعلى رتبة منه : من يفوض امره إلى الله ، ولا يختار لنفسه شيئاً : من الموت أو الحياة ، والفقير والغني ، والمرض والصحة ، بل يكون أحب الاشياء إليه أحبها إلى مولاه ، وهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى درجة التسليم والرضى ، وهو الغاية والانتها .

تتميم

(المبادرة الى الحسنات)

من علامات قصر الامل وذكر الموت : المبادرة الى الحسنات واشتياق الخيرات ، ولذا ورد فيه الترغيب والحذر عن آفة التأخير ، قال رسول الله

- صلى الله عليه وآله - : « اغتتم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك . » وقال - صلى الله عليه وآله - : « من خاف أدجاً ومن أدج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ، (١) . » وكان - صلى الله عليه وآله - إذا احس من أصحابه غفلة وغرة ، نادى فيهم بصوت عال : « اتتمكم المنية ، إما بشقاوة أو بسعادة . » وروى : أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادى : أيها الناس ! الرحيل الرحيل ! . وقال بعض الأكابر : التؤدة في كل شيء خير ، إلا في أعمال الآخرة .
ومنها :

المعصيان

ولا ريب في كونه من رذائل قوتي الغضب والشهوة معاً ، لأن بعض أنواعه من رذائل احدهما من جانب الافراط أو التفريط ، أو من باب رداءتها ، وبعض آخر من أنواعه من رذائل الأخرى . وضده (التقوى والورع) ، وبالمعنى الأعم : اعني الاجتناب عن مطلق المعصية خوفاً من سخط الله ، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما ، فتذكر .
ومنها :

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس ، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية ، وكونه من رداءة قوتي الغضب والشهوة ظاهر .

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم : ٤ / ٣٩٠ . وفي نسخ الكتاب (اولج

ومن اولج) .

ضدها (الحياء) ، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذراً من الذم واللوم ، وهو أعم من التقوى ، إذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية ، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضاً ، فهو من شرائف الصفات النفسية ، ولذا ورد في فضله ما ورد ، قال الصادق - عليه السلام - : « الحياء من الايمان ، والايان في الجنة ، . وقال - عليه السلام - : « الحياء والعفاف والعي - أعنى عى اللسان لا عى القلب - من الايمان ، . وقال - عليه السلام - : « الحياء والايان مقرونان في قرن ، فاذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه ، . وقال - عليه السلام - : « لا ايمان لمن لا حياء له ، . ثم حقيقة الحياء - كما عرفت - هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعاً أو عقلاً أو عرفاً ، فالانفعال عن غير ذلك حمق ، فان الانفعال عن تحقيق احكام الدين أو الخلود عما ينبغى شرعاً وعقلاً لا يعد حياء بل حمقاً ، ولذا قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « الحياء حياءان : حياء عقل وحياء حمق ، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل ، (١) . ومنها :

الاصرار على المعصية

رجوع رذيلة الاصرار إلى أى القوى وذمها - ضد الاصرار التوبة وتعريفها - هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟ - وجوب التوبة - تحقيق في وجوبها - عموم وجوبها - لا بد من العمل بعدها - فضيلتها - قبولها - طريقة التوبة من المعاصي - تكفير الصغائر ومعنى الكبائر - الصغائر قد تكون كبائر - شروط كمال التوبة - هل يصح التبويض فيها؟ - أقسام

(١) صححنا الأحاديث هنا على اصول الكافي (باب الحياء) .

التائبين - مراتب التوبة - عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة - علاج الاصرار على الذنوب - الانابة - المحاسبة والمراقبة - المعنى الظاهر لهما - حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا - مقامات مرابطة الفعل للنفس .

* * *

وهو إما ناشئ من رداء احدى القوتين وخروجهما عن اطاعة العاقلة، أو عن رداءتهما معاً ، فيكون من رذائل القوتين ، وكل ما يدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية بطريق أولى واوكسد . والأخبار الواردة في ذم خصوص افراد المعاصي ربما يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية، وأما الأخبار الواردة في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جداً ، كقول النبي - صلى الله عليه وآله - : « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان باربعة اصوات ، يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : فيا ليتهم إذ لم يعملوا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ، فيقول الآخر : ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا بما عملوا . واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام ، وأنه لينظر الى ازواجه في الجنة يتنعمن . » وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - : « لا تبدين عن واضحة وقد عميت الأعمال الفاضحة ، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات . » وقال الباقر - عليه السلام - : « إن الله قضى قضاء حتماً ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النعمة . » وقال - عليه السلام - : « ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته ، إن القاب ليواقع الخطيئة ، فما يزال به حتى يغلب عليه ، فيصير أعلاه أسفله . » وقال - عليه السلام - : « إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق . » وقال

الصادق - عليه السلام - : « يقول الله - تعالى - : إن أدنى ما اصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن احرمه لذينة مناجاتي . » وقال - عليه السلام - : « من همّ بسيئة فلا يعملها ، فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب - تعالى - فيقول : وعزتي وجلالي ! لا أغفر لك بعد ذلك أبداً . » وقال عليه السلام : « أما إنه ليس من عرق يضرب ، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض ، إلا بذنب ، وذلك قول الله - عز وجل - في كتابه :

« وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » (١) .

قال - عليه السلام - : وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به . . وقال عليه السلام : « إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم . » وقال السكاظم - عليه السلام - : « حق على الله ألا يعصى في دار إلا اضحها للشمس حتى يطهرها ، (٢) . »
والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل إليه أثر الذنب ووباله ، فإن هذا محال . فإنه لم يتجاوز عن الأنبياء في تركهم الأولى فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي . نعم ، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ويعذبوا في الآخرة عذاباً أكبر وأشد ، أما سمعت أن أباك آدم قد أخرج من الجنة بتركه الأولى ؟ حتى روى : « أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، وجاء جبرئيل - عليه السلام - واخذ التاج من رأسه وحلى الأكليل عن جنبه ، ونودي من فوق العرش : اهبطا من

(١) الشورى ، الآية : ٣٠ .

(٢) صححنا الأحاديث هنا على اصول الكافي (باب الذنوب) .

جوارى ، فإنه لا يجاورنى من عصائى ، فالتفت آدم الى حواء باكباً ، وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب . وروى : « أنه - تعالى - قال : يا آدم ! أى جار كنت لك ؟ قال : نعم الجار يارب ! قال : يا آدم ! اخرج من جوارى وضع عن رأسك تاج كرامتى ، فإنه لا يجاورنى من عصائى . وقد روى : « أن آدم بكى على ذنبه مائتى سنة ، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الأولى . فإن كانت مؤاخذته فى نهى تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا ، فكيف معاملته مع الغير فى ذنوب لا تحصى .

وصل

(التوبة وتعريفها)

ضد الاصرار (التوبة) ، وهى الرجوع من الذنب القولى والفعلى والفكرى ، وبعبارة اخرى : هى تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد إلى القرب ، وبعبارة اخرى : ترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير . وكما أن الاصرار على العصيان من رذائل قوتى الغضب والشهوة ، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما . بمعنى أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو احدهما ، ومن فعل النفس باعانتها وانقيادها للعاقلة ، وإن كان الباعث على الرجوع وتهديج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجبا بين العبد وبين المحبوب ، ويمكن أن يقال : إن التوبة هو الرجوع عن الذنب ، وهو من ثمرات الخوف والحب ، فان مقتضى الحب أن يمثل مراد المحبوب ولا يعصى فى شىء مما يريد ويطلب من المحب ، فتكون من فضائل القوتين أيضاً . ويمكن أن يقال : إن التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب ، وكونها حجبا بينه وبين الله ، والندم الحاصل منه ، والقصد المتعلق

بالترك حالا واستقبالا ، والتلافي للماضي والندم ، والقصد بالتترك والتلافي من فعل القوتين أو فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادهما للعاقلة ، والعلم المذكور من العاقلة ، فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث .

وتوضيح حقيقة التوبة : أنه اذا علم العبد علماً يقينياً أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه ، نار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب ، وصار متأسفاً على ما صدر عنه من الذنوب ، سواء كانت افعالا أو تروكا للطاعات ، ويسمى تألمه - بسبب فعله أو تركه المفوت لمحجوبه - ندماً . واذا غلب هذا الندم على القلب ، انبعثت منه حالة اخرى تسمى ارادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابساً له ، وبلاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحجوبه إلى آخر عمره ، وبالماضى بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء . فالعلم - أعني اليقين بكون الذنوب سموماً مهلكة - هو الأول ، وهو مطلع البواقي ، إذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب ، فيتألم به القلب ، حيث ينظر باسراق نور الايمان واليقين أنه صار محجوباً عن محجوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب ، فيرى محجوبه قد اشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه ، وتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك . فالعلم ، والندم ، والقصد المتعلق بالتترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي : ثلاثة معان مترتبة في الحصول ، يطلق اسم (التوبة) على مجموعها . وربما اطلقت التوبة على مجرد الندم . وجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والتترك كالثمره والتابع للمتأخر ، وإلى هذا الاعتبار يشير قوله - صلى الله عليه وآله - : « الندم توبة » ، إذ لا يخلو الندم عن علم أو جبه وثمره ، أو عن عزم يتبهمه ويتلوه ، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه ، أعني ثمرته وثمره . وبهذا الاعتبار

قيل في حدها : إنها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، أو نار في القلب تلتهب
 وصدع في الكبد لا ينشعب ، وربما اطلقت على مجرد ترك الذنوب حالا
 والعزم على تركها استقبالا ، وبهذا الاعتبار قيل في حدها : إنها خلع لباس
 الجفاء ونشر بساط الوفاء ، وإنها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ،
 أو إنها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود
 إليه استقبالا . وعلى هذا لا يكون الندم دخلا في حقيقة التوبة ، وقد صرح
 بعض الاعاظم بخروجه عنها ، محتجا بأن الندم - وهو تألم القلب وحزنه على
 الذنب - غير مقدور ، ولذا ترى تقع الندامة على امور في قلبه وهو يريد ألا
 يكون ذلك فلا يكون الندم مقدورا ، وإنما المقدور تحصيل أسبابه ، أعني
 الايمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما في قلبه . وعلى هذا فلا يكون الندم
 من التوبة ، إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها ، فاللازم فيها التندم دون
 الندم . وغير خفي بأن الندم كغيره من صفات النفس ، فإن أمكن ازالة
 الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك ، وإلا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية ،
 وأيضا إذا أمكن تحصيل سبب الندامة - أعني العلم بفوات المحبوب - لزم ترتب
 المسبب - أعني الندامة عليه - فما معنى عدم كونه مقدورا ، فالندامة في ازالة
 والتحصيل لا يكون اصعب من كثير من الأخلاق النفسية . وبعضهم يعد
 ما عدا التندم من شرائط التوبة ، قال : « وأما الندم - أعني تألم القلب على
 الذنب الذي هو روح التوبة - فغير مقدور ، وهو التوبة حقيقة ، وإنما
 المقدور تحصيل أسبابه من العلم والايمان وتحقيقهما في قلبه ، انتهى . وفيه مالا
 يخفى بهلاوة ما سبق ، قال الصادق - عليه السلام - : « التوبة جبل الله ومدد
 عنايته ، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال ، وكل فرقة من العباد لهم
 توبة ، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات ،

وتوبة الأصفياء من التنفيس ، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله ، وتوبة العام من الذنوب ، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره ، وذلك يطول شرحه هنا .

وأما توبة العام ، فإن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة ، والاعتراف بجنايته دائماً ، واعتقاد الندم على ما مضى ، والخوف على ما بقي من عمره ، ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك إلى المكسل ، ويديم البكاء والاسف على ما فاته من طاعة الله ، ويحبس نفسه عن الشهوات ، ويستغيث إلى الله - تعالى - ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود إلى ما سلف ، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة ، ويقضى عن الفوائت من الفرائض ، ويرد المظالم ، ويعتزل قرناء السوء ، ويسهر ليله ويظماً نهاره ، ويتفكر دائماً في عاقبته ، ويستعين بالله سائلاً منه الاستقامة في سرائه وضرائه ، ويثبت عند المحن والبلاء كيلاً يسقط عن درجة التوايين ، فإن في ذلك طهارة من ذنوبه ، وزيادة في عمله ، ورفعته في درجاته . قال الله - عز وجل - :

« فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَفْلَحَنَّ »

الكاذبين « (١) » (٢) .

تتم:

(هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق ؟)

التوبة إنما تكون عن ذنب سبق مثله ، (أما) (٣) ترك ذنب لم يسبق مثله حالاً والعزم على تركه استقبالاً لا يسمى توبة ، بل يسمى تقوى ، ويسمى

(١) المنكوبت ، الآية : ٣ .

(٢) صححنا هذه الرواية على (مصباح الفريفة : الباب ٨٠) .

(٣) وفي النسخ (أو) بدل (أما) ، والصحيح ما انبتناه .

صاحبه متقياً لا تائباً ، ولذا يصح القول بأن النبي - صلى الله عليه وآله - كان متقياً عن الكفر ، ولا يصح القول بأنه كان تائباً عنه . ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلاً في الصورة أو المنزلة ، فالشيخ الهم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق ، ولم يقدر الساعة على فعلها إذا أراد التوبة عنهما ، ينبغي أن يتوب عما يماثلها منزلة ودرجة ، كالقذف والسرقه وامثالها ، إذ لا معنى للتوبة عما يماثلها صورة - اعنى نفس الزنا وقطع الطريق - مع عدم قدرته عليها ، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء ، لزم أن يكون باب التوبة مسدوداً بالنسبة إلى مثل الشيخ الهم وكل من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها ، وهو باطل ؛ لانفتاح باب التوبة الى الموت ، ولما ذكر ، قال بعض المشايخ في حد التوبة : « إنها ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لا صورة ، تعظيماً لله وخذراً من سخطه » . فقوله : « سبق مثله » احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله ، فإنه لا يسمى توبة بل تقوى ، وقوله : « منزلة لا صورة » ، لادخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله ، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن ، على أنه لو كان قادراً على الزنا لتركه أيضاً ، لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ، فلو كان قادراً عليه لتركه أيضاً .

قال أبو حامد الغزالي : « إن قلت : هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ قلت : لا ! لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله ، فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه ، ثم قال : « ولا يمكن أقول : لو طرأ عليه بعد العنة كشف

ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه ، وثار منه احتراق وتحسر وندم ، بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها ، فاني ارجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته ، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين ، وان لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر اسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تاب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده ، فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه ، بل الظاهر انه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين : - أحدهما - حرقة الندم ، و - الآخر - شدة المجاهدة بالترك في المستقبل ، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ، ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا : ان التوبة لا تقبل مالم يعيش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما يدل الظاهر الشرع على اشتراطه .

فصل

(وجوب التوبة)

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة : بالاجماع ، والنقل ، والعقل :
 أما الاجماع - فلا ريب في انعقاده . وأما النقل - فكقوله - تعالى - :
 « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ » (١) . وقوله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) النور ، الآية : ٣١ .

آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن
يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ « (١).

ومعنى النصوح : الخالص لله خالياً عن شوائب الأغراض ، من مال أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم اسباب ، والأمر للوجوب ، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين .

وأما العقل — فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها . (بيان ذلك) : أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك السرد ، ولو لا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه ، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة الى سعادة الأبد . ولا ريب في أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله والانس به ، فكل من كان محجوباً عن اللقاء والوصول محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال ، فهو شقي لا محالة ، محترق بنار الفراق ونار جهنم . ثم لا مبعث عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات النفسية والغضب والانس بهذا العالم الفاني ، والا كيباب على حب ما لا بد من مفارقتها قطعاً ، ويعبر عن ذلك بالذنوب . ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم ، والاقبال بالسكينة على الله ، طلباً للانس به بدوام الذكر ، والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته . ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول إلى القرب الذي هو السعادة ، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التي عبارة عن العلم والتدم والعزم ، ولا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ، فالتوبة واجبة قطعاً .

تنزيه

(تحقيق في وجوب التوبة)

كيف لا تكون التوبة عن المعاصي واجبة ، مع أن العلم بضرر المعاصي وكونها مهلكة من اجزاء الايمان ووجوب الايمان وبما لا ريب فيه ، والعالم بهذا العلم اذا لم يعمل به فكما لا يعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الايمان ، لأن كل علم يراد ليعلم به فإما لا يكون باعثاً على العمل ، فلا يقع التفصي عن عهده مالم يصير باعثاً ، فالعلم بضرر الذنوب إنما اريد ليعلم به باعثاً على تركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان ، وهو المراد بقول النبي - صلى الله عليه وآله - : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، وما اراد به نفي الايمان بالله ووحديته وصفاته وكتبه ورسله ، فإن ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي ، وإنما اراد به نفي الايمان بالله لكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً لسخطه ، وليس الايمان باباً واحداً ، بل هو - كما ورد - نيف وسبعون باباً ، أعلاها الشهاداتان وادناها اماطة الاذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الانسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً ، أعلاها الروح والقلب وادناها اماطة الاذى عن البشرية ، بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نقي البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسله المتلوثه باروائها ، المستكرهه الصور بطول مخالبتها واطفارها ، فالايان كالانسان ، وفقد الشهاداتين كفقده الروح الذي يوجب البطلان بالكلية ، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر اجزائه من الأعمال ، فهو كيانسان مقطوع الاطراف مفقوه العينين ، فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة ، إلا أصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها ، فكذلك من

ليس له إلا أصل الايمان وهو مقصر في الأعمال ، قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ، فكل ايمان لم يثبت في النفس اصله ولم تنتشر في الأعمال فروعها ، لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة ، فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الايمان الذي هو اصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع ليساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعاً يستدعي وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ، ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع ، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل ، فمساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة ، وإنما يظهر الفرق اذا عصفت الرياح القوية ، فعند ذلك تنقطع اصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها ، وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على اصلها وفرعها . ومثل العاصي الذي لا يخاف الخلود في النار لأجل معصيته اتكالا على ايمانه بالتوحيد والرسالة ، كمثل الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسمومات ولا يخاف الموت اتكالا على صحته ، فكما يؤدي صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والأغذية الى المرض والمرض إلى الموت ، فكذلك تؤدي ذنوب العاصي إلى سوء الخاتمة وسوء الخاتمة إلى الخلود في النار ، فالمعاصي للايمان كالسمومات والمأكولات المضرة للابدان ، فكما أن مضرة السمومات لا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك آثار المعاصي لا تزال

تتراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها اصل الايمان ، فالخائف من الموت في هذه النشأة القصيرة اذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات ، فالخائف من هلاك الابد أولى بأن يجب عليه ترك الذنوب ، ومن تناول السم وندم اذا وجب عليه أن يتقياً ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة ، فتناول سموم الايمان وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام مهلة التدارك .

فالبدار البدار معاشر اخواني إلى التوبة ! قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح ايمانكم عملاً لا ينفع بعده الاحتماء ، ويخرج الأمر فيه عن ايدي اطباء القلوب ، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين ، وتحق عليكم كلمة العذاب . وتدخلون تحت عموم قوله - تعالى - :

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ

سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » (١) . وقوله - تعالى - :

« خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ

غِشَاوَةً » (٢) . . . وغير ذلك من الآيات .

ثم مقتضى الأدلة المذكورة : كون التوبة واجبة على الفور ، فيجب على كل مسلم أن يتوب عن ذنوبه فوراً ، ولا يجوز له التأخير . قال لقمان لابنه : « يا بني ! لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة » . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين : - احدهما - أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ديناً وطبعاً فلا يقبل المحو . - والثاني - أن يعاجله

(٢) البقرة ، الآية : ٧ .

(١) يس ، الآية : ٩ .

المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد : أن أكثر صياح أهل النار من التسوييف ، فما هلك من هلك إلا بالتسوييف .

فصل

(عموم وجوب التوبة)

وجوب التوبة يعم الأشخاص والاحوال ، فلا ينبغي أن يتفك عنه احد في حالة ، قال الله - تعالى - :

« وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا » (١)

وهو يعم الكل في الكل . وما يدل على وجوبها على الكل : أن كل فرد من أفراد الناس اذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في ملكة بدنه ، بين الشهوات جنود الشياطين ، وبين العقول احزاب الملائكة ، إذ لا تكمل غريزة العقل في أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة ، واذا قام القتال بينهما لا بد بحكم العقل والشرع أن يغلب جنود الله على جنود الشيطان ، بقمعها بكسر الشهوات ، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات ، ولا معنى لوجوب التوبة إلا هذا . وما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو أن كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه ، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والهمم بالذنوب بالقلب ، فإن خلا عن ذلك أيضاً فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره ، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة .

ولعدم خلو احد من الخلق من نوع هذا النقص وأصله في حالة ، وان
تفاوتوا في المقادير ، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة ، ولو خلا
عن التوبة عن جميع الذنوب في لحظة واختطفه الموت ، لزم خروج روحه
بلا توبة ، لعدم انفسكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة ،
فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من أنفاسه ، قال بعض
العرفاء (١) : « لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى من
عمره في غير طاعة الله ، لكان حقيقاً أن يخزيه (٢) ذلك الى الممات ، فكيف
من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله ، ومن عرف قدر العمر
وفائدته ، وما يكتسب به من سعادة الأبد ، يعلم أن ما يضيع منه في المعصية
وغير التوبة أي حسرة وندامة يترتب عليه ، فان العاقل اذا ملك جوهرة
نفيسة ، فان ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة ، وإن ضاعت منه وصار
ضياعها سبب هلاكه كان بكاءه منه أشد ، وكل نفس من العمر جوهرة
نفيسة لا عوض لها ، لا يصلها العبد الى سعادة الأبد وانقاذها اياه من
شقاوة السرد ، وأي جوهرة انفس من هذا ، فمن ضيعها في الغفلة خسر
خسرانا مبيئاً ، ومن صرفها في معصية فقد هلك هلاكاً أبدياً . وقد قيل : إن
الله - تعالى - إلى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الإلهام : - احدهما - اذا
خرج من بطن امه يقول له : عبدي ! قد اخرجتك إلى الدنيا طاهراً لطيفاً ،
واستودعتك عمرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر
كيف تلقاني . - والثاني - عند خروج روحه يقول : عبدي ! ماذا صنعت في
امانتى عندك ، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالقائك على الوفاء ؟ أو اضعفتها

(١) هو ابو سليمان الدراني فيما نقل عنه في احياء العلوم : ٤ / ١٠ .

(٢) في نسخ جامع السعادات (يجزيه) .

فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ . واليه الإشارة بقوله - تعالى - :

« أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » (١) . وبقوله

- تعالى - : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » (٢) .

وقد روى : أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقي من عمره ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا بجذافيرها لأعطاها بدل أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليتدارك فيها تفريطه ، ولا يجد إليها سبيلاً . وقد روى - أيضاً - : أنه إذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت : أخرني يوماً اعتذر فيه إلى ربي واتوب ، واتزود صالحاً لنفسى ، فيقول : فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول : أخرني ساعة ، فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيعلق عليه باب التوبة ، فيغرغر بروحه ، وتتردد انفاسه في شراسيفه ، ويتمرغ غصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال ، فاذا زهقت نفسه ، فإن سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ، وذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة - والعياذ بالله - خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة .

تنزيه

التوبة عن بعض المعاصي المذكورة - أعني المحرمات وترك الواجبات - واجب بفتوى الشرع ، بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصي يكون معذبا بالنار، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق، وتكليف الجميع به لا يوجب فساداً في النظام السكلي . وأما التوبة عن بعض آخر منها ، كالخواطر

(١) البقرة ، الآية : ٤٠ . (٢) المؤمنون الآية ٨ . المارج ، الآية : ٣٢ .

والهمم الطارئة على القلب والقصور عن معرفة كنهه جلال الله وعظمته وامثال ذلك ، فليس واجباً بهذا المعنى ؛ لمنافاته انتظام العالم . إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاته ، لتركوا المعاش ورفضوا الدنيا بالكلية ، وذلك يؤدي إلى بطلان التقوى رأساً ؛ لأنه إن فسدت المعاش لم يتفرغ احد للتقوى . فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار ، بل هي واجبة بمعنى آخر ، وهو ما لا بد منه للوصول به الى غاية القرب الى الله ، والى المقام المحمود والدرجات العالية ، فمن رضى باصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه ، ومن طلب الوصول الى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوباً شرطياً ، بمعنى توقف مطلوبه عليه ، كما جرت عليه طوائف الانبياء والأولياء واكابر العرفاء والعلماء ، ولأجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية . وعلى هذا فما ورد من استغفار الانبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات ، لا عن ذنوب كذنوبنا ، لتعاليمهم وتقديسهم عن ذلك . قال الصادق - عليه السلام - : « إن رسول الله - صلى الله عليه وآله - كان يتوب الى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب . ان الله - تعالى - يخص أوليائه بالمصائب ، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا ، فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله ، . وبمضمونه أخبار آخر .

فصل

(لا بد من العمل بعد التوبة)

لا يمكن في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المستقبل ، بل لا بد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات ، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الانسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه ، كما ترتفع من

نفس الانسان ظلمة الى وجه المرأة الصقيلة ، فان تراكت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت ريتنا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثاً ، كما قال - تعالى - :

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (١)

فاذا تراكم الرين صار طبعاً ، فيطبع على قلبه ، كما أن الخبث في وجه المرأة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده ، وصار بحيث لا يقبل التصقيل بعده ، فالتائب من الذنوب لا بد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه ، ولا يكفي مجرد تركها في المستقبل ، كما لا يكفي في تصقيل المرأة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسوودة لوجهها في المستقبل ، ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الآثار ، وكما ترتفع الى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها ، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها ، ولهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي والشهوات ، واليه الاشارة بقوله - صلى الله عليه وآله - : « اتبع السيئة الحسنة تمحها » . فاذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ، بمعنى أن تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة ، لقوله - صلى الله عليه وآله - : « اتق الله حيث كنت ، ولأن المرض يعالج بعضده ، فكل ظلمة ارتفعت الى القلب ، فلا يمحوها إلا نور يرتفع اليه من حسنة تضادها ، إذ الضد إنما يرتفع بالضد ، فيكفر سماع الملاحى بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالعبادة فيه ، ويكفر مس المصحف محدثاً بكرامه وتقييمه وكثرة قراءته ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل

شراب حلال هو أحب إليه ... إلى غير ذلك وليس ذلك - أى ايقاع المناسبة -
شرطاً فى المحو ، فقد روى : « أن رجلاً قال لرسول الله - صلى الله عليه وآله - :
إني عالجت امرأة فاصبت منها كل شيء إلا المسيس ، فاقض على بحكم الله ،
فقال : أما صليت معنا ؟ قال : بلى ! فقال : إن الحسنات يذهبن السيئات . »

وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة ، بأن يتندم عليها
ويمحو آثارها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، قال الله - تعالى - :

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ

بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » (١) : أي عن قرب عهد

بفعل السوء . وقال : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

السُّيُوءَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي

تُوبْتُ الْآنَ » (٢) .

قال الصادق - عليه السلام - : « ذلك إذا عاين أمر الآخرة ، وقد

ورد مثله عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - أيضاً .

فصل

(فضيلة التوبة)

اعلم أن التوبة أول مقامات الدين ، ورأس مال السالكين ، ومفتاح

استقامة السائلين ، ومطلع التقرب الى رب العالمين ، ومدحها عظيم ، وفضلها

جسيم ، قال الله - تعالى - :

(٢) النساء ، الآية : ١٧ .

(١) النساء ، الآية : ١٦ .

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (١)

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » . وقال الباقر - عليه السلام - : « إن الله - تعالى - أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها » . وقال - عليه السلام - : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزى » . وقال الصادق - عليه السلام - : « إن الله يحب من عباده المفتن التواب » : يعني كثير الذنب كثير التوبة . وقال عليه السلام : « إذا تاب العبد توبة نصوحاً ، أحبه الله فستر عليه » ، فقلت : وكيف يستر عليه ؟ قال : « ينسى ملكيه ما كانا يكتبان عليه ، ويوحى إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمى عليه ذنوبه ، فيلقى الله - عز وجل - حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب » ، وقال الصادق - عليه السلام - : « إن الله - عز وجل - اعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها : قوله - عز وجل - :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ... » إلى آخره (٢) ، وقوله :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا - إلى قوله - وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (٣) .

(٣) المؤمن ، الآية : ٧ - ٩ .

(١) البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٢) البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

وقوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْمِنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخْلَدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ - الى قوله - وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (١) . . » .

وقال أبو الحسن - عليهما السلام - : « أحب العباد الى الله المنيبون التوابون » .

فصل

(قبول التوبة)

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة بالاجماع، ويدل عليه قوله - تعالى - :
 « مُهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » (٢) . وقوله
 - تعالى - : « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » (٣) . وقوله - تعالى - :
 « وَمَنْ يَمَلْ مُسْوًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
 اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (٤) .

وقول النبي - صلى الله عليه وآله - : « إن الله - تعالى - يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ، وطالب التوبة يقبله ألبتة .

(٣) المؤمن ، الآية : ٣ .

(١) الفرقان ، الآية : ٦٨ - ٧٠ .

(٤) النساء ، الآية : ١٠٩ .

(٢) الشورى ، الآية : ٢٥ .

وقوله - صلى الله عليه وآله - : « إن الحسنات يذهبن السيئات ، كما يذهب الماء
الوسخ » . وقوله - صلى الله عليه وآله - : « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء
ثم ندمتم ، لتاب الله عليكم » . وقوله - صلى الله عليه وآله - : « إن العبد ليذنب
الذنب فيدخل في الجنة » ، قيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يكون نصب
عينيه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة » . وقوله - صلى الله عليه وآله - :
« كفارة الذنب الندامة » . وقوله - صلى الله عليه وآله - : « من تاب قبل
موته بسنة قبل الله توبته . ثم قال : إن السنة لكثير ، من تاب قبل موته
بشهر قبل الله توبته . ثم قال : إن الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعة
قبل الله توبته . ثم قال : إن الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم قبل الله
توبته . ثم قال : إن يوماً لكثير ، من تاب قبل أن يهاين ملك الموت قبل الله
توبته » . وقال الباقر عليه السلام لمحمد بن مسلم : « ذنوب المؤمن إذا تاب منها
مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله إنها ليست إلا
لأهل الإيمان » ، فقال له : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب ، وعاد
في التوبة ؟ قال : « يا محمد بن مسلم ! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر
منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته ؟ » ، قال : فإنه فعل ذلك مراراً ، يذنب ثم
يتوب ويستغفر ، فقال : « كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه
بالمغفرة ، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، فإياك أن
تقنط المؤمن من رحمة الله » . وقوله - عليه السلام - : « إذا بلغت النفس
هذه - وأهوى بيده إلى حلقة - لم تكن للعالم توبة ، وكانت للجاهل توبة » .
وقوله - عليه السلام - : « إن آدم - صلى الله عليه - قال : يارب ! سلطت عليّ
الشیطان ، وأجريته مني مجرى الدم ، فاجعل لي شيئاً ، فقال : يا آدم ! جعلت
لك : إن من هم من ذريتك بسيئة لم تنكتب عليه ، فإن عملها كتبت عليه سيئة ،

ومن هم منهم بحسنة ، فإن لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن هو عملها كتبت له عشرأ ، قال : يارب ! زدني ، قال : جعلت لك : إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له ، قال : يارب ! زدني ، قال : جعلت لهم التوبة ، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه ، قال : يارب ! حسبي . وقول الصادق عليه السلام : « إن الرجل ليدنّب الذنّب فيدخله الله به الجنة ، قيل : يدخله الله بالذنّب الجنة ؟ قال : نعم ! إنه ليدنّب فلا يزال منه خائفاً ما قتأ لنفسه ، فيرحمه الله فيدخله الجنة » . وقوله - عليه السلام - : « العبد المؤمن إذا ذنّب ذنباً أّجله الله سبع ساعات ، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء ، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة ، وإن المؤمن ليدكر ذنّبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له ، وإن الكافر لينسى من ساعته » . وقوله عليه السلام : « مامن مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم : استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والاکرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب علي ، إلا غفرها الله له ، ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة ، (١) . وروى : « أن الله - تعالى - لما لعن ابليس سأله النظرة ، فأنظره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله - تعالى - : بهزتي لا حجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح » . وورد في الاسرائيليات : « أن شاباً عبد الله عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرأة ، فرأى الشيب في لحيته ، فسامه ذلك ، فقال : إلهي أطعتك عشرين

(١) صححنا الاحاديث الواردة في هذا الباب على اصول الكافي: باب الاعتراف بالذنوب ،

وباب من يهم بالحسنة أو السيئة ، وباب التوبة ، وباب الاستغفار من الذنوب ، وباب فيما اعطى الله - عز وجل - آدم وقت التوبة .

سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت إليك اتقبلني ؟ فسمع قائلاً يقول :
أجبتنا فاجبنناك ، فتركنا فتركناك ، وعصيتنا فامهلناك ، فإن رجعت
إلينا قبلناك . والأخبار والآثار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، وفي
بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه أيضاً .

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى إلى بيان ، إذ يعلم أن
التوبة توجب سلامة القلب ، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومنتعم في
الآخرة في جوار الله ، ويعلم أن القلب خلق في الأصل سليماً صافياً ، إذ كل
مولود يولد على الفطرة ، وإنما مرض وأسودت بأمراض الذنوب وظلماتها ،
ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض ، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات ،
ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات ، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور
النهار ، ولاكدورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار . نعم إذا تراكت
الذنوب بحيث صارت ريناً وطبعاً ، وفسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء
والنورانية بعد ذلك ، فمثل هذا القلب لا تفيد التوبة ، بمعنى أنه لا يرجع ولا
يتوب ، وإن قال باللسان تبت ، إذ أوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكت
فيه بحيث لا يقبل التطهير ، ولو بولغ فيه أدى إلى انخراق القلب وهلاكه ،
لصيرورة الأوساخ جزءاً من جوهره ، كما أن الثوب الذي غاص الوسخ في
تجاويفه وخلله وتراكم فيه ، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك إلى
انخراقه . وهذا حال أكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله ، فانهم
لا يرجعون ولا يتوبون ، لصيرورة ذمائم الأخلاق وذرائلها ملكات راسخة
في نفوسهم وغاصت أوساخها في تجاويف قلوبهم ، بحيث لا يتنبهون ولا
يتيقظون حتى يقصدوا التوبة ، ولو قصدوها فانما هو بمجرد اللسان ، والقلب
غافل خال عن الإيمان ، بل تتعذر عليه التوبة لبطان حقيقتها .

فصل

(طرق التوبة عن المعاصي)

إعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب، وهي - كما ذكرناها - لا تخلو عن الصفات والافعال الشيطانية المتعلقة بالوهم، والصفات والافعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية، والصفات والافعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية. ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم الى اقسام ثلاثة:

أحدها - ترك الطاعات الواجبة: من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس، والكفارة وغيرها. وطريق التوبة عنها: أن يجتهد في قضائها بقدر الامكان. وثانيها - المحرمات التي بين العبد وبين الله، أعني المنهيات التي هي حقوق الله: كشرب الخمر، وضرب المزامير، والسكذب، والزنا بغير ذات بعيل. وطريق التوبة عنها: أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبداً.

وثالثها - الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، والامر فيها أصعب وأشكل، وهي إما في المال، أو في النفس، أو في العرض، أو في الحرمه، أو في الدين:

فما كان في (المال): يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فإن عجز عن ذلك لعدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحله أو عجز عن الايصال لغيبه الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليصدق عنه إن أمكنه. وإلا فعليه بالتضرع والابتهاال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له، ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه، إذ كل من له حق على غيره لا بد أن يأخذ يوم القيامة عوضاً

عن حقه ، إما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته .
وما كان في (النفس) : فان كانت جناية جرت عليه خطأ وجب أن يعطى الدية، وإن كان عمداً وجب عليه أن يمكن المجنى عليه أو اوليائه مع هلاكه من القصاص حتى يقتصر منه ، أو يجعل في حل ، وإن عجز عن ذلك فعليه بكثرة اعتقاق الرقاب ، لأن ذلك نوع احياء وابدان لا يقدر الانسان على اكثر منه ، فيقابل به الاعدام والاماتة ، وعليه الرجوع أيضاً الى الله بالتضرع والابتهاال أن يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان في (العرض) : بأن شتمه ، أو قذفه ، أو بهته ، أو اغتابه ، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه ، ويستحل من صاحبه مع الامكان ، إن لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فتنته من اظهاره ، فإن خاف ذلك ، فليكثر الاستغفار له ، ويبتهل الى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان في (الحرمة) : بأن خان مسلماً في اهله وولده أو نحوهما ، فلا وجه للاستحلال ، إذ اظهار ذلك يورث الغيظ والفتنة ، لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحمل من خان في حرمة ووطى زوجته ، كيف ولو أحله ورضى بذلك كان فيه عرق من الديانة ، فاللازم لمثله أن يكثرت التضرع والابتهاال الى الله المتعال ، ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانته في مقابلة خيانتته ، وإن كان حياً فليفرجه بالاحسان والانعام وبذل الأموال ، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج ، ويسعى في مهماته واغراضه ، ويتلطف به ، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه ، فربما سمحت نفسه في القيامة بالاحلال ، فان أبى أن يكون انعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانتته ، فان كل ظلم وايداء وحق من حقوق العباد اذا لم يحمل صاحبه يوم

القيامة يقتصر من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهري بأخذ العوض ،
سواء رضى الظالم أم لا ، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم
لا ، كما أنه يحكم في الدنيا على من اتلف مال غيره باعطاء المثل ، ويقهر على
ذلك ، ويحكم على هذا الغير بقبوله ، ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء وعن
القبول ، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة القيامة ،
فيقتصر من كل ظالم مود بأخذ حسناته ووضعها في موازين أرباب المظالم ،
فإن لم تف بها حسناته ، حمل من سيئات أرباب المظالم ، فهلك المسكين
بسيئات غيره . وبذلك يعلم : أنه لا خلاص لأحد في القيامة إلا برجحان ميزان
الحسنات على ميزان السيئات ، ومع الرجحان - ولو بقدر مثقال - تحصل
النجاة ، فيجب على كل معتقد بيوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات
وتقليل السيئات ، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال
فيكون من الهالكين ، وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهاال في
الليل والنهار إلى الله - سبحانه - ، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى
السرائر ، ويرضى خصمه بخفي أظفائه .

وما كان في (الدين) : بأن نسب مسلماً إلى الكفر أو الضلالة
أو البدعة ، فليكذب نفسه بين يدي من قال ذلك عنده ، ويستحل من صاحبه
مع الامكان ، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهاال إلى الله ليرضيه عنه
يوم القيامة .

وبجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس : ارضاء الخصوم مع
الامكان ، وبدونه التصديق وتكثير الحسنات والاستغفار ، والرجوع إلى
الله بالتضرع والابتهاال ، وليرضيهم عنه يوم القيامة ، ويكون ذلك بمشية
الله ، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده ، ووجد ذله وانكساره ، ترحم عليه

وأرضى خصمه من خزائنه فضله ، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله .

فصل

(تكفير الصغائر ومعنى الكبائر)

اعلم أن صاحب الشرع قسم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة ، وحكم بأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر ، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر الصغائر ، قال الله - تعالى - :

« إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (١) . وقال : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأَلْثَمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ » (٢) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر ، واجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواعقتها ، فيكف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس ، فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه ، فهذا معنى تكفيره ، فإن كان امتناعه اعجز أو خوف أو نحو ذلك ، فلا يصلح للتكفير ، فكذلك من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه . فاجتنابه لا يكفر عن الصغائر التي هي من مقدّماته كسماع الملاحى والأوتار ومثله .

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع والعرف ، لأن الكبير والصغير من المصافات ، وما من ذنب إلا

(١) النساء ، الآية : ٣٠ .

(٢) النجم ، الآية : ٣٢ .

وهو كبير بالإضافة الى مادونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه. وقد اختلف العلماء في تعيين الكبائر اختلافاً لا يكاد يرجى زواله. واختلفت الروايات فيها أيضاً، والأظهر بالنظر الى الروايات والى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعد بالنار على فعله أو ما ورد في نص الكتاب النهي عنه، ويعنى بوصفه بالكبيرة: أن العقوبة بالنار عظيمة، أو أن تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه. ويمكن أن يقال: إن الشرع لم يعينها، وأبهما ليسكون العباد على وجل منها، فيجتنبون جميع الذنوب، كما أبهم ليلة القدر ليحفظ جنة الناس في طلبها، ويواظبوا في ليال متعددة على العبادات، وكما أبهم الاسم الأعظم ليواظبوا على جميع أسماء الله. والحاصل: أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا جاز أن يتطرق إليه الإبهام. والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة، فإن موجبات الحدود معلومة بأسامها، وإنما حكم الكبيرة أن اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليق به، حتى يكون الناس على وجل وحذر، فلا يتجرؤون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر.

فصل

(الصغائر قد تكون كبائر)

اعلم أن الصغيرة قد تكبر بأسباب:

أحدها - الأصرار والمواظبة، ولذلك قال الصادق - عليه السلام -:
 لا صغيرة مع الأصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. والسرفية: أن الصغيرة لقلّة تأثيرها لا تؤثر في القلب باطلامه مرة أو مرتين، ولكن إذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدرّج في

القلب ، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ،
 وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله - صلى
 الله عليه وآله - : « خير الأعمال أدومها ، وإن قل » . وإذا كان النافع هو
 الطاعة الدائمة وإن قلت ، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وإن قلت . ثم
 معرفة الاصرار موكول الى العرف ، قال الباقر عليه السلام في قوله - تعالى - :
 « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (١) :
 « الإصرار : أن يذنب الذنب ، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة ،
 فذلك الاصرار » .

وثانيها - استصغار الذنب ، فإن العبد كلما استعظمه من نفسه صغر
 عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ؛ لأن استعظامه يصدر عن نفور
 القلب عنه وكراهته له ، وذلك النفور يمتنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره
 يصدر عن الألف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو
 المطلوب تنويره بالطاعات والمخذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤخذ
 بما يجرى عليه في الغفلة ، لعدم تأثيره به . ولذلك ورد في الخبر : « أن المؤمن
 يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمتأفق يرى ذنبه كذباب مر
 على أنفه فأطاره » . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « اتقوا
 المحقرات من الذنوب ، فإنها لا تغفر » ، قيل : وما المحقرات ؟ قال : « الرجل
 يذنب الذنب ، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك » . وروى : « أنه - صلى
 الله عليه وآله - نزل بأرض قرعاء ، فقال لأصحابه : اتتونا بالحطب ، فقالوا :
 يا رسول الله ! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب ، قال : فليأت كل انسان
 بما قدر عليه . فجأوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض ، فقال - صلى الله

(١) آل عمران ، الآية : ١٣٥ .

عليه وآله - : هكذا تجتمع الذنوب ، إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالباً ، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبین ، . وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - « لا تصغر ما ينفع يوم القيامة ، ولا تصغر ما يضر يوم القيامة ، فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين ، . وقال الباقر - عليه السلام - : « اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالباً ، يقول أحدكم : أذنب واستغفر الله . إن الله - تعالى - يقول :

« وَنَكَتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ

في امام مبین » (١) . وقال - عز وجل - : « إِنَّمَا لِنَّا أَنْ تَكُ مِنْ مَثْقَلِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (٢) .

وقال الصادق - عليه السلام - : « إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير » . وقال السكاظم - عليه السلام - : « لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب ، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً ، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف ، (٣) . والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن : كونه عالماً بجلال الله وكبريائه ، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغير كبيراً ، وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه : « لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها » .

(١) آيس ، الآية : ١٢ .

(٢) لقمان ، الآية : ١٦ .

(٣) صححنا الأحاديث كلها على أصول السكاظمي (باب التوبة ، وباب تفسير الذنوب) .

ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين: «إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، وكنا نعدّها على عهد رسول الله من الموبقات»، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله كباراً. وثالثها - أن يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها، اغتراراً بستر الله عليه، وحلمه عنه، وإمهاله إياه، ولا يعلم أنه إنما يميل مقتاً ليزداد بالامهال أثماً، فتهرق أنفسهم وهم كافرون، فمن ظن أن تمسكته من المعاصي عناية من الله به، فهو جاهل بمكان الغرور، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن منه إلا الكافرون.

ورابعها - السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة، فكما غلبت حلوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في تسويد قلبه، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله، أو غبنه في ماله في المعاملة، ثم فرح به، ويقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ وكيف فضحته؟ وكيف روجت عليه الزيف؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه، إذ الذنوب مهلكات، وإذا ابتلى بها العبد فينبغي أن يتأسف من حيث إن العدو - اعني الشيطان - ظفر به وغلب عليه، لا أن يفرح بغلبة العدو عليه، فالمرضى الذي يفرح بانكسار اناته الذي فيه دواؤه لتخلصه من ألم شره، لا يرجي شفاؤه.

وخامسها - أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد اتيانه، أو يأتي به في مشهد غيره، فإن ذلك خيانة منه على الله الذي أسدله عليه، وتحريك الرغبة والشرف فيمن أسمه ذنبه أو أشهده فعله، فهما خيانتان انضمتا إلى خيانتته فتغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيانتته رابعة، وتفاحش الأمر. وهذا لأن من

صفات الله أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالأظهار كفران لهذه النعمة ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة ، والمذيع بالسيئة مخذول ، والمستتر بها مغفور له » . وقال الصادق - عليه السلام - : « من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ، ومن جاءنا يبدى عورة قد سترها الله فنحوه » .

وسادسها — أن يكون الآتي بالصغيرة عالماً يقتدى به الناس . فإذا فعله بحضرة الناس أو بحيث اطلعوا عليه ، كبر ذنبه ، وذلك كلبسه الذهب والابريسم ، وأخذه مال الشبهة ، وإطلاقه اللسان في أعراض الناس ، ونحو ذلك . فهذه ذنوب يقتدى العالم فيها ويتبع عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم ، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، وفي الخبر : « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء » : قال الله - تعالى -

« وَنَكُتِبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارِهِمْ » (١)

والآثار : ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل . فعلى العالم وظيفتان : - احدهما - ترك الذنب ، والآخرى - اخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيئات إذا اتبع فيها ، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبع .

فصل

(شروط كمال التوبة)

يشترط في تمام التوبة وكالها بعد تدارك كل معصية بما مر : من طول الندم ، وقضاء العبادات ، والخروج عن مظالم العباد ، وطول البكاء والحزن والحسرة ، واسكاب الدموع ، وتقليل الأكل ، وارتياض النفس ، ليزوب

(١) آيس ، الآية : ١٢ .

عن بدنه كل لحم نبت من الأغذية المحرمة والمشتبهة ، قال أمير المؤمنين عليه السلام لمن قال بحضرته : استغفر الله : « ثكلتك أمك ! أتدرى ما الاستغفار ؟ إن الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها : الندم على ما مضى ، والثاني : العزم على ترك العود عليه ابداً ، والثالث : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعه ، والرابع : أن تعتمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها ، والخامس : أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منها لحم جديد ، والسادس : أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله . »

فصل

(هل يصح التبعيض في التوبة)

اعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح ، بشرط ألا تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها ، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله ، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس ، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبيساً أو غصباً أو قهراً ، أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر ، كالذي يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب الخمر . والدليل على إمكان ذلك وصحته : أن العبد إذا علم أن الكبائر أعظم أثماً عند الله وأجلب لسخط الله ومقتته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها ، فلا يبعد أن يتوب عن الأعظم دون الأصغر ، وكذا إذا تصور أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله من بعض ، فلا يبعد أن يتوب عن الأغلظ دون الأخف ، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية

شديدة ، فلا يقدر على الصبر عنها ، وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل ،
 فيمكنه الترك بسهولة ، فيتوب عنه دون الأول ، وان كان الأول أغلظ
 وأشد أثماً ، كالذى شهوته بالخير أشد من شهوته بالغيبة . فيترك الغيبة ويتوب
 عنها دون الخير ، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض اختلافها نوعاً
 بأى نحو كان ممكن وصحيح ، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه ، ويكتب عليه
 اثم ما لم يتب عنه ، بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل ، إذ أكثر
 التائبون فى الأعصار الحالية والقرون الماضية ، ولم يكن أحد منهم معصوماً ،
 فيكون كل منهم جازماً بأنه يصدر عنه معصيته البتة . ويدل على الصحة قوله
 - عليه السلام - : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، حيث لم يقل : التائب
 من الذنوب . نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلها غير صحيح
 وغير معقول ، لاستوائهما فى حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله ، فلا معنى
 للتوبة عن أخذ الخبز الحرام ، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام ،
 أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر ، إذ لو كان ذلك صحيحاً لصح أن يتوب
 عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز ، أو عن أخذ هذا الدرهم دون ذلك
 الدرهم . . . وهكذا . والحاصل : أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض
 مع تفاوتها فى العقاب واقتضاء الشهوة صحيح ، ومع تماثلها فيهما غير معقول .
 ومن العلماء من قال : إن التوبة عن البعض دون البعض لا تصح مطلقاً ،
 واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم ، وإنما يندم على السرقة - مثلاً -
 لكونها معصية لا لكونها سرقة ، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا إن
 كان توجهه لأجل المعصية ، إذ العلة شاملة لهما ؛ لأن من يتوجه على قتل ولده
 بالسيف يتوجه على قتله بالسكين ، لأن التوجه إنما هو بفوات المحبوب ،
 سواء كان بالسيف أو بالسكين ، وكذلك توجه التائب إنما هو لفوات المحبوب

بالمعصية ، سواء عصى بالسرقه أو بالزنا ، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه .

فصل

(أقسام التائبين)

التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حومها ، وبين من بقى في نفسه الشروع اليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها :
والأول بين من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة ، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط : والأول من الأول أفضل من الثاني ، والثاني منه أدون من الثاني ، والوجه ظاهر . وأيضاً التائبون بين من نسى الذنب من دون اشتغال بالتفكير فيه ، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه . ولا ريب في أن التذكر والاحترق بالنظر إلى المبتدى ومن يخاف عليه العود أفضل ، لأنه يصدّه عنه ، والنسيان بالنظر إلى المنتهى السالك والواصل إلى مرتبة الحب والانس الواثق من نفسه أنه لا يعود أفضل ، لأنه شغل مانع عن سلوك الطريق ، وحاجب من الحضور بلا فائدة . ولا ينافيه بكاء الأنبياء وتناجيهم من الذنوب ، لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتقة بالأمة ، فإنهم بعثوا لأرشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع الأمة بمشاهدته ، وإن كان نازلاً عن ذروة مقامهم . ولذا قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « أما إني لا أنسى ، ولكن أنسى لأشعر » ، (١) . ولا تعجب من هذا ، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة ، والاب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير ينزل إلى درجة نطق الصبي ، والراعي

(١) الحديث نبوي مرهوي في احياء العلوم : ٤ / ٣٨ .

لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صغيراً شبيهاً بالبهيمة والطيائر، تلتظفاً في تعليمه .

فصل

(مراتب التوبة)

اعلم أن التائب إما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط، ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه التوبة هي التوبة النصوح، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، أو يتوب عن كبرائر المعاصي والفواحش ويستقيم على أمهات الطاعات، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجاري أحواله غفلة وسهولة وهفوة، لا عن محض العمد وتجريد القصد، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف، وجدد عزمه على ألا يعود إلى مثله، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي إليه، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها، ولها حسن الوعد من الله - تعالى - بقوله :

« الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا
الْمَمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » (١).

والى مثلها الإشارة بقوله - صلى الله عليه وآله - : « خياركم كل مفتح تواب » . وفي خبر آخر : « المؤمن كالسنبلية ، ينيء أحياناً ويميل أحياناً » .
وفي خبر آخر : « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » (٢) : أي

(١) النجم ، الآية : ٣٢ .

(٢) صححنا النبويات الثلاث على أحياء العلوم : ٤ / ٣٩ .

الحين بعد الحين . وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصيرين ، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله إلى درجة التائبين فهو ناقص ، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين ، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات نادرة . ولا ريب في نقصانه ، فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومفارقة السيئات المختطفات ، إذ أمثال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الإصلاح ، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب ، فيقدم عليه عمداً وقصداً ، لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة . وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم ، ويقول سأتوب عنها ، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم ، والنفس التي هذه درجتها هي التي تسمى النفس المسولة المسؤل صاحبها ، وإليها الإشارة بقوله - تعالى - :

« وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَاَطُوا عَمَلًا

صَالِحًا وَأَخْرَسَيْنَاهُمْ » (١) .

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو ، فحسى الله أن يتوب عليها ، ولكن يخاف عليها من حيث تسويفها وتأخيرها ،

فربما اختطفها الموت قبل التوبة ، ويقع أمرها في المشيئة ، فيدخل في زمرة السعداء، أو يسلك في سلك الأشقياء ، أو يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود الى الذنوب عمداً وقصداً ، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف ويتندم، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب واتباع الشهوات . وهذا معدود من المصيرين ، ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ، ومثله إن مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة ، وإن ختم له بالسوء كان من أهل النار ، وإن مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره الى الله ، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته ، ثم يخلص منها بعميم لطفه .

فصل

(عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة)

اعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي أن يمنعه ذلك عن التوبة ، علماً منه أنه لا فائدة فيه ، فإن ذلك من غرور الشيطان ، ومن أين له هذا العلم ، فلعله يموت تائباً قبل أن يعود الى الذنب .
وأما الخوف من العود ، فليستدركه بتجريد القصد وصدق العزم ، فإن وفي به فقد نال مطلبه ، وإلا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها ، وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن . وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة ، فلا يمنحك خوف العود من التوبة ، فإنك من التوبة أبدأ بين احدي الحسنين : - احدهما - العظمى : وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود إلى ذنبه في الاستقبال . - وثانيتها - وهي الصغرى : غفران الذنوب الماضية ، وإن لم يمنع العود الى الذنب في المستقبل . ثم إذا عاد الى

الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة ، ويتبعه بحسنة لتحوها ، فيكون من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . والحسنات المكفرة للذنوب إما متعلقة بالقلب : وهي الندم ، والتضرع الى الله ، والتذلل له ، واضمار الخير للمسلمين ، والعزم على الطاعات ، أو باللسان : وهي الاعتراف بالظلم والاساءة ، وكثرة الاستغفار ، أو بالجوارح : وهي أنواع الطاعات والصدقات . وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتحوها . وفي الخبر : ان الذنب اذا اتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجواً : أربعة من اعمال القلوب ، وهي : التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الاقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة . وأربعة من اعمال الجوارح ، وهي : أن تصلي عقب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله - تعالى - بهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تصدق بصدقة ، ثم تصوم يوماً . وفي بعض الأخبار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين ، وفي بعضها : تصلي أربع ركعات . ولا تظن أن الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الاصرار لا فائدة فيه أصلاً ، بل هو توبة الكذابين ، لما ورد من : أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى . آيات الله ، لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلاً هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة ، أي ما يكون مجرد حركة اللسان من دون مدخلة للقلب ، كما اذا سمع شيئاً مخوفاً ، فيقول على الغفلة : استغفر الله ، أو نعوذ بالله ، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه ، وأما اذا انضاف اليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلص رغبة وميل قلبي إلى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها ، وإن علم أن نفسه الامارة ستعود إلى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة ،

فلاستغفار بالقلب وإن خلا عن حل عقدة الاصرار لا يخلو عن الفائدة ،
وليس وجوده كعدمه . وقد عرف ارباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية
يقينية لا يعتريها ريب وشبهة صدق قوله - تعالى - :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (١)

ولذا جزموا وقطعوا بأنه لا تخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو
شعيرة تطرح في الميزان عن اثر ، ولو كانت كل شعيرة خالية عن اثر لكان
لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات ، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات
إلى أن يشغل قنصل كفة السيئات ، فإياك وأن تستصغر ذرات الطاعات
فلا تأتينا ، وتستحققر ذرات المعاصي فلا تتقيها ، كالمراة الخرفاء تكسل عن
الغزل تمللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد ، وأى غنى يحصل
منه ، وما وقع ذلك في الثياب ، ولا تدرى أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً
خيطاً ، وأن اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة ، وربما ترتب
على عمل قليل ثواب جليل ، فلا ينبغي تحقير شيء من الطاعات . قال الصادق
- عليه السلام - : « إن الله - تعالى - خبياً ثلاثاً في ثلاث : رضاه في طاعته ،
فلا تحقروا منها شيئاً فلعن رضاه فيه . وغضبه في معاصيه ، فلا تحقروا شيئاً
فلعن غضبه فيه . وخبياً ولايته في عبادته ، فلا تحقروا منهم احداً فلعنه ولي
الله ، . فإذا الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع اصلاً ، بل ربما قيل :
الاستغفار بمجرد اللسان أيضاً حسنة ، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من
السكوت عنه ، فيظهر فضله بالنظر إلى السكوت عنه ، وإن كان نقصاً بالإضافة

الى عمل القلب ، فينبغي ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار ، ويجتهد في اضافة حركة القلب اليها، ويتضرع الى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فصل

(علاج الاصرار على الذنوب)

اعلم أن الطريق الى تحصيل التوبة ، والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب : أن يتذكر ما ورد في فصلها - كما مر - ويتذكر قبح الذنوب وشدة العقوبة عليها ، وما ورد في الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين، ويتأمل في حكايات الانبياء وأكابر العباد ، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية ، بسبب تركهم الأولى وارتكابهم بعض صفات المعاصي ، وأن يعلم أن كل ما يهيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته - كما دل عليه الاخبار الكثيرة - ويتذكر ما ورد من العقوبات على احاد الذنوب : كالخمر ، والزنا ، والسرقه ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والكذب ، والغيبة ، وأخذ المال الحرام . . . وغير ذلك من احاد المعاصي مما لا يمكن حصره ، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا ، ويتذكر حساسة الدنيا وشرف الآخرة ، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب ، ولا يغتر بعدم الأخذ الحالى ، إذ لعله كان من الاملاء والاستدراج . فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة ، إذ لو لم ينزعج إلى التوبة بعد ذلك ، فهو إما معتوه احمق أو غير معتقد بالمعاد ، وينبغي أن يجتهد في قلع اسباب الاصرار من قلبه : اعنى الغرور ، وحب الدنيا ، وحب الجاه ، وطول الأمل . . . وغير ذلك .

فصل

(الانابة)

اعلم أن الانابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله ، والاقبال على الله - تعالى - بالسر والقول والفعل ، حتى يكون دائماً في فكره وذكره وطاعته ، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها ، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب الى الله ، والانابة هو الرجوع عن المباحات أيضاً اليه - سبحانه - ، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية . قال الله - سبحانه - :

« وَأَنْيُبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْأَلُوا لَهُ ۗ » (١) . وقال

- سبحانه - : « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » (٢) . وقال :

« وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذَا مَا

تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ

بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، أُدْخِلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمٌ

الْخُلُودِ ، لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » (٣) .

وانابة العبد تتم بثلاثة امور :

الأول - أن يتوجه اليه بشرائحه باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره .

الثاني - ألا يكون خالياً عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر

أهل حبه وتقربه .

الثالث - أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية .

(٣) آق، الآية : ٣١ - ٣٥ .

(١) الزمر ، الآية : ٥٤ .

(٢) المؤمن ، الآية : ١٣ .

المحاسبة والمراقبة

(تذييب) — اعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في صديقتها من وجه الاصرار على الذنوب ، ومثلها في كونها من ثمرات الخوف والحب وتعلقها بقوتى الشهوة والغضب وكونها من فضائلها ، فنحن نشير هنا الى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتيهما وفضيلتهما والأعمال التي يتوقف تماميتهما عليهما في فصول .

فصل

(المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة)

(المحاسبة) : أن يعين في كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه ، ليعاتب نفسه ، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة ، أو مرتكبة لمعصية ، ويشكر الله - سبحانه - لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية ، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة .

(والمراقبة) : أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائماً ، حتى لا يقدم على شيء من المعاصي ، ولا يترك شيئاً من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة . هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة ، ويأتي اعتبار امور واعمال آخر فيه عرفاً .

فصل

(حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا)

اعلم أن الكتاب والسنة واجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة ، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب ، والمطالبة بما قيل الذر من

الأعمال والخطرات واللحظات ، قال الله - سبحانه - :

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا
بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » (١) . وقال : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (٢) . وقال : « وَوَضِعَ الْكِتَابُ
فَتَرَى الْجُرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا
لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » (٣) .
وقال : « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ،
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٤) . وقال : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ
نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ
لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا » (٥) . وقال : « ثُمَّ تُوَفَّى

(١) الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٢) المجادلة ، الآية : ٦ .

(٣) الكهف ، الآية : ٥٠ .

(٤) الزلزال ، الآية : ٦ - ٨ .

(٥) آل عمران ، الآية : ٣٠ .

كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ « (١) . وقال :
 « فَوَ رَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٢) .
 وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « ما منكم من أحد إلا ويسأله
 رب العالمين ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان ، . وورد بطرق متعددة :
 أن كل أحد في يوم القيامة لا يرفع قدماً عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما
 أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه .
 والآيات والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير
 والنقيير والقطمير أكثر من أن تحصى ، وبأزائها أخبار دالة على الأمر
 بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا ، والترغيب عليها ، وعلى كونها سبباً للنجاة
 والخلاص عن حساب الآخرة ، وخطره ومناقشته . فمن حاسب نفسه قبل
 أن يحاسب ، وطالبها في الأنفاس والحركات ، وحاسبها في الخطرات
 واللحظات ، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله : خف في القيامة حسابه ،
 وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه :
 دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته الى الخزي
 سيداته ، قال الله - سبحانه - :

« وَلَتَنْظُرَنَّ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » (٣)

والمراد بهذا النظر : المحاسبة على الأعمال . وقال رسول الله - صلى الله
 عليه وآله - : « حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، .
 وقال الصادق عليه السلام : « إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئاً إلا اعطاه فليأس

(١) البقرة ، الآية : ٢٨١ . آل عمران ، الآية : ١٦١ .

(٢) الحجر ، الآية : ٩٢ . (٣) الحشر ، الآية : ١٨ .

من الناس كهم ، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله - تعالى - ، فاذا علم الله - تعالى - ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه ، فحاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا عليها ، فإن للقيامة خمسين موقفاً ، كل موقف مقام ألف سنة . ثم تلا :

« فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » (١) .

وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس عن الناس والرجاء من الله ، يدل على أن الانسان إنما يرجو الناس من دون الله في عامة أمره وهو غافل عن ذلك ، وأن عامة المحاسبات إنما ترجع إلى ذلك ، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما تكون للمحاسبات ، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوماً فيوماً لم يحتاج إلى تلك الوقفات في ذلك اليوم ، وقال عليه السلام : « لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله - تعالى - ، وفضيحة هتك الستر على المخفيات ، لحق للره الأيهبط من رؤس الجبال ، ولا يأوى إلى عمران ، ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، إلا عن اضطرار متصل بالتلف ، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشداؤها قائمة في كل نفس ، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار ، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة ، كأنه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤل . قال الله - تعالى - :

« وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا

وَكَفَىٰ بِنَاحِسِينَ » (٢) . « (٣) .

وقال الكاظم - عليه السلام - : « ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل

(١) المعارج ، الآية : ٤ .

(٢) الأنبياء الآية : ٤٧ .

(٣) صحیحنا الحديث على مصباح الصريمة : باب ٨٥ ، ص ١٨٦ .

يوم ، فإن عمل حسنة استزاد الله - تعالى - ، وإن عمل سيئة استغفر الله منها
وتاب إليه . . . وفي بعض الأخبار : ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات :
ساعة يحاسب فيها نفسه . . .

فصل

(مقامات مرابطة العقل للنفس)

اعلم أن العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة ، ورأس ماله العمر ، وقد
استعان في تجارته هذه بالنفس ، فهي بمنزلة شريكه أو غلامه الذي يتجر في
ماله ، ورجح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصلة
إلى نعيم الأبد وسعادة السرمد ، وخسرانها المعاصي والسيئات المؤدية إلى
العذاب المقيم في دركات الجحيم ، أو نقول: رأس مال العبد في دينه الفرائض ،
وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي ، وموسم هذه التجارة مدة
العمر ، وكما أن التاجر يشارط شريكه أولاً ، ويراقبه ثانياً ، ويحاسبه
ثالثاً ، وإن قصر في التجارة - بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال - يعاقبه
ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة ، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس إلى أن يرتكب
هذه الأعمال ، ومجموع هذه الأعمال يسمى بـ (المحاسبة والمرابطة) تسمية
الكل باسم بعض أجزائه ، وقد يسمى (مرابطة) أيضاً .

فأول الأعمال في المرابطة (المشاركة) : وهي أن يشارط النفس
ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصي ، ولا
يصدر منها شيء . يوجب سخط الله ، ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة ،
ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل . والأولى أن يكون ذلك بعد
الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها ، فيخاطب النفس ويقول لها : يا نفس ا
هالي بضاعة سوى العمر ، ومهما فتى فنى رأس المال . ووقع اليأس عن التجارة

وطلب الرجح ، وهذا اليوم الجديد ، وقد أمهلتني الله فيه بعظيم لطفه ، ولو توفاني
لكنت أتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً ، فاحسب أنك
توفيت ثم رددت ، فأياك أن تضيعي هذا اليوم ، فإن كل نفس من أنفاس
العمر جوهره نفيسة لا عوض لها ، يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز
لا يتناهى نعيمها أبد الآباد . ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار : من أن كل
عبد خلقت له بأزاء كل يوم وليلة من عمره اربع وعشرون خزانة مصفوفة ،
فإذا مات تفتح له هذه الخزائن ، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها ، فإذا فتحت
له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي أطاع الله فيها ، يراها مملوءة نوراً من حسناته
التي عملها في تلك الساعة ، فينالها من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار
التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح
عن الاحساس بألم النار ، وإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي
عصى الله فيها ، يراها سوداء مظلمة يفوح منها ويتغشا ظلامها ، فينالها من
الهلول والفرح ما لو قسم على أهل الجنة لينقص عليهم نعيمها ، فإذا فتحت له
خزانة بأزاء الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا ،
لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه ، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات
عمره الخزائن ، وعند ذلك يتحسر العبد على اهماله وتقصيره ، ويناله من الغبن
ما لا يمكن وصفه ، وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول : اجتهدى اليوم
في أن تعمري خزائنك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب
ملكك ، ولا تركني الى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العالين ما
يدركه غيرك ، فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة ، إذ
ألم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير
المتناهية التي نال إليها أبناء نوعك مما لا يطاق ، ثم يستأنف لها وصية في

اعضائه السبعة : أعنى العين ، والأذن ، واللسان ، والفرج ، والبطن ، واليد ، والرجل ، ويسلمها اليها ؛ لأنها رعايا خادمة لها في التجارة ، ولا يتم أعمال هذه التجارة إلا بها ، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها ، وبأعمال كل منها فيما خلق لأجله ، ثم يوصيها بالاستشغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم واللييلة ، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها ، وهذه شروط يفتقر اليها كل يوم ، لكن إذا اعتادت النفس بتكرار المشاركة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحققها استغنى عن المشاركة فيها ، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة الى المشاركة فيه ، وبقيت الحاجة اليها في الباقي ، وكل من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا : من ولاية ، أو تجارة ، أو تدريس ، أو أمثال ذلك : لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد ، والله عليه فيها حق ، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها ، وينبغي أن يوصيها بالتدبر في عاقبة كل امر يرتكبه في هذا اليوم واللييلة . وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها ، وقد روى : « أن رجلاً أتى النبي - صلى الله عليه وآله - وقال : يا رسول الله ! أوصني ، فقال له : فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك ؟ - حتى قال له ذلك ثلاثاً ، وفي كلها يقول الرجل : نعم يا رسول الله ! - فقال له رسول الله ﷺ : إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فإن يك راشداً فامضه ، وإن يك غياً فانته . » ويظهر من هذا الخبر : أن التأمل في عاقبة كل أمر أعظم ما يحصل به النجاة ، فينبغي أن يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرهما عن الإهمال ، ويعظهما كما يعظ العبد المتمرد الأبق ، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجري مجراه هو المشاركة، وهو

أول مقامات المراقبة .

وثانيها (المراقبة) : وهو أن يراقب نفسه عند الخوض في الاعمال ، فيلاحظها بالعين السائلة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت ، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون ، بأن يعلم أن الله - تعالى - مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على اعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سرّ القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشرية للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك ، قال الله - سبحانه - :

« لَنْ أَلَّهَ كَانَ عَلَیْكُمْ رَقِيبًا » (١) . وقال : « أَلَمْ يَعْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى » (٢) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وفي الحديث القدسي : « إنما يسكن جنات عدن ، الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انحنت اصلا بهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي ! إني لأهم بعذاب أهل الأرض ، فإذا نظرت الى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب » . وحكى : « أن زليخا لما خلت بيوسف ، فقامت وغطت وجه صنمها ، فقال يوسف : ما لك ؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار ؟ ! » . وهذه المعرفة - اعنى معرفة اطلاع الله على العباد واعمالهم وسرائرهم وكونه رقيباً عليهم - اذا صارت يقيناً - أى خلت عن الشك - ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمة اليه ، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين : - احدهما -

(١) النساء ، الآية : ١٠ .

(٢) العلق ، الآية : ١٤ .

مراقبة المقربين ، وهي مراقبة التعظيم والاجلال ، وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال ، ومنكسراً تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير ، وهذا هو الذي صار همه هما واحداً ، وكفاه الله سائر الهموم ، - واخراهما - مراقبة الورعين من اصحاب اليمين ، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم ، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال ، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها ، وغلب عليهم الحياء من الله ، فلا يقدمون ولا يمحون إلا بعد التثبت ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ، فإنهم يرون الله مطلعاً عليهم ، فلا يحتاجون الى انتظار القيامة . ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضيق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها .

وحالاته لا تخلو عن ثلاثة : لأنه إما أن تكون في طاعة ، أو معصية ، أو مباح . فراقبته في الطاعة : بالقربة ، والاحلاص ، والحضور ، والاكال ، وحراستها عن الآفات ، ومراعاة الأدب . ومراقبته في المعصية : بالتوبة ، والندم ، والاقلاع ، والحياء ، والاشتغال بالتكفير . ومراقبته في المباح : بمراعاة الأدب ، بأن يأكل بعد التسمية ، وغسل اليدين ، وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل ، ويقعد مستقبل القبلة ، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة ، وبالصبر عند ابتلائه ببليّة ومصيبة ، وبالشكر عند كل نعمة ، ويتذكر شهود المنعم وحضوره . ويكفّ النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده الى الغضب والتضجر والتسكلم بما لا يحسن من الأقوال ، فإن لكل واحد من أفعاله وأقواله حدوداً لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وينبغي ألا

يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل ، كالذكر والفكر وتخليص
 النية ، فإن الطعام الذي يتناوله من عجائب صنع الله ، فلو تفكر فيه وتدبر
 في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير
 من اعمال الجوارح ، والناس عند الأكل على أقسام : (قسم) ينظرون فيه
 بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام
 الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق
 الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك ، وهؤلاء هم أولو الألباب . (وقسم)
 ينظرون فيه بعين المقت والكرهية ، ويلاحظون وجه الاضرار اليها ،
 ويتمنون الاستغناء عنه ، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته ، وهؤلاء هم
 الزهاد . (وقسم) يرون فيه خالقه ، ويشاهدون في الصنع الصانع ، ويترقون
 منه الى صفات الخالق ، من حيث إن كل معلول اثر من العلة ، ورشحة من
 رشحات ذاته وصفاته ، فشاهدته تذكر العلة ، بل التأمل يرشدك الى أن دلالة
 كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وإيجابها لحضوره عندك
 وظهوره لديك وتوجهه اليك وقربه منك أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك
 بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك ، وسر
 ذلك ظاهر واضح . وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع ، والخالق في
 كل مخلوق ، هم العرفاء المحبون ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره
 وما ينتسب اليه اشتغل قلبه بالمحبوب ، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر اليه من
 الموجودات هو صنع الله - تعالى - ، فله في النظر منها الى الصانع مجال إن
 فتحت له أبواب الملكوت . (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة ،
 وليس نظرهم الى الطعام إلا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذاتقتهم ،
 ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم ، وهؤلاء أكثر أهل الدنيا .

وثالثها - أي ثالث مقامات المرابطة واعمالها - هو (المحاسبة) بعد العمل ، فإن العبد كما يختار وقتاً في أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق ، ينبغي له أن يختار وقتاً في آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به ، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء . وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة ، وقد ورد في الأخبار : أن العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر في صنع الله ، وساعة يخلو فيها للطعم والمشرب . ولذلك كان الصدر الأول من الخائفين ومن تقدمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس ، بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة ، وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه أتم من محاسبة شريكه ، وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة ، إذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجبه من الحجة والحياة والافتضاح ، إذا علم أن محاسبة النفس في الدنيا تسقطه أو توجب خيفته ، كيف يجوز له أن يتركها ؟

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل : أن يطالب نفسه أولاً بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله ، فإن ادتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها ، وإن فوتتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن ادتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها ، واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه . وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان

حتى لا يغبن في شيء منها ، كذلك ينبغي أن يفتش عن افعال النفس ويضيق عليها ، وليتق غائلتها وحيلتها ، فإنها خداعة مكارهة ملبسة ، فليطالها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره في صعيد القيامة ، ثم بتصحيح الجواب عن جميع افعاله واحواله : من نظره ، وقيامه ، وقعوده ، ونومه ، وأكله ، وشربه ، حتى عن سكوته لم سكبت ، وعن سكونه لم سكن ، وعن خواطره ، وأفكاره ، وصفاته النفسية ، وأخلاقه القلبية ، فإن خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع ، بحيث أدت الحق في الجميع ، ولم تترك شيئاً مما يجب عليها ، ولم ترتكب شيئاً من المعاصي : حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم ، ولم يكن شيئاً باقياً عليها ، وإن أدت الحق في البعض دون البعض ، كان قدر ما أدت الحق فيه محسوباً لها ، ويبقى غيره باقياً عليها فيثبته عليها ، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته . ثم النفس غريم يمكن أن تستوفى منها الديون ، أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء .

ورابعها - وهو آخر مقامات المرابطة - (معاتبة النفس) ومعاقبها على تقصيرها ، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة ، وإلزامها الرياضات الشديدة ، فإنه إذا حاسب نفسه ، فوجدها خائنة في الأعمال ، مرتكبة للمعاصي ، مقصرة في حقوق الله ، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل ، فلا ينبغي أن يهملها ، إذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وانس بها بحيث عسر بعد ذلك فطامها عنها . فينبغي للعاقل أن يعاتبها أولاً ،

ويقول : أف لك يا نفس اهلكتيني وعن قريب تعذبن في النار مع الشياطين والأشرار ، فيما ايتها النفس الأمارة الخبيثة ! أما تستحيين وعن عيبك لا تنتهين ؟ ! فما اعظم جهلك و حماقتك ! أما تعرفين أن بين يديك الجنة والنار وأنت صائرة إلى احدهما عن قريب ؟ فما لك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين ؟ أما علمت أن الموت يأتي بغتة من غير اخبار ، وهو أقرب اليك عن كل قريب ؟ فما لك لا تستعدين له ؟ أما تخافين من جبار السماوات والأرض ، ولا تستحيين منه ؟ تعصين بحضرتة وأنت عالمة بأنه مطلع عليك ؟ ! ويحك يا نفس ! جرأتك على معصية الله إن كانت لا اعتقادك أنه لا يراك فما اعظم كفرك ، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياؤك ، وما أعجب نفاقك ، وكثرة دعاويك الباطلة ! فإنك تدعين الايمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك ! فتنبهي عن رقدتك وخذى حذرك ! لو أن يهودياً أخبرك في ألد اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه ! ولو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعتيه ! فقول الله وقول انبيائه المؤيدين بالمعجزات وقول الأولياء والحكماء والعلماء أقل تأثيراً عندك من قول يهودى أو طفل ؟ ! . . . فلا يزال يسكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات ، ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصديق بما يجبه ، جبراً لما فات منها وتداركاً لما فرط فيها ، فإذا أكل لقمة مشتبهة ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر ، وإذا اغتاب مسلماً يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة ، وكذلك يعاقب كل عضو من أعضائه إذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته ، وإذا استخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها . وإذا استهان بفقر اعطاه صفو ماله ، وهكذا الحال في سائر المعاصي والتقصيرات .

وطريق العلاج في إلزام النفس - بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات والشاقة والرياضات - أمران :

الأول - تذكر ما ورد في الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات، قال الصادق عليه السلام : « طوبى لعبدا جاهد في الله نفسه وهواه ! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله ، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله - تعالى - فقد فاز فوزاً عظيماً ، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله - تعالى - من النفس والهوى ، وليس لقتلها وقطعها سلاح وآلة مثل الافتقار الى الله ، والخشوع ، والجوع والظما بالنهار ، والسهر بالليل ، فإن مات صاحبه مات شهيداً ، وإن عاش واستقام اذاه عاقبته الى الرضوان الأكبر ، قال الله - عز وجل - :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ

لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » (١) .

وإذا رأيت مجتهداً ابلغ منك في الاجتهاد ، فونج نفسك ولما وغيرها ، تحثياً على الازدياد عليه ، واجعل لها زماماً من الأمر ، وعناناً من النهي ، وسقماً كالرايض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوة من خطواته إلا وقد صح اولها وآخرها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي حتى تورمت قدماه ، ويقول : (أفلاً كون عبداً شكوراً) ، أراد أن يعتبر به امته . فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعب والريضة بحال . ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله ، ورأيت بركاتها ، واستضأت بنورها ، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت أرباً

ارباً ، فما أعرض عنها من اعرض إلا بحرمان فوائده السلف من العصمة والتوفيق ، (٢) . قيل لربيع بن خثيم : مالك لا تنام بالليل ؟ قال : « لأنى أخاف البيات » . والأخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى أكثر من أن تحصى .

الثاني - مصاحبة أهل السعي ، والاجتهاد في العبادة ، ومجالسة المجاهدين المتراضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات وإلزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات ، فملاحظة احوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وافعاهم ، حتى قال بعضهم : « إذا اعترتنى فترة في العبادات ، نظرت الى بعض العباد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك اعمل اسبوعاً » . إلا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا ، إذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين ، وليس فيما من تقرب عبادته عبادة أدنى رجل من سلفنا الصالحين . فينبغى أن يعدل من المشاهدة الى سماع احوالهم ، ومطالعة حكاياتهم واخبارهم ، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع احوالهم واطلع على كيفية اجتهادهم في طاعة الله ، يعلم أنهم عباد الله واحباؤه وأنهم ملوك الجنة ، قال بعض اصحاب أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - : « صلينا خلفه الفجر ، فلما سلم انتقل الى يمينه وعليه كآبة ، فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً شبيهم ، وكانوا يصبحون شعثاً غيراً صفراً ، فقد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله - عز وجل - ، ويرأحون بين أقدامهم وجباههم ، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكان القوم باتوا غافلين » . وكان اويس القرني يقول

(١) الحديث بطوله مروى عن (مصباح القرية) : باب ٨١ ص ١٨٤ ، مع

اختلاف يسير هنا ، فصحة عليه كما كان هناك .

في بعض الليالي : « هذه ليلة الركوع ، فيحكي الليل كله في ركعة ، ويقول في بعضها : « هذه ليلة السجود ، فيحكي الليل كله في سجدة . وقال ربيع بن خثيم : « أتيت أويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر ، جلست موضعاً ، وقلت : لا أشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه ، فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نائمة وبطن لا تشبع ، . وروى : « أن رجلاً من العباد كأم امرأة ووضع يده على نحرها ، ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت (١) عقوبة لها . وبعضهم نظر إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ومر بعضهم بغرفة فقال : متى بنيت هذه الغرفة ؟ ثم أقبل على نفسه وقال : تسأين عما لا يعينك ؟ ! لا عاقبتك بصوم ستة ، فصامها ، وروى : « أن أبا طلحة الأنصاري شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة ، فتصدق بالحائطة جبراً لما فاتته من الحضور في الصلاة ، . وكان بعضهم اعتلت إحدى قدميه فيصل على قدم واحدة حتى يصل الصبح بوضوء العشاء . وكان بعضهم يقول : « ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين صلاة الليل ، . وحكى رجل : « أنه نزل بمض أهل الله عندنا بالمحصب (٢) وكان له أهل وبنات ، وفي كل ليل يقوم ويصلي إلى السحر ، فإذا كان السحر ينادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون ! (٣) اكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون ؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب ،

(١) النشيش : صوت غليان الماء .

(٢) المحصب - بالمهملةتين وضم الميم وتشديد الصاد - : موضع بمكة على طريق منى ،

ويسمى (بظحاء) .

(٣) التعريس : نزول المسافر آخر الليل لتقوم والاستراحة ، من قولهم : عرس القوم .

فيتواثبون بين باك وداع ، وقارىء ومتوضىء ، وإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى . وهكذا كان عمل عمال الله ، وسلوك سالكى طريق الآخرة ، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء ، اشرنا الى امودج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال فى مرابطة النفس ومراقبتها ، ويعلمون ان عباد الله ليسوا امثالنا ، بل هم قوم آخرون . قال بعض الحكماء : « إن لله عباداً انعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر اليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوابيت للعظمة . وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلائق مقبولون ومدبرون ، وقلوبهم تجول فى الملكوت ، وتلوز (١) بحجب العيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفها ، فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسناً ، وفى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً ، وطريقهم لا يبلغ اليها بالتكلف ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . » فعليك يا حبيبى بمطالعة أحوالهم وحكاياتهم ، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك ، وإياك أن تنظر الى أهل عصرك ، واحمى اقل فى أمثال زماننا من يذكر الله رؤيته ، ويعينك فى طريق الدين صحبته ، فإن تطع اكثر من فى بلدك وعصرك يضلوك عن سبيل الله .

ومنها :

الغفر-

وهى فتور النفس عن الالتفات والتوجه إلى ما فيه غرضها ومطلبها ، إما عاجلاً أو آجلاً . وضدها : النية ، وترادفها : الارادة والقصد ، وهى

(١) فى القاموس : اللوز - بلزاي - : الملاذ والملجأ .

انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها حالاً أو مآلاً ،
 والموافق لغرض النفس إن كان خيراً لها وسعادة في الدنيا أو الدين ، فالغفلة
 عنه وعدم انبعاث النفس إلى تحصيله رذيلة ، والنقصان والنية له والقصد إليه
 فضيلة وكمال ، وإن كان شراً وشقاوة ، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة ،
 والنية له وارا دته رذيلة . ثم باعث النفس على النية أو الغفلة والسكف ، إن
 كان من القوة الشهوية كانت النية أو الغفلة متعلقة بها فضيلة أو رذيلة ، وإن
 كان من قوة الغضب كانت النية أو الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك . فالنية
 والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية ، وعلى دفع كافر يؤذى المسلمين
 متعلقة بقوة الغضب ، والنية في العبادات مع انضمام التقرب إليها تسمى
 إخلاصاً . ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند
 العقلاء وأرباب البصيرة ، فيسكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب في
 نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة ، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاقها
 مذمومة والنية مدحوة ، فلو ذمت الغفلة باطلاقها ومدحت النية كذلك ، كان
 بهذا الاعتبار والآيات والأخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار ،
 كما وصف الله الغافلين وقال :

« إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » (١) .

وقال : « أَوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (٢) .

(تنبيه) : الغفلة بالمعنى المذكور أعم من أن يكون فتور النفس
 وخمودها عن الانبعاث إلى ما يراه موافقاً للغرض مع الجهل بالموافق والملائم ،
 أو مع العلم به ومع النسيان عنه ، أو مع التذكر له ، وربما خص في عرف

(١) الفرقان ، الآية : ٤٤ . (٢) الاعراف ، الآية : ١٧٨ .

أهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر. ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام ، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات .

تسميم

(الغفلة موجبة للحرمان)

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان عن سعادة الدارين ، وتؤدي إلى شقاوة النشأتين ، إذ الإهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدي إلى هلاكة الشخص وانقطاع النوع ، والغفلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن أداء الفرائض والنوافل تنجر إلى ابطال غاية الایجاد - اعنى بلوغ كل شخص إلى كماله المستعدله - ، وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخناق العباد يوجب الهلاك والشقاوة أبد الآباد .

وصل

ضد الغفلة النية - تأثير النية على الاعمال - النية روح الاعمال والجزاء بحسبها - عبادة الاحرار والاجراء والعبيد - نية المؤمن من العمل - النية غير اختيارية - الطريق في تخليص النية .

* * *

قد عرفت أن ضد الغفلة النية ، وهى انبعاث النفس وتوجهها الى ما يراه موافقاً لغرضها، وقد عرفت ايضاً ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهى واسطة بين العلم والعمل ، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصد ، وما لم يقصد لم يفعل ، فالعلم مقدم على النية وشرطها ، والعمل ثمرتها وفرعها ، إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فإنه لا يتم إلا بعلم وشوق وارادة

وقدرة ، إذ كل انسان خلق بحيث يوافق بعض الأمور ويلأثم غرضه ،
ويخالفه بعض الأمور ، فاحتاج الى جلب الموافق ودفْع المخالف المنافي ، وهو
موقوف على ادراك الملائم النافع ، والمنافي الضار ، إذ ما لم يعرف الشيء لم
يعقل طلبه أو الهرب عنه ، وهو العلم ، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة
عليه ، وهو الشوق ، إذ من أدرك الغذاء أو النار لا يكفيه ذلك للتناول
والهرب ، ما لم يكن شوق الى التناول والهرب ، وعلى القصد والشروع
والتوجه اليه ، وهو النية ، إذ كم مشاهد للطعام راغب فيه شائق اليه لا يريد
لكونه مؤذياً أو حراماً أو لعذر آخر ، وعلى القدرة المحركة للأعضاء اليه
- أى الى جلب الملائم أو دفع المضار - وبها يتم الفعل ، فهى الجزء الأخير
للعلة التامة التى بها يتم فعل الفاعل المختار ، فالأعضاء لا تتحرك إلى جانب الفعل
ولا توجد إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر النية ، والنية تنتظر الداعية الباعثة
- أعنى الشوق - ، والشوق ينتظر العلم أو الظن بكون ما يفعل موافقاً له ، فإن كان
الشوق صادراً عن القوة البهيمية ، بأن يكون الفعل بما تقتضيه هذه القوة :
كأكل ، وشرب ، وجماع ، وكسب مال ، وأمثال ذلك من الالتذات
الشهوية ، كانت النية والقصد أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو
رذائلها ، وإن كان مما تقتضيه القوة السبعية : من دفع مود ، أو طلب
الاستعلاء ، أو تفوق ، وأمثال ذلك ، كانت النية أيضاً متعلقة بهذه القوة
معدودة من فضائلها أو رذائلها . وقد ظهر بما ذكر : أن المحرك الأول هو
الغرض المطلوب - أعنى المقصود المنوى بعد تعلق العلم به - وهو الباعث
الأول ، وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثانى ، ويتولد منه القصد والنية
وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاضها على تحريك الأعضاء
الى جانب العمل .

فصل

(تأثير النية على الأعمال)

العمل غرضه الباعث ، أى باعته الأول ، إما واحد : كالقيام للاكرام ، أو للهرب من السبع المتهجم عليه ، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساوياً أو متفاوتاً : كالتصدق للفقير والقرابة بالنظر الى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سبباً للاعطاء ، أو بدون استقلال واحد لو انفرد ، بل المستقل المجموع ، كالمثال المذكور بالنظر الى من يعطى ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد ، أى لا يعطيه قريبه الغنى ، ولا الأجنبي الفقير ، أو مع استقلال بعض دون بعض : بأن يكون للثاني تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل ، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث ، إن خيراً نغير : كالدخول في المسجد لزيارة الله ، ولانتظار الصلاة ، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر وترك الذنوب ، وملاقة الاتقياء واخوانه المؤمنين ، واستماع المراعى واحكام الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن شراً فشر : كالقعود فيه للتحدث بالباطل ، وملاحظة النساء ، والمناظرة للبهيمة والمرأة ، وربما كان بعض البواعث خيراً وبعضها شراً : كالتصدق للشواب والرياء ، ودخول المسجد لبعض البواعث الأول ، وبعض البواعث الثانية ، والعمل الذى باعته من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الاخلاص . ثم باعث العمل المباح إن كان خيراً بجعله عبادة ، كالتطيب يوم الجمعة لاقامة السنة ، وتعظيم المسجد واليوم ، ودفع الأذى بالنتن ، والأكل لقوة العبادات ، والجماع للولد وتطيب خاطر الزوجة ، والترفة بنومة أو دعاية مباحة لرد نشاط الصلاة ، وإن كان شراً بجعله معصية ، كالتطيب للتفاخر باظهار الثروة ، والتزين للزنا ، ولا يؤثر في الحرام ، فلا يباح شرب الخمر لموافقة الأقران

والاخوان، فالمعاصي لا تتغير موضوعاتها بالنية، بخلاف الطاعات والمباحات، فانها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات، وبالفسادة تصير أعظم المهلكات، فما أعظم خسران من يغفل عن النية، ويتعاطى الأعمال تعاطى البهائم المهملة على قصد حظوظ النفس أو على السهو والغفلة، وقد كانت غاية سعى السلف أن يكون لهم في كل شيء نية صحيحة، حتى في أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء.

ولا ريب في إمكان تصحيح النية في كل مباح، بحيث يترتب عليه الشواب، بل يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي، فإن من تلف له مال، فإن قال: هو في سبيل الله، كان له أجر، وإن سرقه أحد أو غصبه يمكن أن ينوى كونه من ذخائر الآخرة، وإذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن أن يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل إلى ديوانه حسناته، فأياك أن تستحقق شيئاً من نياتك وخطرات قلبك، ولا تقدم على عمل إلا بنية صحيحة، فإن لم تحضرك النية توقف، إذ النية لا تدخل تحت الاختيار، وقد قيل: «إن من دعا أخاه إلى طعام بدون رغبة باطنة في اجابته، فإن أجابه فعليه وزران: النفاق، وتعريضه أخاه لما يسكره لو علمه، وإن لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق!». فلا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، لأنه إذا لم يكن كذلك كان غافلاً، والغافلون قد وصفهم الله - تعالى - فقال:

«إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (١).

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم، قال الصادق عليه السلام: «صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم؛ لأنه سلامة القلب من هواجس

المخدورات بتخليص النية لله في الأمور كلها ، قال الله - عز وجل - :

« يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ

بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » (١) .

ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات في معنى قوته وضعفه ، وصاحب النية الخالصة نفسه وهو اه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله - تعالى - والحياء منه ، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه ، في تعب ، والناس منه في راحة ، (٢) .

فصل

(النية روح الأعمال ، والجزاء بحسبها)

النية روح الأعمال وحققتها ، والجزاء يكون حقيقة عليها ، فإن كانت خالصة لوجه الله - تعالى - كانت ممدوحة ، وكان جزاؤها خيراً وثواباً ، وإن كانت مشوبة بالأغراض الدنيوية كانت مذمومة ، وكان جزاؤها شراً وعقاباً ، قال الله - سبحانه - :

« وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » (٣) .

(١) الشعراء الآية : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة - الباب الرابع ص ١٣٥ - ، وفي البجار - الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر ، باب النية وشرائطها وصراتها ، ص ٧٧ ، ط أمين الضرب - . لكن المذكور في البجار فيه اختلاف يسير عما في المصباح ، فصصناه على البجار ، ليكون المذكور في البجار أصح مما في المصباح .

(٣) الانعام ، الآية : ٥٢ .

والمراد بالارادة : النية ، لترادفهما - كما تقدم - . وأوحى الله الى داود :
« يا داود ! لا تطاول على المرادين ، ولو علم أهل محبتي منزلة المرادين عندي لكانوا
لهم أرضاً يمشون عليها ، يا داود ! لئن تخرج مريداً من كربة هو فيها تستعده ،
كسبتك عندي حميداً ، ومن كتبته حميداً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة الى
المخلوقين ، . وقال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ
ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن
كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه ، وإنما
قال ذلك حين قيل له : إن بعض المهاجرين الى الجهاد ليست نيته من تلك
الهجرة إلا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا أو نيل الصيت عند الاستيلاء ،
فبين ﷺ : أن كل أحد ينال في عمله ما يبغيه ، ويصل الى ما ينويه ، كائناً
ما كان ، دنيوياً كان أو آخروياً . وهذا الخبر بما يعده المحدثون من المتواترات
وهو أول ما يعلمونه أولادهم ، وكانوا يقولون : انه نصف العلم . وقال
- صلى الله عليه وآله - : « ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ، وإنما ينظر
الى قلوبكم واعمالكم ، وإنما ينظر الى القلوب لأنها مظنة النية ، . وقال ﷺ :
« ان العبد ليعمل اعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف محتتمة ، فتلقى
بين يدي الله - تعالى - ، فيقول : القوا هذه الصحيفة ، فإنه لم يرد بما فيها
وجهي ، ثم ينادى الملائكة : اكتبوا له كذا وكذا ، فيقولون : يا ربنا ! انه
لم يعمل شيئاً من ذلك ، فيقول الله - تعالى - : انه نواه ، . وقال ﷺ :
« الناس أربعة : رجل آتاه الله - عز وجل - علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في
ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله - تعالى - مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما
في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يتخبط بجمله في
ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الوزر

سواء ، ألا ترى كيف شاركة بالنية في محاسن عمله ومساويه ؟ ١٩ . ولما خرج
 ﷺ إلى غزوة تبوك ، قال : « ان بالمدينة اقواماً ، ما قطعنا وادياً ، ولاوطاناً
 موطناً يغيظ الكفار ، ولا انفقنا نفقة ، ولا أصابتنا محمصة ، إلا شاركونا في
 ذلك وهم في المدينة ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ، وليسوا معنا !
 فقال : « حسبهم العذر ، فشاركونا بحسن النية ، . وفي الخبر : « أن رجلاً من
 المسلمين قتل في سبيل الله بأيدي بعض الكفار ، وكان يدعى بين المسلمين قتيل
 الحمار ، لأنه قاتل رجلاً من الكافرين نية أن يأخذ حماره وسلبه ، فقتل على
 على ذلك فاضيف إلى نيته . وهاجر رجل إلى الجهاد مع اصحاب النبي
 ﷺ ، وكانت نيته من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عساكر الكفار
 ويتزوجها - وتسمى أم قيس - فاشتهر هذا الرجل عند اصحاب النبي بمهاجر
 أم قيس ، . وفي أخبار كثيرة : « من هم بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة ،
 كما تقدم ، وقد ورد : أنه اذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل في النار ، وكذا
 المقتول ؛ لأنه أراد قتل صاحبه . وقال ﷺ : « اذا التقى الصفا نزلت الملائكة
 تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل للدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان
 يقاتل عصبية ، ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله إلا لمن قاتل لتكون كلمة
 الله هي العليا . وقال ﷺ : « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى اداه
 فهو زان ، ومن استدان ديناً وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق ، ومن تطيب لله
 - تعالى - جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء
 يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة ، (١) ، وكل ذلك مجازاة على حسب النية .
 وقال الصادق عليه السلام : « إن العبد المؤمن الفقير ليقول : يا رب ! ارزقني حتى

(١) صححنا النبويات كلها على احياء العلوم : ٤ / ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، باب

أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير ، فإذا علم الله - عز وجل - ذلك منه بصدق النية كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله ، إن الله واسع كريم . وسئل عليه السلام عن حدِّ العبادة التي إذا فعلها فاعلمها كان مؤدياً ، فقال : « حسن النية بالطاعة » . وقال عليه السلام : « وإنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله - تعالى - أبداً ، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً ، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلى قوله - تعالى - :

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ » (١)

قال : على نيته ، (٢) وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تحصى . وأى شبهة في أن عماد الأعمال النيات ، والعمل مفتقر إلى النية ليصير خيراً ، والنية في نفسها خير وأن تعذر العمل ، وعون الله - تعالى - للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن نقصت نقص بقدره ، فرب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية ، ولذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل ، ونقل : « أن بعض المريدين يطوف على العلماء ويقول : من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله - تعالى - ، فإنني لا أحب أن تأتي علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله - تعالى - . فقال له بعض العلماء : أنت قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير ما استطعت ، فإذا فترت أو تركته فهم بعمله : إذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به » . ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية ، وكون النية حقيقة العمل وعماداً وروحاً له : إن العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه ، وإنما فائدته للأثر الذي

(١) الاسراء الآية : ٨٤ .

(٢) صححنا الأخبار كلها على أصول السكاني - الجزء الثاني ، باب النية - .

يصل منه إلى النفس من النورانية والصفاء ولا يزال يتكرر وصول هذا الأثر من الأعمال إليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء ، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة ، ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الأعمال إنما هو مع صحة النية وخلوصها ، وكونها لله - سبحانه - من دون شوب الأغراض ، بل التأمل يعطى أن هذا الأثر إنما هو حقيقة من محض النية ، وإن كانت حادثة لأجل العمل .

فصل

(عبادة الأجرار والأجراء والعبيد)

قد ظهر مما ذكر : أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الأجر في الآخرة إلا ما يراد التقرب إلى الله والدار الآخرة ، أي يراد به وجه الله من حيث هو ، من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية ، أو يراد به التوصل إلى ثوابه ، أو الخلاص من عقابه ، فمن أراد بعبادته محض وجه الله ، واخلصها له لكونه أهلاً للعبادة ، ومحبة له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله ، فاحبه واشتاق إليه ، ولا يريد سواه ، ولا يتسبج بغير حبه وانسه والاستغراق في لجة شهوده ، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه إليه بطاعته : فجزاؤه أن يحبه الله ويحتبيه ، ويقربه إلى نفسه وبدنه قريباً معنوياً ودنوياً روحانياً ، كما قال في حق بعض من هذا صفته :

« وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُنْفِيًا وَحُسْنَ مَآبٍ » (١)

والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « لا تلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ، لكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب ، نظراً إلى أنه لم يعرف من الله سوى كونه إلهاً صانعاً للعالم قادراً قاهراً عالماً ، وأن له جنة ينعم بها المطيعين ، وناراً يعذب بها العاصين ، فعنده ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره : فجزاؤه بمقتضى نيته أن يدخله جنته ، وينجيه من ناره ، لأن جزاء الأعمال على حسب النيات ، كما أخبر الله - تعالى - عنه في غير موضع من كتابه ، فإن لكل امرئ ما نوى ، ولا تصنع إلى قول من ذهب إلى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعماً منه أن هذا القصد مناف للخلاص الذي هو ارادة وجه الله وحده ، وأن من قصد ذلك إنما قصد جلب النفع إلى نفسه ، ودفع الضرر عنها ، لا وجه الله - سبحانه - ، فإن هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها ، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها ، فإن حقيقة النية عبارة من انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها ، إما عاجلاً أو آجلاً ، لا مجرد قول النಾಯ عند العبادة : أفعل كذا قربة إلى الله ، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وإن لم يكن لنفسه انبعاث إلى التقرب ، هيئات هيئات ! إنما هذا تحريك لسان وحديث نفس ، وما ذلك إلا كقول الشبهان : اشتهي هذا الطعام ، قاصداً حصول الاشتهاء ، وهذا الانبعاث إذا لم يكن حاصلًا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور ، واكثر الناس تتعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله وتقرباً إليه ، لأنهم لا يعرفون من الله - تعالى - إلا المرجو والخوف ، فغاية مرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا انفسهم عقابها ، ويتذكروا الجنة ويرغبوا انفسهم ثوابها ، وخصوصاً من كان ملتفتاً إلى الدنيا ، فإنه قلما تنبعث له داعية إلى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة ، فضلاً عن عبادته على نية اجلال الله - تعالى - لاستحقاقه

الطاعة والعبودية ، فإنه قل من يفهمها فضلاً عن يتعاطاها ، فلو كلف بها لكان تمكيفاً بما لا يطاق ، وليس معنى الإخلاص في العبادة إلا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا والحظوظ العاجلة للنفس ، كمدح الناس ، ونيل المال ، والإخلاص من النفقة لعتق العبد ونحو ذلك ، وظاهر أنه لا تنافيه إرادة الجنة والإخلاص من النار بما وعد في الآخرة ، وإن كان من جنس المألوف في الدنيا ، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثاً ، إذ كل ما وعد به الجنة وأوعد عليه النار بما رغب ووعد به ورهب وأوعد عليه ، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى ، قال الله - سبحانه - :

« وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » (١)

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا شيئاً مما ينفعه ويؤذيه، أن يستغنى عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه . ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة بإحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة في عبادته إلى إحداها وهو لا يشعر به .

ومما يدل صريحاً على ما ذكرناه قول الصادق - عليه السلام - : « العباد ثلاثة : قوم عبدوا الله - عز وجل - خوفاً ، فتلك عبادة العبيد . وقوم عبدوا الله - تبارك وتعالى - طلب الثواب ، فتلك عبادة الأجراء . وقوم عبدوا الله - عز وجل - حباً له ، فتلك عبادة الأحرار ، وهي أفضل العبادة ، (٢) . وهذا يدل على أن العبادة على الوجهين الأولين لا تخلو من فضل أيضاً ، فضلاً عن أن تكون صحيحة . نعم ، لا ريب في أن العبادة على

(١) الأنبياء ، الآية : ٩٠ .

(٢) صحیحنا الروایة علی اصول السکاک : الجزء الثاني ، باب العبادة .

الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأولين ، فإن من تنعم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم ، يسخر عن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجه الحور العين بالملتفت إلى الصور المصنوعة من الطين ، وكما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجوه النساء الجميلة بالحنفساء التي تعرض عن النظر إلى وجوههن وتلتفت إلى صاحبتهما وتألف بها ، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطراب ، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أو النسوان الجميلة أعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمال النسوان الجميلة والحنفساء ، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الأول غير متناه ، وأى نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى ؟

فصل

(نية المؤمن خير من العمل)

لما عرفت أن النية روح العمل وحقيقته ، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس ، وكون الغرض الأصلي من العمل تأثير القلب بالميل إلى الله - تعالى - وتوقفه على النية ، فهي خير من العمل ، بمعنى أن العمل إذا حلل إلى جزئيه يكون جزؤه القلبي - اعني النية - خيراً من جزئه الجسماني - اعني ما يصدر من الجوارح - ، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه ، ولذا قال الله - سبحانه - :

« كُنْ يَنَالُ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَالْكِنُ يَنَالُهُ »

التَّقْوَى مِنْكُمْ « (١) .

فإن المقصود من اراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها
ايشراً لوجه الله ، دون مجرد الدم واللحم ، وميل القلب إنما يحصل عند جزم
النية والهم ، وإن عاق عن العمل عائق ، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها
ولسكن يناله التقوى منكم) ، والتقوى صفة القلب ، ولذا ترى أن المجامع
امرأته على قصد أنها غيرها آثم ، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته ،
ولذا ورد : أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، لأن هم القلب هو
ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى ، وهو غاية الأعمال الحسنة ، وإنما الاتمام
بالعمل يزيدھا تأكيداً . وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور : « نية المؤمن
خير من عمله ، ونية الكافر شر من عمله » . وكل عامل يعمل على نيته .

وحاصله : أن كل طاعة تتضمن نية وعملاً ، وكل منهما من جملة
الخيرات ، وله أثر في المقصود ، وتتكون النية خيراً من العمل وأثرها أكثر
من أثره . والغرض : أن للمؤمن اختياراً في النية وفي العمل ، فمهما عملان ،
والنية من الجملة خيرهما ، أى النية التى هى جزء من طاعته خير من عمله الذى
هو جزؤها الآخر ،

فإن قيل : ما ذكرت لا يفيد أزيد من أن العمل إذا كان مع النية يكون
كل من العمل والنية خيراً وذا ثواب . وإذا كان بدونها لا يكون خيراً ولا يكون
له ثواب ، والمقصود كون النية خيراً من العمل فى الصورة الأولى وكون
ثوابها اعظم ، ولم يظهر وجه الخيرية بما ذكرت .

قلت : ذلك وإن ظهر اجمالاً ، إلا أنه لا بد لتوضيحه لتظهر جملة
الحال ، فنقول :

الوجه فى كون النية خيراً من العمل وراجحة عليه فى الثواب : أنه
لا ريب فى أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها فى الآخرة وتنعمها

بلقاء الله - سبحانه - ، والوصول الى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وانسه ، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها الى الله - سبحانه - ، فاذا حصل بمجرد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه الى الله - تعالى - كان ضعيفاً غير راسخ ، وإنما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح ، لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الآخر ، فيرى أن العضو إذا أصابته جراحة تتألم بها النفس ، وأن النفس إذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائض ، فالطاعات التي هي فعل الجوارح إنما شرعت للتوصل بها الى صفة النفس - اعني التوجه والميل الى الله سبحانه - ، فالنفس هو الأصل والمتبوع والامير ، والجوارح كالخدم والاتباع ، وصفات القلب هي المقصودة لذاتها ، وافعال الجوارح هي المطلوبة بالعرض ، اسكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس - اعني الميل والنية والتوجه - ولا ريب في أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض ، وثوابه أعظم من ثوابه .

ومن المعاني الصحيحة للحديث : أن المؤمن بمقتضى ايمانه ينوى خيرات كثيرة لا يوفق لعملها ، إما لعدم تمكنه من الوصول الى أسبابها ، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها ، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول الى أسبابها ، كالذي ينوى إن آتاه الله مالا ينفقه في سبيله ، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الانفاق ، فهذا نيته خير من عمله ، وايضا المؤمن ينوى دائماً أن تقع عباداته على أحسن الوجوه ، لأن ايمانه يقتضى ذلك ، ثم اذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك ، ولا يأتي بها كما يريد ، فما ينويه دائماً خير مما يعمل به في كل عبادة . والى هذا أشار الباقر عليه السلام حيث قال : « نية المؤمن خير من عمله ،

وذلك لأنه ينوى الخير ما لا يدركه ، ونية الكافر شر من عمله ، وذلك لأن الكافر ينوى الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه . وقيل للمصدق عليه السلام : سمعتك تقول : نية المؤمن خير من عمله ، فكيف تكون النية خيراً من العمل ؟ قال عليه السلام : « لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين ، والنية خالصة لرب العالمين ، فيعطى - عز وجل - على النية ما لا يعطى على العمل » ، ثم قال : « إن العبد لينوى من نهاره أن يصلى بالليل فتغلبه عينه فينام ، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة » . وبعض الأخبار المتقدمة يعضد ذلك ويؤكدده أيضاً . وقيل : معنى الحديث : « إن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد بلا نية » . وفيه : أن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلاً ، فلا معنى للترجيح في الخيرية ، وقيل : سبب الترجيح : « إن النية سر لا يطالع عليه إلا الله ، والعمل ظاهر ، وفعل السر أفضل » . وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً ، إلا أنه ليس مراداً من الحديث ، لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله - تعالى - بقلبه أو يتفكر في مصالح المؤمنين ، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيراً من العمل الذي هو الذكر والتفكير ، مع اشتراك النية والعمل في السرية ، وبداهة كون الذكر والتفكير خيراً من نيتهما .

فصل

(النية غير اختيارية)

النية غير داخلة تحت الاختيار ، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ملام ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً أو آجلاً ، وهذا الميل اذا لم يكن حاصلًا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإحطار بالبال والاجراء على اللسان ، بل ذلك كقول الشبهان : نويت أن اشتهى الطعام وأميل اليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلاناً وأحبه ،

فلا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه ، إلا باكتساب اسبابه ، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وإنما قد تذبعت النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث ، الموافق للنفس الملائم لها ، وما لم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه قصده نحوه ، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائماً ، واذا اعتقد فإنما يتوجه القلب اذا كان فارغاً غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه ، وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها ، تجتمع وتختلف ذلك بالاشخاص والأحوال والأعمال ، فاذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد ، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية اجابة الباعث ، ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد ، ولذا كان أهل السلوك من السلف كثيراً ما يمتنعون عن جملة من الطاعات اذا لم تحضرهم النية ، وكانوا يقولون : ليس تحضرني نية ، وذلك لعلمهم بأن النية روح الأعمال وقوامها ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب . وروى : « أنه أتى الصادق عليه السلام مولى له ، فسلم عليه وجلس ، فلما انصرف عليه السلام انصرف معه الرجل ، فلما انتهى الى باب داره دخل وترك الرجل ، فقال له ابنه اسماعيل : يا أبا ! ألا كنت عرضت عليه الدخول ؟ فقال : لم يكن من شأنى ادخاله ، قال : فهو لم يكن يدخل ، قال : يا بني ! إني أكره أن يكتسبني الله عرضاً . »

تتميم

(الطريق في تخليص النية)

الطريق في تخليص النية في الطاعات تقوية إيمانه بالشرع ، وتقوية إيمانه
بعض ثواب الطاعات مع خلوص النية ، واذا قوى إيمانه فربما انبعثت من نفسه

رغبة الى فعل الطاعة مع خلوص النية، مثلاً من لم تكن له نية الولد في النكاح، بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة، فينبغي له أن يقوى ايمانه بمعظم ثواب من سعى في تكشير امة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد، كسقتل المؤونة وطول المتعب وغيره، واذا فعل ذلك انبعثت من نفسه رغبة إلى تحصيل الولد للنواب .
ومنها :

الكراهة:

وهي نفرة الطبع عما لا يخلو عن ايلام واتعاب ، فاذا قويت سميت مقتاً . وضدها الحب ، وهو ميل الطبع الى الشيء الملد ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقاً .

اعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد امور متناسبة مترتبة بعضها على بعض ، وكذا اضدادها - اعنى الشوق والنية والحب والانس - امور متناسبة يترتب بعضها على بعض ، فنحن هنا نشير اجمالاً إلى معانيها والفرق بينها ، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب .

فنقول : قد عرفت أن الغفلة والنية ضدان ، وهما عبارتان عن عدم انبعاث النفس وانبعائها الى ما فيه غرضها الملائم إما عاجلاً أو آجلاً ، وأما عدم الرغبة والشوق فهما أيضاً ضدان ومبدأان للغفلة والنية .

بيان ذلك : أن معنى عدم الرغبة ظاهر ، والشوق عبارة عن الرغبة إلى الشيء الذي لم يصل اليه وكان مفقوداً عنه بوجه، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة، ولو زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق . ثم فرق الشوق عن النية ظاهر، فإن الشوق مجرد الرغبة الى الشيء من دون اعتبار انبعاث النفس الى طلبه في

مفهومه ، والنية هي الانبعاث المذكور ، فالشوق مبدأ النية ، والنية مترتبة عليه ، وبذلك يظهر الفرق بين ضدَيْهِمَا ايضاً - اعني عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الكراهة والحب) : فقد عرفت أنهما عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم ، وعن ميله الى الملد ، سواء انبعثت النفس عن طلبه أم لا ، وبهذا يفترق الحب عن النية ، فان النية هي انبعاث النفس ، وهو مغاير لمجرد الميل ، بل الميل منشأً للانبعاث ، وسواء حصل الوصول الى الملد أم لا ، وبهذا يفترق عن الشوق ، فإن الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول ، فالشوق والنية والارادة لا ينفكان عن الحب ، والحب يكون مقارناً لهما ألبتة ، فاذا حصل الوصول الى المطلوب زال الشوق والارادة وبقي الحب بدونهما . وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الانس) : فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظه من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه ، والبعد عبارة عن عدم الوصول إلى المحبوب أو الوصول الى ما لا يستبشر ولا يبتهج بملاحظته ، لعدم الرغبة اليه أو للتنفر عنه ، فالحب منشأً الانس ، والانس يترتب عليه ، وهو غاية المحبة ، فلا يخلو انس عن المحبة ، والمحبة قد تكون بدونها ، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوباً للقوة العاقلة ، كالعلم بحقائق الأشياء ، وقد يكون مطلوباً للقوة الشهوية ، كالمال والأزواج ، وعلى كل تقدير تكون الامور المذكورة - اعني عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد - وأضدادها - اعني الشوق والارادة والحب والانس - متعلقة بتلك القوة ، معدودة من رذائلها أو فضائلها . ثم المحبوب إن كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعاً وعقلاً ، كان ما يتعلق به من الشوق والارادة والحب والانس من الفضائل واضدادها من الرذائل ، وإن

كان مما يذم حبه وطلبه شرعاً وعقلاً كان بالعكس .

فصل

الشوق - افضل مراتب الشوق الشوق الى الله - تعلق الحب بجميع القوى - أقسام الحب بحسب مبادئه - لا محبوب حقيقة إلا الله - الشهود التام هو نهاية درجات العشق - سرعان الحب في الموجودات - رد المنكرين لحب الله - معرفة الله اقوى سائر اللذات - تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه - الطريق إلى الرؤية واللقاء - تفاوت المؤمنين في محبة الله - الواجب اظهر الموجودات - علام محبة الله - معنى حب الله لعبده - الحب في الله والبغض في الله - الوفاء في الحب - الانس - الانس قد يثمر الادلال .

* * *

قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة .

وأما الشوق ، فنقول في بيانته : قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة إلى الشيء عند غيبته ، فإن الحاصل الحاضر لا يشتهق اليه ، إذ الشوق طلب يسوق الى نيل امر ، والموجود لا يطلب ، فالشوق لا يتصور إلا إلى شيء ادرك من وجهه ولم يدرك من وجهه ، فما لا يدرك أصلاً لا يشتهق اليه ، إذ لا يتصور أن يشتهق أحد الى شخص لم يره ولم يسمع وصفه ، وما ادرك بكامله لا يشتهق اليه ايضاً ، إذ المداوم لمشاهدة المحبوب والواصل اليه من جميع الوجوه لا يتصور أن يكون له شوق ، فالشوق يختص بتعلقه بما ادرك من وجهه دون وجهه ، وهذا إنما يكون باحد وجهين :

(احدهما) أن يتضح الشيء اتضاحاً ما ، ولم يستكمل الوضوح ، فاحتاج الى استكمال . فيكون الشوق الى ما بقي من المطلوب مما لم يحصل . مثال ذلك : أن من غاب عنه معشوقه ، وبقي في قلبه خياله ، يشتهق إلى استكمال خياله بالرؤية ،

ومن رأى معشوقه في ظلمة ، بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته ، يشتهق إلى استكمال رؤيته بأشراق الضوء عليه ، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق ، كما انه لو انمحي عن قلبه ذكره وخياله ومعرفة حتى نسيه لم يعقل وجوده .
(ثانيتها) أن يدرك بعض كالات المحبوب ، ووصل إليه ، وعلم اجمالا أن له كالات آخر ، ولم يدركها ولم يصل إليها ، فيكون له شوق الى ادراك تلك الكالات . مثال ذلك : أن يرى وجه محبوبه ، ولا يرى شعره ولا سائر اعضائه ، فيشتهق الى رؤية ذلك .

فصل

(أفضل مراتب الشوق الشوق الى الله)

افضل مراتب الشوق هو الشوق الى الله - سبحانه - والى لقائه ، وهى المظنة إلى الوصول إليه ، والى حبه وأنسه والتقرب لديه ، وهو رأس مال السالكين ، ومفتاح أبواب السعادة للطالبيين ، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله ، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين ، فلا يخلو عارف من الشوق الى الله :

أما الوجه الأول ، فلأن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن بلغ غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق ، فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح ، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات المكسدة للمعلومات والممانعة عن ظهورها اليقيني ، (لا سيما إذا انضاف إليها شواغل الدنيا ، فكالمال الوضوح في الأمور الإلهية إنما هو بالمشاهدة واشراق التجلي ، ولا يكون ذلك في هذا العالم ، بل يكون في الآخرة ، فهذا أحد الموجبين لشوق العارفين الى الله - سبحانه - ، وهو الشوق الى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحاً ما .

وأما الثاني ، فلأن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما ينكشف لكل

عارف بعضها ، وتبقى امور غير متناهية خفية عنه ، والعارف اجمالاً وجودها ،
 وكونها معلومة لله - تعالى - ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات اكثر
 مما حضر ، فلا يزال متشوقاً الى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله
 وجلاله وصفاته وأفعاله بما لا يعرفها اصلاً ، لا مع الوضوح ولا مع الابهام
 والاجمال . والشوق الأول ربما انتهى في الآخرة اذا حصل الشهود واللقاء
 المعنوي لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول
 التجرد التام لها ، وأما الشوق الثاني فلا يمكن أن ينتهي في الدنيا ولا في
 الآخرة ، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه
 وجلاله وصفاته واحكامه وافعاله ما هو معلوم لله - تعالى - وهو محال ، إذ
 معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وافعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة ،
 فتمتنع احاطة الانسان بها ، فلا يزال العبد عالماً بأنه قد بقي من جلال الله
 وعظمته ومن صفته وفعله ما لم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، وما من
 عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها ، فيشتاق اليها ألبتة ،
 واذا كان اصل الوصال واللذة حاصلًا ، فربما كان الشوق الى المراتب التي فوق
 مرتبتها شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم ، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة
 ودرجاتها متوالية الى غير النهاية ، وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة
 على التدريج ، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى اليها ، ولا يزال النعيم واللذة
 تتزايد له أبد الآباد من غير انقطاع له ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف
 النعيم شاغلاً له عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل له المه ، فإن امكن في
 الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا ، لكان حصول
 المعارف والابتهاجات والانوار وتجدها في الآخرة ممكناً ، وإن لم يكتسب
 اصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار

من دون أن ينتهي الى حد . وربما كان قوله - تعالى - :

« نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » (١) :

اشارة الى هذا المعنى ، ويكون المراد به اتمام النور في عين ما استنار في الآخرة استنارة محتاجة الى الظهور ، ثم الى زيادة الاستكمال والاشراق ، وإن اختص حصول نعم الآخرة وانوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الأنوار والابتهاجات ، فيكون ترقى العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والاشراق فيما حصل له أصله ، وعلى هذا ، فربما انتهى الى حد ووقف هناك ولا يتضاعف ، وقوله - تعالى - : « نورهم يسعى ... الى آخر الآية » ، يحتمل لهذا المعنى ايضاً ، بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله . (قيل) : وقوله تعالى :

« أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا » (٢) :

يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا ، ثم يزداد في الآخرة اشراقاً ، فأما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا . ثم لا يخفى أن تعيين الأصل والفرع للأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل ، وليس لنا طريق الى القطع بأن أى شيء أصل لآى نور وبهجة ، وربما كان المظنون عندنا : أن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الاجمالي بأن الواجب - سبحانه - في غاية العظمة والجلال

(١) التحريم ، الآية : ٨ .

(٢) الحديد ، الآية : ١٣ .

والقدرة والكمال ، وأنه تام فوق التمام ، وكل ما سواه من المهمات الموجودة صادرة عنه على أشرف أنحاء الصدور وأقواها وأدناها على العظمة ، وأنه لا موجود ولا شيء إلا الواجب وصفاته وأفعاله ، وأن ذاته الاقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الأذهان العالية ، ولا لمدرک من المدرک المتعالية ، عقلاً كان أو نفساً أو غيرهما ، لو أمکن أن يكون مدرکاً ، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتاً يمكن أن تكون فوقه أو مثله ، بل كلما تصور اجمالاً فهو فوقه ، وكذا صفاته الكمالية وافعاله ، وأن صفاته الكمالية : من عظمته ، وجلاله ، وقدرته ، وجماله ، وعلمه ، وحكمته ، وغير ذلك غير متناهية ، وليس لها حد وغاية ، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لا نهاية له كثرة وقوة وكالا ، وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة والجلال ما لا يطبق اشرف الموجودات واقواها لادراك أولها ، فمن عرف ذلك وتيقن به ، وعلم ان هذا العالم وما فيه لا نسبة له الى عالم الآخرة وما فيه ، وأن الطافه ومزاياه إلى عباده الذين عرفوا نسبتهم اليه ، وتيقنوا بأن لا شرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب اليه والوصول الى حبه وانسه ، فقد وصل الى أصل كل سعادة ونور وبهجة ، لاسيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الأخلاق واتصف بفضائلها . وقد ظهر مما ذكر : أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد الى الله - سبحانه - ، والعجب بمن انكر حقيقة الشوق الى الله - سبحانه - . لانكاره المحبة له - كما يأتي - ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار . ولا ريب في ثبوته - ايضاً - من الآيات والأخبار : قال الله - سبحانه - :

« فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ... » الى آخر الآية (١)

فإن الرجاء لا ينفك عن الشوق . وقال رسول الله ﷺ في دعائه :
 « اللهم إني أسألك الرضاء بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر
 إلى وجهك الكريم ، وشوقاً إلى لقائك ، وفي بعض الكتب السماوية :
 « طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم لأشد شوقاً ، وفي أخبار
 داود عليه السلام : « إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ، ونعمتها بجلالي ،
 وفيها أيضاً : « أنه تعالى أوحى إلى داود : يا داود ! إلى كم تذكر الجنة ولا تنسا إني
 الشوق إلى ؟ قال : يا رب ! من المشتاقون إليك ؟ قال : إن المشتاقين إلى
 الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم إلى
 خرقة ينظرون إلى ، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سماءي ، ثم ادعو
 بملائكتي ، فإذا اجتمعوا سجدوني ، فأقول : اني لم اجمعكم لتسجدوني ،
 وإنما كن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى ، وابهى بهم إياكم ، فإن
 قلوبهم لتضيء في سماءي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض ، يا داود !
 اني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، ونعمتها بنور وجهي ، فاتخذتهم
 لنفسي محذنين ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض ، وقطعت من
 قلوبهم طريقاً ينظرون به إلى ، يزدادون في كل يوم شوقاً ، و أوحى الله
 إليه أيضاً : « يا داود ! لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم
 وشوقى إلى ترك معاصيهم ، لما تواسوا شوقاً إلى ، وتقطعت أوصالهم عن محبتي ،
 وفي بعض الأخبار القدسية : « ان لي عبداً يحبونني واحبهم ، ويشتاقون إلى
 واشتاق إليهم ، ويذكرونني واذكرهم ، واول ما اعطيتهم ان اقدف من نوري
 في قلوبهم ، فيخبرون عنى كما اخبر عنهم ، ولو كانت السماوات والأرض وما
 فيهما في موازينهم لاستعد بها لهم ، واقبل بوجهي عليهم ، لا يعلم أحد ما
 أريد أن أعطيه ، وقال الصادق عليه السلام : « المشتاق لا يشتهي طعاماً ، ولا يلتذ

شرباً ، ولا يستطيب رقاداً ، ولا يأنس حميماً ، ولا يأوى داراً ، ولا يسكن
 عمراً ، ولا يلبس ثياباً ، ولا يقر قراراً ، ويعبد الله ليلاً ونهاراً ، ناجياً
 بأن يصل الى ما يشتهق اليه ، ويناجيه بلسان الشوق معبراً عما في سريره ،
 كما أخبر الله - تعالى - عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله : (وعلمت
 اليك رب لترضى) ، وفسر النبي ﷺ عن حاله : (أنه ما أكل ولا شرب
 ولا نام ، ولا اشتبه شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه اربعين يوماً شوقاً الى ربه) ،
 فاذا دخلت ميدان الشوق ، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا ، وودع
 جميع المألوفات ، واصرفه عن سوى مشوقك ، ولب بين حياتك وموتك :
 ليبيك اللهم لبيك ! أعظم الله أجرك ، ومثل المشتاق مثل الغريق ، ليس له همة
 إلا خلاصه ، وقد نسي كل شيء دونه ، (١) . وما ورد في الأدعية المعصومية
 من طلب الشوق أكثر من أن يحصى ، والظواهر الآتية المثبتة للحب والانس
 تثبت الشوق أيضاً .

وأما (الكراهة والبغض وضدهما - اعنى الحب -) فنقول : قد عرفت
 أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، والحب الذي
 هو ضددهما عبارة عن ميل الطبع الى الملائم الملد
 وتوضيح ذلك : أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وادراك ، وكذلك
 لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الانسان ما لا يعرفه ولم يدركه ، فالحب من
 خاصية الحى الدراك ، بعد حصول الادراك بالفعل .
 ثم لما كانت المدركات منقسمة الى ما يوافق طبع المدرك ويلتذ به ، والى
 ما يخالفه ويؤلمه ، والى ما لا يؤثر فيه بالذاد وايلام ، فالقسم الاول يكون
 مرغوباً عند المدرك ، ويسمى رغبة ، وميله اليه حباً ، والقسم الثانى يكون

(١) صححنا الحديث على مصباح المريفة : باب ٩٩ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

منفوراً عنده ، وتسمى نفرتة عنه كراهة وبغضاً ، والثالث لا يوصف بميل
وكراهة ، فلا يوصف بكونه محبوباً ، ولا مكروهاً . ثم اللذة لما كانت عبارة
عن ادراك الملائم الملد ونيله ، فالحب الذي هو الميل والرغبة اليه لا يخلو عن
لذة محققة أو خيالية ، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس
بادراك الملائم ونيله ، هذا فإنك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن
حبه شرعاً وعقلاً ، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحببه من الفضائل ،
وإن كان مما يذم حبه ، كان بالعكس من ذلك .

فصل

(تعلق الحب بجميع القوى)

الحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك ، فينقسمان بحسب انقسام
القوة المدركة ، التي هي الحواس الظاهرة ، والحواس الباطنة ، والقوة العاقلة .
فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ
عندها ، كالصور الجميلة المرئية ، والنغمات الموزونة ، والروائح الطيبة ،
والمطاعم النفيسة ، والملبوسات اللينة بالنظر الى الجنس الظاهرة . ومنه ما
يتعلق بالحواس الباطنة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ،
كالصور الملائمة الخيالية ، والمعاني الجزئية الملائمة بالنسبة الى المتخيله
والواهمة . ومنه ما يتعلق بالعاقلة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ
عندها ، كالمعاني الكلية ، والذوات المجردة . ولا ريب في أن العقلي من الحب
والذات أقوى الذات وابلغها ، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة
والعقل أقوى إدراكاً وأشد غوصاً ونفوذاً في حقائق الأشياء وبواطنها من
الحس ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة ،
فتسكون لذة العقل وحببه بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي جلت عن

ادراك الحواس اتم وابلغ، ولذا جعل رسول الله ﷺ الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا، حيث قال : « حجب إليّ من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ، فإن الإلتذاذ بالصلاة لذة عقلية ، كما أن الإلتذاذ بالطيب لذة شمّية ، وبالنساء نظرية ولمسية .

فإن قيل : حقيقة الانسان نفسه الناطقة ، ولها ثلاث قوى ، وهي : العاقلة ، والشهوية ، والغضبية ، وقوى اخرى هي : الحواس الظاهرة والحواس الباطنة ، وشأن العاقلة - كما ذكرت - ادراك المعاني الكلية ، والحقائق المجردة ، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمدوقات والملبوسات ، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعاني الجزئية ، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها ، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوى الغضب والشهوة ، من الغلبة والاستيلاء والوصول الى المناكح والمطاعم وضدهما ، فالحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة ، وهل الحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره ؟

قلنا : الحب والملتذ أولاً في كل من هذه المدركات هو المدرك ، وثانياً وبواسطة هو النفس ، إذ كل ادراك يتعلق بإحدى القوى ، ليصل بالآخرة الى النفس ، فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والألم ، إلا أن ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوى الشهوة والغضب لا بد أن يصل اليه أيضاً ، فيحصل لها اللذة أو الألم ، وبواسطة يصل الى النفس ، فالمدرك أولاً للغلبة أو العجز هو الوهم ، فيلتذ أو يتألم ، ثم يصل منه أثر الادراك والإلتذاذ والألم الى القوة الغضبية ، ويصل منها الأثر الى النفس فيلتذ أو يتألم ، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة ، فالإلتذاذ والتألم لها أولاً وبواسطة للقوة الشهوية ، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة

والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة ، وإن كانت معنى جنسياً شاملاً
لجميعها فالامر ظاهر . وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى .

فصل

(اقسام الحب بحسب مبادئه)

اعلم أن اسباب الحب ومبادئها لما كانت متعددة مختلفة فيتنقسم الحب
لاجلها على أقسام :

الأول - حب الانسان وجود نفسه وبقائه وكاله ، وهو أشد اقسام
الحب واقواها ، لأن المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ، ولا شيء أشد
ملاءمة لأحد من نفسه ، ولا هو بشيء أقوى معرفة منه بنفسه ، ولهذا جعلت
معرفة نفسه مفتاحاً لمعرفة ربه (١) ، وكيف لا يكون حب الشيء لذاته أقوى
المراتب ، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحجوب
أوكد وأبلغ ؟ وأي اتحاد أشد من الوحدة ورفع الاثنينية بالمرّة ، كما بين
الشيء ونفسه ، فالمحب والمحجوب واحد ، وسبب الحب غريزة في الطباع
بحكم سنة الله :

« وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » (٢)

ومعنى حبه لنفسه كونه محباً لدوام وجوده ، ومكرها لعدمه وهلاكه ،
فالبقاء ودوام الوجود محبوب ، والعدم ممقوت ، ولذا ينبغض كل أحد الموت ،
لا بمجرد ما يخافه بعده ، أو لمجرد ما يلزمه من سكراته ، بل لظنه أنه يوجب
انعدام كله أو بعضه ، ولذا لو اختطف من غير ألم وتعب ، وأميت من غير
ثواب وعقاب ، كان كارهاً لذلك ، وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك كمال

(١) كما قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

(٢) الاحزاب ، الآية : ٦٢ . الفتح ، الآية : ٢٣ .

الوجود محبوب ؛ لأن فاقده السكالم ناقص ، والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود ، فالوجود محبوب في اصل الذات وبقائه وفي صفات كماله ، والعدم محقوت فيها جميعاً .

والتحقيق : أن المحبوب ليس إلا الوجود ، والمبغوض ليس إلا العدم ، وجميع الصفات السكالية راجعة الى الوجود ، وجميع النقصات راجعة الى العدم ، إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود ، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات السكالية التي هي من مراتب الموجودات ، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة ، فاذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض اجزاء وجوده ، وبذلك يظهر : أن الموجود كلياً كان أقوى وكان نحو وجوده أتم ، كان اجمع لمراتب الوجودات في القوة والشدة والعدة ، وكانت صفاته السكالية اقوى واكثر ، لكونها من مراتب الوجودات ، فالوجود الواجب الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوي فيه جميع الوجودات ، ويكون محيطاً بالكل ، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع الى هذا القسم ؛ لأن الرجل إنما يحب ولده ويتحمل المشاق لأجله ، وأن لم يصل منه اليه نفع وحظ ؛ لعليه بانه خليفته في الوجود بعد عدمه ، فكان بقاءه نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يجب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه ، لما عجز من الطمع في بقاء نفسه ، ولعدم كون بقاءه هو بقاءه بعينه يكون بقاء نفسه أحب اليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقياً على اعتداله ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لسكالم نفسه . فانه يرى نفسه كبيراً قوياً بالأجلهم ، متجماً بسببهم ، إذا العشيرة كالجنح المكمل للانسان (١) .

(١) كما قال أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - في جملة ما أوصى به ولده الامام المجتبي - عليها الصلاة والسلام - : « واكرم عشيرتك ، فانهم جناحك الذي به تطير ، واصلك الذي اليه تصير ، وبذلك التي بها تصول » نهج البلاغة : ٣ / ٦٣ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

الثاني - حبه لغيره لأجل انه يلتذمنه لذة حيوانية. كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لأجل الجماع ، وحب الانسان الماء كولات والملبوسات ، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة ، وهو سريع الحصول وسريع الزوال ، واضعف المراتب ، لحساسية سببه وسرعة زواله .

الثالث - حبه للغير لأجل نفعه واحسانه ، فان الانسان عبد الاحسان ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، ولذا قال رسول الله ﷺ : « اللهم لا تجعل لفاجر علي يدأ فيحبه قلبي » . فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان ، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان الى القسم الاول ، لأن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود ، وسبب اللذة باعث للحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود .

والفرق أن الأعضاء ، والصحة ، والعلم ، والطعام ، والشراب ، والجماع : محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين السكامل ، وأما الطبيب الذي هو سبب الصحة ، والعالم الذي هو سبب العلم ، ومعطى الطعام والشراب ، والمرأة التي هي آلة الوقاع : محبوبة لاندواتها ، بل من حيث إنها وسائل الى ما هو محبوب لذاته ، فاذن يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة ، والكل يرجع إلى محبة الانسان نفسه ، فمن أحب المحسن لاحسانه فما أحب ذاته تحقيقاً ، بل أحب احسانه ، ولو زال احسانه زال حبه مع بقاء ذاته ، ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . وبالجملة : يتطرق الى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه .

الرابع - أن يحب الشيء لذاته ، لا لحظ يناله منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به ، وذلك

كحب الجمال والحسن ، فإن كل جمال محبوب عند مدركه ، وذلك لعين الجمال ؛ لأن ادراك الجمال عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا غيرها. ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة. فإن قضاء الشهوة لذة حيوانية ، قد يحب الانسان الصور الجميلة لأجلها ، وادراك نفس الجمال لذة اخرى روحانية يكون محبوباً لذاتها ، ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الأولى مذموم ، وبالجهة الثانية ممدوح ، والعشق الذي يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مذموماً إن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية ، ويكون ممدوحاً إن كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال ، ولأجل التباس السبب في هذا العشق اختلف العقلاء في مدحه وذمه ، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر ، مع أن الخضرة والماء الجارى محبوبان لالتوكل الخضرة ويشرب الماء ، أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ، وقد كان رسول الله ﷺ تعجبه الخضرة والماء الجارى والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والأطياف المليحة الألوان الحسنة النفس المناسبة الشكل ، حتى الانسان لتتفرج عنه الغموم بمجرد النظر اليها من دون قصد حظ آخر منها . وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول ، حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الانسان غيره لذاته ، ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته ، ولم يعملوا أن الحسن والجمال ليس مقصوراً على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة ، إذ يقال : هذا صوت حسن ، وهذا طعم حسن ، وهذا ريح طيب ، وليس شيء من هذه الصفات مدركة بالبصر ، وكذا ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الحواس ، لوجودهما في غيرها ، فإن أكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة ، إذ يقال : هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، ولا يدرك شيء من هذه

الصفات بالحواس، بل يدرك بالبصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع، والموصوف بها أيضاً محبوب عند من عرف صفاته .
 وبما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوباً : أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - مع أنهم لم يشاهدوهم، حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحب مذهبه حد العشق، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه أو متبوعه، مع أنه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاته الباطنة : من الورع، والتقوى، والتوكل، والرضا، وغزارة العلم، والاحاطة لمدارك الدين، وانتهاضه لافاضة علم الشرع، ونشره هذه الخيرات في العالم، وجملتها ترجع إلى العلم والقدرة، إذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الأمور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات، وهما - أعني العلم والقدرة - غير مدركين بالحواس، مع أنها محبوبان بالطبع. ومن الشواهد على المطلوب: أن الناس لما وصفوا (حاشاً) بالسخاء و(أنوشيروان) بالعدالة، أحبتهما القلوب حباً ضرورياً، من دون نظرهم إلى صورهما المحسوسة، ومن غير حظ ينالونه منهما، بل كل من حكي عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره واحسانه إليهم، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة، ونور العقل أغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية، كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يجب نقشاً على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يجب سيد الرسل عليهم السلام لجمال صورته الباطنة .

الخامس - محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية، أو مجانسة معنوية،

فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال ، ولا طمع في جاه ومال ، بل بمجرد تناسب الأرواح ، كما قال النبي ﷺ : « الأرواح جنود مجنودة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

السادس - محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والاجتماع في بعض المواضع ، لا سيما اذا كان من المواضع الغريبة ، كالسفن والاسفار البعيدة . والسبب فيه : كون افراد الانسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع ، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الانسان سمي انساناً ، فهو مشتق من الانس دون النسيان - كما ظن - ، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة ، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين أهل البلد ، أو بينهم وبين أهل القرى ، أو بين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة ، من جملة اسرار الأمر بالجمعة والجماعة ، وصلاة العيدين ، والحج الباعث لإجتتماع عموم الخلائق في موقف واحد .

السابع - محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر ، كميل الصبي الى الصبي لصباه ، والشيخ الى الشيخ لشيخوخته ، والتاجر إلى التاجر لتجارته ، وهكذا . . . فإن كل شخص مائل الى من يشاركه في وصفه وصنعتة وشغله وحرفته ، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة .

الثامن - حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس ، فإن المعلول لما كان مثالا من العلة ، ومترشحاً عنها ومنبجساً منها ، ومناسياً لها لكونه من سنخها ، فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التي كانت منظوية فيها ، والمعلول يحبها لأنها اصله وبمنزلة كله الذي كان محتويًا عليه ، فكان كلا منهما في حبه للآخر يجب نفسه .

ثم السبب إن كان علة حقيقية موجودة ، تسكون سببية أقوى في حصول المحبة والاتحاد مما إذا كان علة معدة . فأقوى اقسام المحبة ما يكون الواجب

- سبحانه - بالنسبة إلى عباده ، وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة إليه - سبحانه - ، فإن محبتهم له من حيث كونه موجوداً مخزجاً لهم من العدم الصرف إلى الوجود ، ومعطياً لهم ما احتاجوا إليه في النشأتين ، ومن حيث إنه - تعالى - تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية ، والنفس بذاتها مشتاقة إلى الكمال المطلق ، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها ، ولذا قال سيد الرسل ﷺ : « ما اتخذ الله ولياً جاهلاً قط ، . وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم ، من حيث إن الأب سبب ظاهر لوجود الابن ، وإن لم يكن سبباً حقيقياً ، بل علة معدة له ، فيجبه لأنه يراه بمنزلة نفسه ، ويظنه مثلاً من ذاته ، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته ، ويعد وجوده بعده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه ، فيظنه أنه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله ، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له ، ويفرح بترجيحه عليه ، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال : إنه في الآن أفضل من السابق ، وما يؤكد محبته له : أنه يرجو منه انجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته ، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب للابن ، بل هو أضعف ، لفقد بعض الأسباب الباعثة له ، ولذا أمر الأولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس ، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم ، لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للتعلم وافاضة الصورة الانسانية عليه ، كما أن الأب كالسبب لحياته الجسمانية ورتبته الصورية ، فهو والد روحاني له ، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب ، وعلى هذا ينبغي أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر من محبة الأب ، وقد ورد في الحديث : « أن آباءك ثلاثة : من ولدك ، ومن علمك ، ومن زوجك ، وخير الآباء من علمك ، . وسئل عن ذي القرنين : أن أباك أحب إليك أم معلمك ؟ قال : معلمي أحب إلي ، لأنه

سبب لحياتي الباقية ، وأبى سبب لحياتي القانية ، . وقال أمير المؤمنين عليه السلام :
 « من علمني حرفاً فقد صيرني عبداً ، . وعلى هذا ينبغي أن يكون حب النبي
صلى الله عليه وآله وأوصياؤه الراشدين - عليهم السلام - أوكد من جميع أقسام الحب بعد
 محبة الله - سبحانه - ، لأنه المعلم الحقيقي والمكمل الأول ، ولذا قال صلى الله عليه وآله :
 « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده ، .

التاسع - محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض ، كمحبة
 الاخوان والأقارب . وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أوكد ، ولذا تكون
 محبة الأخوين أشد من محبة أبناء الأعمام مثلاً ، ومن عرف الله وانتساب
 السبب إليه ، وبلغ مقام التوحيد ، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين
 الله وبين مخلوقاته ، يحب جميع الموجودات من حيث اشتراكه معها في الوجود
 الحقيقي . ثم قد يجتمع بعض أسباب المحبة أو أكثرها في شخص واحد ،
 فيتضاعف الحب ، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل
 العلم ، حسن التدبير ، محسن إلى والده وإلى الخلق ، كان حب والده له في غاية
 الشدة ، لاجتماع أكثر أسباب الحب فيه ، وربما أحب شخصاً آخر لوجود
 بعض أسباب الحب فيه من دون عكس ، لعدم تحقق سبب من أسباب الحب
 فيه ، وقد تختلف فيهما أسباب الحب ، فيحب كل منهما الآخر من جهة ، وتكون
 قوة الحب بقدر قوة السبب ، فكلما كان السبب أكثر وأقوى كان الحب
 أشد وأوكد .

فصل

(لا محبوب حقيقة إلا الله)

اعلم أنه لا مستحق للحب غير الله - سبحانه - ، ولا محبوب بالحقيقة عند
 ذوى البصائر إلا هو ، ولو كان غيره - تعالى - قابلاً للحب وموضِعاً له فإنما هو

من حيث نسبته اليه - تعالى - ، فمن أحب غيره - تعالى - لا من حيث نسبته اليه ، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله ، وكيف يكون غيره - سبحانه - من حيث هو ، لا من جهة انتسابه اليه ، مستحقاً للحب ، وهو في نفسه مع قطع النظر عنه - تعالى - وعن انتسابه اليه ليس إلا العدم ، والعدم كيف يصلح للحب ، فينبغي أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة ، أي من حيث إنها منه - تعالى - ، وآثاره ، ومعلولاته ، وأضواؤه وظلاله ، وللخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة اليه - تعالى - ، كالحب ، والانس ، والمعرفة ، والإطاعة للخصوص النسبة ايضاً .

وما يوضح المطلوب: أن جميع اسباب الحب مجتمعة في حق الله - تعالى - ، ولا توجد في غيره حقيقة ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له .

أما السبب الأول - اعني محبة النفس : فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له ، ولا وجود له من ذاته ، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف ، فوجوده ودوام وجوده وكال وجوده من الله وبالله والى الله ، فهو الموجد المخترع له ، وهو المبتقى له ، وهو المكمل لوجوده بايجاد صفات المكالم فيه ، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالايجاد ، وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالابقاء ، وناقص بعد بقاءه لولا فضله عليه بالتسكيل ، فليس في الوجود شيء له قوام بنفسه إلا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره . وحينئذ ، فمحبة كل شيء لنفسه ترجع الى محبة ربه ، وإن لم يشعر المحب به ، وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه ؟ مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الاشجار التي بها قوام الظل ، ومن أحب النور أحب لا محالة

الشمس التي بها قوام النور ، وكل ما في الوجود بالاضافة الى قدرة الله - تعالى - كالظل بالاضافة الى الشجر والنور بالاضافة الى الشمس ، إذ السكل من آثار قدرته ، ووجوده تابع لوجوده ، كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص ، ووجود النور تابع لوجود الشمس ، بل هذا المثال إنما هو للتفهيم ، وبالاضافة الى أوهم العوام . حيث يتوهمون أن الظل والنور تابعان للشاخص والشمس وفايضان عنهما ، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما ، بل هما فايضان من الله - تعالى - ، موجودان به بعد حصول الشرائط ، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتها وسائر صفاتها منه - تعالى - .

وأما السبب الثاني ، والثالث - اعني الإلتذاذ والاحسان ، سواء كان متعدياً الى المحب أم لا : فمعلوم أنه لا لذة ولا إحسان إلا من الله - تعالى - ، ولا محسن سوى الله ، فإنه خالق الاحسان وذويه ، وفاعل اسبابه ودواعيه ، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله ، وقطرة من بحار كماله وافضاله .

وأما الرابع - اعني الحسن والجمال والكمال : فلا ريب في أنه - تعالى - هو الجميل بذاته والكمال بذاته ، وهو الجمال الخالص ، والكمال المطلق ، وحقيقتهم منحصرة به - تعالى - ، وما يوجد في غيره - تعالى - من الجمال والكمال لا يخلو عن شوائب الخلل والنقصان ، إذ النقص شامل لجميع الممكنات ، وإنما تتفاوت في درجات النقص . وقد عرفت أن الجمال المعنوي اقوى من الجمال الصوري ، ومن كان من أهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوي أكثر واقوى من حبه للجمال الصوري ، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود ، وكمال العلم والقدرة ، والاستيلاء على السكل ، واستناد الجميع اليه ، منحصر بالله - تعالى - ، فإذا كان الجمال

المشوب بالنقص محبوباً ، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوباً ، بل المحبوب حقيقة ليس إلا هو .
 باده خاك ألودتان مجنون كند صاف اگرباشدند نام چون كند (١)
 على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصوري ، أو بالجمال الباطن المعنوي ،
 رشحة من رشحات جماله ، وكل كامل فكماله فرع كماله ، فكل من احب جميلا
 أحب خالقه ، وما احب احداً غير الله - تعالى - ، لكنه احتجب عنه تحت
 وجوه الاحباب واستار الاسباب ، هذا مع أن عمدة جمال المخلوقين إنما هو
 علمهم بالله وبصفاته وافعاله ، وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بازالة الرذائل
 والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب الى الله - تعالى - ، وباتصافهم بمعالى
 الصفات وشرائعها المقربة الى الله ، وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة ،
 ومعلوم أن هذه الأمور اضافات الى الله - سبحانه - ، فحبها يرجع الى
 حبه - تعالى - .

وأما الخامس - أعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية : فلا ريب في
 أن للنفس الناطقة الانسانية مناسبة مجهولة خفية مع بارئها وموجدتها ، إذ هي
 شعلة من شمعات جلاله ، وبارقة من بوارق جماله ، ولذا قال الله - سبحانه - :
 « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » (٢) . وقال : « إِنِّي
 جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » (٣) .

إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة ، وبهذه المناسبة ينقطع
 العبد الى ربه ، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبليّة ، وهذه المناسبة لا تظهر

(١) إن خرّم اللوث بالقبار يجنّ !!

فلست أدري ما هو مفعوله إن كان صافياً !!؟

(٢) بني اسرائيل ، الآية : ٨٥ .

(٣) البقرة ، الآية : ٣٠ .

ظهوراً تاماً إلا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض ، كما قال الله - تعالى - : « لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به . » وهذا موضع تزل فيه الاقدام ، حتى وقع قوم فى التشبيه الظاهر ، وآخرون فى الحلول والاتحاد ، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد ، وفساد طر فى التفريط والافراط ، واتضح لهم حقيقة السر ، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها : هم الاقلون . ثم من المناسبة الظاهرة التى بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله فى الصفات الربوبية والاخلاق الإلهية : كالعلم ، والبر ، والاحسان ، واللطف ، وافاضة الخير والرحمة على الخلق ، وارشادهم الى الحق . . . إلى غير ذلك من الصفات الإلهية ، ولذا قيل : تخلقوا باخلاق الله . ولا ريب فى أن كل ذلك يقرب العبد الى الله ، ويصيره مناسباً له . وأما العلية والمعلولية فالأمر فيه ظاهر ، وباقى الأسباب أسباب ضعيفة نادرة ، اعتبارها فى حق الله نقص .

وقد ظهر مما ذكر : أن أسباب الحب بجملتها متظاهرة فى حق الله - تعالى - تحقيقاً لا مجازاً ، وفى أعلى الدرجات لا أدناها ، ثم كل من يجب أحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يجب غيره لمشاركته اياه فى السبب . والشركة نقصان فى الحب ، لا يتصف احد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له فيه ، والله - سبحانه - هو الذى لا يشاركه غيره فى اوصاف السكال والجمال ، لا وجوداً ولا امكاناً ؛ فلا جرم لا يكون فى حبه شركة ، فلا يتطرق اليه نقصان ، كما لا تتطرق الشركة والنقصان الى اوصاف كماله ، فهو المستحق لأصل المحبة وكاملها ، ولا متعلق للمحبة إلا هو ، إلا أنه لا يعرف ذلك إلا العارفون من أوليائه وأحبيائه ، كما قال سيد الشهداء عليه السلام

في دعاء عرفة بقوله : « وأنت الذي ازلت الاغيار عن قلوب أحبائك ، حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا الى غيرك ، .

تكميل

(الشهود التام هو نهاية درجات العشق)

قد صرح اساطين الحكمة : (أن الاشياء المختلفة لا يمكن أن يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينها الاتحاد والمحبة ، وأما الاشياء المتماثلة المتشاكاة فيشتاق بعضها إلى بعض ويسر بعضها ببعض ، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد) .

والتوضيح : أن الجواهر البسيطة لتشاكلها وتمائلها يحن بعضها الى بعض فيحصل بينها التآلف التام ، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق ، بحيث يرتفع عنها التغاير والاختلاف ، إذ التغاير من لوازم المادية . وأما الماديات فلا يمكن أن يحصل بينها هذا التآلف والتوحد ، ولو حصل بينهما تآلف وشوق ، فإنما هو بتلاقى السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات ، وليس يمكن أن يبلغ مثل هذه الملاقاة الى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال . فالجوهر البسيط المودع في الانسان - أعنى النفس الناطقة - اذا صفي عن الكدورات الطبيعية ، وتطهر عن الأخباث الجسمانية ، وتخلي عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية ، انجذب بحكم المناسبة الى عالم القدس ، وحدث فيه شوق تام الى اشباهه من الجواهر المجردة ، ويرتفع منها الى ما هو فوق السكل ومنبع جميع الخيرات ، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي ، ومطالعة جمال الخير المحض ، وينمحي في انوار تجلياته القاهرة ، ويصل الى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات ، فيفيض عليه من انواره ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على خاطر ، فيحصل له من البهجة واللذة

ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة ، والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيراً في حالتها التعلق بالبدن والتجرد عنه ، إذ استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق ، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة :

امروز در آن كوش كه بينا باشي
حيران جمال آن دلارا باشي
شربت بادا چو كودكان در شب عيد
تا چند در انتظار فردا باشي؟ (١)

نعم ، الشهود التام ، والابتهاج الصافي عن الشوب ، يتوقف على تجردها الكلي عن البدن، فانها وإن لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة ، إلا أن ملاحظتها لا تخلو عن شوائب الكدرة الناشئة من الطبيعة ، فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلي ، ولذا تشتاق أبدأ الى رفع هذا الحجاب ، ويقول :

حجاب چهره جان ميشود غبار تنم
خوشا دي كه از اين چهره پرده برفكنم
چنين قفس نه سراي چومن خوش الحاني است
روم بروضة رضوان كه مرغ آن چمنم (٢)

(١) اسم سعيك اليوم لتكون على بصيرة

ولتكون مثلها لجمال ذلك الحبيب الفتان !

أما تستحي انك على غرار الأطفال في ليلة العيد !!؟

الى متى تنتظر اليوم الند !!؟

(٢) ان غبار الجسد يكون حجاباً لروحي ونقاباً !

فأ أحلى اللحظة التي أطرح فيها عن وجهي هذا الستار !!

ان هكذا نقصاً لا يليق لدى تفريد بهيج مثلي !!

سأذهب الى (روضة الرضوان) . . . فاني من طيور ذلك المرج والبستان !!

وهذه المحبة نهاية درجات العشق ، وغاية السكال المتصورة لنوع الانسان ، وذروة مقامات الواصلين ، وغاية مراتب السكاملين ، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها ، كالانس والرضا والتوحيد ، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالصبر والزهد وسائر المقامات . وهذا العشق هو الذى افراط العرفاء وأرباب الذوق فى مدحه ، وبالغوا فى الثناء عليه نثراً ونظماً ، وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والسكال المطلق ، ولا كمال إلا هو ، ولا سعادة إلا به ، كما قيل :

عشق است هر چه هست بگفتيم وگفته اند

عشقت بوصل دوست رساند بضر دست (١)

وقيل :

جز محبت هر چه بر دم سود در محشر نداشت

دين ودانش عرض كردم كس بچيزي بر نداشت (٢)

فصل

(سريان الحب فى الموجودات)

اكثر اقسام المحبة فطرية طبيعية ، كمحبة المتناسبين والمتجانسين ، والعلّة والمعلول ، ومحبة الجمال وغير ذلك ، والارادى السكسبى منها قليل ، كمحبة المتعلم للعلم ، وربما أمكن ارجاعه ايضاً الى الطبيعى . واذا كان الحب طبيعياً ، فالاتحاد الذى من مقتضياته يكون ايضاً طبيعياً ، فيكون لذلك افضل من العدالة التى تقتضى

(١) كل ما يكون هو العشق - كما قالوا وقلنا - . . .

فمشقك يوصلك الى الحبيب بالجهد والشاطرة !!

(٢) سوى الحب لم يفد فى المحشر مما محبته !!

عرضت الدين والعلم . فلم يعرهما احد اهتماماً !!!

الاتحاد الصناعي . ثم مع وجود المحبة لاجابة الى العدالة ، إذ هي فرع الكثرة المحوجة الى الاتحاد القشري ، فمع وجود الاتحاد الطبيعي لا يقع الاحتياج اليه ، وقد صرح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وانتظامها بالمحبة ، والمحبة الفطرية ثابتة بينها ، وليس شيء من الموجودات خالياً عنها ، كما أنه ليس شيء منها خالياً عن الوجود والوحدة ، وقد صرحوا بأنه كل الوحدة ، فهو سار في جميع الكائنات : من الافلاك والعناصر والمركبات ، إذ الحب والشوق الى التشبه بالفاعل رقص الافلاك ، وادار رحاها ، (بسم الله مجراها ومرساها) ، والحب هو سبب ميل العناصر الى اجسادها الطبيعية ، وميل المركبات بعضها الى بعض :

سر حب ازلي بر همه اشيا سار يست ورنه بر گل نردی بلبل بيدل فرياد (١)
 ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال ، وضدها موجباً للفساد والاختلال ، واسكل منها مراتب ودرجات ، فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان . والمتأخرون خصصوا الحب بنوى العقول ، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر الى مراكزها ، وميل المركبات بعضها الى بعض ، كميل الحديد الى المغناطيس ، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها كمنافرة الحجر الباغض الحل من الحل ، بل يسمونها بالميل والحرب ، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العجم من الحيوانات ، لا يطلقون عليها اسم الحب والبغض ، بل يسمونها بالألف والنفرة .

(١) ان (سر الحب الازلي) لسار في جميع الموجودات !

وللم تفرد البلايل على الازهار والاوراد !!

فصل

(رد المنكرين لحب الله)

قد ظهر مما ذكر : ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والانس لله - تعالى - ، وأنه المستحق للحب دون غيره ، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكروا إمكان حصول محبة العبد لله - تعالى - وقال : (لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله ، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثل) .

ولما أنكروا المحبة ، أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ويدل على فساد هذا القول - مضافاً الى ما ذكر - اجماع الامة على كون الحب لله ولرسوله فرضاً ، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه ، واتصاف الأنبياء والأولياء به ، وحكايات المحبين ، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حدّاً لا يقبل الكذب والتأويل ، فمن شواهد القرآن قوله - تعالى - :

« يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » (١) . وقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » (٢) . وقوله - تعالى - : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ الى قوله - : « أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . . » الى آخر الآية (٣) .

وأما الأخبار الواردة والآثار ، فقد قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن

(١) لائحة ، الآية : ٥٧ .

(٣) التوبة ، الآية : ٢٥ .

(٢) البقرة ، الآية : ١٦٥ .

أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وقال ﷺ : « الحب من شروط الايمان » . وقال ﷺ : « احبوا الله لما يغدوكم به من نعمة ، واحبوني لحب الله » . وقد نظر ﷺ إلى بعض اصحابه مقبلاً وعليه إهاب كبش ، فقال ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون » . وقال ﷺ في دعائه : « اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقربني الى حبك ، واجعل حبك احب إليّ من الماء البارد » . وفي الخبر المشهور : « أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت ، إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله - تعالى - اليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت ! الآن فاقبض » . وأوحى الله الى موسى عليه السلام : « يا ابن عمران ! كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ، ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على احبائي ، إذا جنهم الليل حولت ابصارهم الى من قلوبهم ، ومثلت عقوبتي بين اعينهم ، يخاطبوني عن المشاهدة ، ويكلموني عن الحضور ، يا ابن عمران ! هب لي من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع في ظلم الليل ، فإنك تجدني قريباً » . وروى : « أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت ابدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى ، فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الشوق الى الجنة ، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى ، فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً ، كأن على وجوههم المرايا من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : حب

الله - عز وجل - ، فقال : اتمم المقربون ، . وفي بعض الروايات : « أنه ﷺ قال للطائفتين الاوليين: مخلوقاً خفتم ، ومخلوقاً رجوتم . وقال للطائفة الثالثة: أنتم اولياء الله حقاً ، معكم أمرت ان اقيم . » وقال رسول الله ﷺ : « إن شعيباً ﷺ بكى من حب الله - عز وجل - حتى عمى ، فردّ الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمى ، فردّ الله عليه بصره ، فلما كانت الرابعة أوحى الله اليه : يا شعيب ا الى متى يكون هذا أبداً منك ، إن يكن هذا خوفاً من النار فقد اجرتك ، وإن يكن شوقاً الى الجنة فقد اجتكت . فقال : إلهي وسيدي ! أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك ، ولا شوقاً الى جنتك ، ولكن عقد حبك على قلبي ، فلست أصبر أو أراك . فأوحى الله : أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليتي موسى بن عمران ، . وروى : « أنه جاء اعرابي الى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! متى الساعة ؟ فقال ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال له النبي : المرء مع من احب ، . وفي أخبار داود : « قل لعبادي المتوجهين الى محبتي : ما ضرکم إذا احتجبتهم عن خلقي إذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم ، وما ضرکم ما زويت عنكم من الدنيا إذ بسطت ديني لكم ، وما ضرکم مسخطة الخلق إذ التستم رضاي ، . وفيها ايضاً : « يا داود ! إنك تزعم انك تحبني ، فإن كنت تحبني فاخرج حب الدنيا عن قلبك ، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب ، . وقال أمير المؤمنين ﷺ في دعاء كميل : « فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربى صبرت على عذابك ، فكيف اصبر على فراقك . » وقال ﷺ : « إن لله - تعالى - شراباً لا اوليائه ، إذا شربوا سكروا ، وإذا سكروا طربوا ، وإذا طربوا طابوا ، وإذا طابوا ذابوا ، وإذا ذابوا خلصوا ، وإذا خلصوا طلبوا ، وإذا طلبوا وجدوا ، وإذا وجدوا وصلوا ، وإذا وصلوا

اتصلوا ، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبتهم ، (١) . وقال سيد الشهداء
 في دعاء عرفة : « أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب احبائك حتى لم يحبوا
 سواك ولم يلجأوا الى غيرك » . وقال عليه السلام : « يا من أذاق احبائه حلاوة
 المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين » . وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى سيد
 الساجدين عليه السلام : « وعزتك ! لقد أحبتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها ،
 وانست نفسي ببشارتها ، ومحال في عدل أفضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن
 معتقدي محبتك » . وفي مناجاته الأخرى : « إلهي فاجعلنا من الذين توشحت
 اشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع
 قلوبهم » ثم قال : « والحقنا بعبادك الذين هم بالبدار اليك يسارعون ،
 وبابك على الدوام يطرقون ، واياك في الليل والنهار يعبدون ، وهم من هيبتك
 مشفقون ، الذين صفيت لهم المشارب ، وبلغتهم الرغائب ، وانجحت لهم
 المطالب ، وقضيت لهم من وصلك المآرب ، وملأت لهم ضمائرهم من حبك ،
 ورويتهم صافي شرابك ، فبك إلى لذيت مناجاتك وصلوا ، ومنك على أقصى
 مقاصدهم حصلوا » ثم قال : « فقد انقطعت اليك همتي ، وانصرفت
 نحوك رغبتى ، فأنت لا غيرك مرادى ، ولك لا سواك سهري وسهادى ،
 ولقاؤك قرّة عيني ، ووصلك منى نفسي ، واليك شوقى ، وفي محبتك ولهى ،
 والى هواك صبايتى ، ورضاك بغيتى ، ورؤيتك حاجتى ، وجوارك طلبى ،
 وقربك غاية مسألتى ، وفي مناجاتك روحى وراحتى ، وعندك دواء علتى ،
 وشفاء غلتى ، وبردلوعتى ، وكشف كربتى » ثم قال : « ولا تقطعنى
 عنك ، ولا تباعدنى منك ، يا نعيمى وجنتى ! ويا دنياى وآخرتى ! » .
 وقال عليه السلام أيضاً : « إلهي ! من ذا الذى ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ،

(١) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب اصحابنا الامامية - رضوان الله عليهم - .

ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا ، إلهي ! فاجعلني من اصطفيتيه
لقربك وولايتك ، وأخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته الى لقائك ،
ورضيته بقضائك ، ومنحته بالنظر إلى وجهك ، وحبوته برضاك ، وأعدته
من هجرك ، . . . ثم قال : « وهيمت قلبه لا رادتك ، واجتبيته لمشاهدتك ،
وأخليت وجهه لك ، وفرغت فؤاده لحبك ، . . . ثم قال : « اللهم اجعلنا
من دأبهم الارتياح اليك والحنين ، ودهرم الزفرة والآنين ، وجباهم
ساجدة لعظمتك ، وعيونهم ساهرة في خدمتك ، ودموعهم سائلة من
خشيتك ، وقلوبهم معلقة بمحبتك ، وافئدتهم منخلمة من مهابتك ، يا من أنوار
قدسه لأبصار محبيه رائقة ، وسبحات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة ! يا مني
قلوب المشتاقين ، ويا غاية آمال المحبين ! أسألك حبك وحب من يحبك وحب
كل عمل يوصل الى قربك ، وأن تجعلك أحب إلي من سواك » . وقال عليه السلام
ايضاً : « إلهي ! ما ألد خواطر الإلهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى
المضير اليك في مسالك الغيوب ، وما أطيب طعم حبك ، وما أعذب شرب
قربك ، وقال عليه السلام ايضاً : « وغلتي لا يبردها إلا وصلك ، ولوعتي لا يظفيها إلا
لقاؤك ، وشوقى اليك لا يبيله إلا النظر الى وجهك ، وقرارى لا يقر دون
دنوى منك ، ولهفتى لا يردها إلا روحك ، وسقمى لا يشفيه إلا طبك ،
وغمى لا يزيله إلا قربك ، وجرحى لا يبرؤه إلا صفحك ، ودين قلبى
لا يجلوه إلا عفوك ، ووسواس صدرى لا يزيجه إلا أمرك » . (١) . وقال
الصادق عليه السلام : « حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل وكل
ذكر سوى الله ، والمحب أخلص الناس سرأ الله ، وأصدقهم قولاً ، وأوفاهم

(١) صححنا فقرات المناجاة الانجيلية والمناجاة الأخرى على (البعار) : باب ادعية

المناجاة : مج ١٩ / ١٠٧ - ١١٤ ، ط امين الضرب

عهداً ، وأزكاهم عملاً ، وأصفاهم ذكراً ، وأعبدهم نفساً ، تنبأهم الملائكة عند مناجاته ، وتفتخر برويته ، وبه يعمر الله بلاده ، وبكرامته يكرم الله عباده ، ويعطيهم إذا سألوه بحقه ، ويدفع عنهم البلايا برحمته ، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومزلاته لديه ما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « حب الله نار لا يمر على شيء إلا احترق ، ونور الله لا يطلع على شيء إلا اضاء ، وسماؤه الله ما ظهر من تحتها شيء إلا غطاها ، وريح الله ما تهب في شيء إلا حرسته ، وماء الله يحيي به كل شيء ، وارض الله ينبت منها كل شيء ، فمن أحب الله أعطاه كل شيء من الملك والمملك ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إذا أحب الله عبداً من امتي قذف في قلوب اصفياته وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحيوه ، فذلك المحب حقاً ، طوبى له ثم طوبى له أوله عند الله شفاعة يوم القيامة ، (١) ، إلى هنا كلام الصادق - عليه السلام - . وما ورد في الحب من الأخبار والأدعية المعصومية أكثر من أن يحصى ، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر جداً يمكن إنكاره ، وقد روى : « أن داود - عليه السلام - سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته ، فقال له : أنت جبل لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفساً ، فيهم شيان وكهول ومشايخ ، وإذا أتيتهم فاقرأهم مني السلام ، وقل لهم : يقول ربكم : ألا تسألوني حاجة ، فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي ، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم . فاتاهم داود ، فوجدهم عند عين من العيون ، يتفكرون في عظمة الله وملكوته ، فلما نظروا إلى داود ، نهضوا ليترقبوا عنه ، فقال لهم داود : أنا رسول الله إليكم ، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم .

(١) صحهنا الاحاديث الثلاثة على (مصباح المبرية) - الباب السابع والتمسون ،

فأقبلوا نحوه ، والقوا أسماعهم نحو قوله ، والقوا أبصارهم الى الأرض ، فقال داود : ربكم يقرؤكم السلام ، ويقول لكم : ألا تسألونى حاجة ، ألا تنادونى فاسمع صوتكم وكلامكم ؟ فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى ، أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم ، وانظر اليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة . ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم ، وسبح الله كل واحد منهم ومجده ، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق .

فصل

(معرفة الله اقوى سائر اللذات)

قد عرفت أن الحب هو الميل الى الشيء الملائم المدرك والابتهاج بادراك الملائم ونيله ، واللذة هى نفس ادراك الملائم الملائم ونيله ، وهذا الادراك إن كان متعلقاً بالقوة العاقلة - أى ان كان المدرك هو القوة العاقلة - عبر عنه بالعلم والمعرفة ، وقد عرفت أنه اقوى واشد واشرف من الادراكات الحسية ، التى هى الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس . ثم هذا الادراك - أعنى العلم والمعرفة - يختلف أيضاً فى الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك ، أى المعلوم ؛ فكلما كان المدرك أجمل وأشرف كان الادراك - أى المعرفة به - أجمل وأعلى . ولا ريب فى أن الواجب - سبحانه - أشرف الموجودات وأجلها ، فالمعرفة به اعلى المعارف واشرفها ، ويثبت من ذلك : أن أجل اللذات واعلاها هو معرفة الله - تعالى - والنظر الى وجهه الكريم ، ولا يتصور أن يؤثر عليها لذة اخرى إلا من حرم هذه اللذة . وبيان ذلك بوجه أوضح : أن اللذات تابعة للادراكات ، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها عبارة عن نيلها مقتضى طبيعتها الذى خلقت له ، فغريزة الغضب لما خلقت

للثبني والانتقام ، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام ، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام ، فلا جرم لذتها في نيل الغذاء ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والإبصار والاستنشام ، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنة خلقت لتعلم بها حقائق الأشياء كلها ، فلذتها في العلم والمعرفة ، والعلم لكونه منتهى الكمال وأخص صفات الربوبية ، يكون أقوى اللذات والابتهاجات ، ولذلك يرتاح الطبع اذا أتى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه ، فيعجب بنفسه ، وبلتذ به .

والتحقيق : أن الإدراك والنيل الذي هو الكمال ليس إلا العلم ، وسائر الإدراكات - اعني نيل الغلبة والغذاء والاسماع والإبصار والاستنشام - لا تعد كالات ، ثم ليست لذة كل حلو واحدة ، فإن لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته وملكوته السماوات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ما هو الأشرف الأجل والأعظم والأكمل ، فالعلم به ألد العلوم وأشرفها وأكملها وأطيبها ، وليت شعري هل في الوجود شيء أعلى وأجمل وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها وقيومها ، ومكملها ومربيها ، ومبدئها ومعيدتها ، ومديرها ومرتبها ، وهل يتصور أن يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء اعظم من ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام ، وقدرته وعظمته وملكوته وعلمه غير متناهية ، فان كنت لا تشك في ذلك ، فينبغي ألا تشك في أن لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة

المعرفة ، فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً ، كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع ، ولذة المعرفة ولذة الرئاسة ، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المعتدل (١) من الجماع ، ولذة القاتر الشهوة منه ، ومخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل ولذة النظر الى الوجه الأجل ، ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات ، وإنما يعرف أقوى اللذتين من اضعفهما ، بأن يؤثر عليه ، فان المخير بين النظر الى صورة جميلة وبين استنشاق روائح طيبة ، اذا اختار الأول كان عنده ألد من الثاني ، والمخير بين الأكل واللعب بالشطرنج ، اذا اختار الثاني كانت لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل ، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات .

وحينئذ نقول : لا ريب في أن المعاني واللذات الباطنة أغلب على ذوى النكاح من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة اكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء ، فان كان على الهمة كامل العقل ، اختار الرئاسة وترك الأكل ، وضرب على الجوع أياماً كثيرة فصلاً عن مدة قليلة ، نعم ، إن كان خسيس الهمة ميت القلب ، نافس العقل والبصيرة ، كالصبي والمعتوه ، ربما اختار لذة الأكل ، وفعل مثله ليس حجة . ثم كما أرت لذة الرئاسة والكرامة أغلب وارجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبي والسفاهة ، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية الذ عنده من لذة الرئاسة ، بشرط أن يكون ممن ذاق اللذتين وأدركهما ، فلو كان ممن لم يذوق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلاً للترجيح ومحلاً للكلام ، لا اختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبها وذاقها ، ولا يمكن اثبات ذلك عند من ليس له

(١) النملة - وزان غرفة - : شدة الشهوة . وغلم غلماً : من باب تمب ، اذا اشتد

شبقه . المعتدل : المتعاد للشهوة .

قلب ، كما لا تثبت لذة الابصار عند الأعمى ، ولذة الاستماع عند الأصم ،
ولذة الوقاع عند العينين ، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه ، وليت شعري
من لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمر بلذة النظر الى وجه الله - تعالى - ،
وليس له شبه وشكل وصورة ، حقيقة الحال كما قيل : (من ذاق عرف) ،
فن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعاً ، ويستحقق أهلها لكونها مشوبة
بالمكدرات ومقطوعة بالموت ، ويختار لذة المعرفة بالله ، ومطالعة صفاته
وافعاله ، ونظام مملكته من أعلى عليين الى أسفل السافلين ، فإنها خالية
عن الانقطاع والمكدرات ، متسعة للتواردين عليها ، لا تضيق بكثرتهم
دائماً ، وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل أعظم من السماوات والأرض ،
ومن حيث الواقع ونفس الأمر فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها
ومشاهدتها في جنة غير متناهية الأطراف والاقطار ، يرتع في رياضها ،
ويكرع (١) في حياضها ، ويقطع من أثمارها ، وهو آمن من انقطاعها ،
إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل هي ابدية سرمدية لا يقطعها الموت ،
إذ الموت لا يهدم النفس الناطقة التي هي محل المعرفة ، وإنما يقطع شواغلها
وعوائقها ويخليها من جنسها ، فاذن جميع أقطار ملكوت السماوات
والأرض ، بل اقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية ، ميدان للعارفين ،
يتبوؤن منها حيث يشاؤون ، من غير حاجة الى حركة اجسامهم ، ومن غير
أن يضيق بعضهم على بعض اصلاً ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة ميادينهم
بحسب تفاوتهم في اتساع الأنظار وسعة المعارف :

« وَإِكْلٍ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » (٢)

(١) كرع - من باب نفع - : هو الضرب بفيه من موضعه .

(٢) الانعام ، الآية : ١٣٢ ، الاحقاف ، الآية : ١٩ .

ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته ، وصار قلبه مستغرقاً بنعيمها ، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها ، وكان في الدنيا والآخرة مشغولاً بربه ، فلو القى في النار لم يحسّ به لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه ليكامل نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية ، ولعل سيد الرسل ﷺ عبر عن هذه اللذة - أي لذة مطالعة جمال الربوبية - حيث قال حاكياً عن الله - سبحانه - : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، وهذه اللذة هي المرادة من قوله - تعالى - :

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (١)

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ، ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول الى كنهها ، ما لم يحصل التجرد الكلي وخلع البدن العنصرى ، ولذلك قال بعضهم : إني أقول : « يا رب يا الله ! فأجد ذلك اثقل على قلبي من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليساً ينادى جليسه ، ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة ، عرف أن اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة ، كما قيل :

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذراتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذصرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنياى

فصل

(تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه)

اعلم أن معرفة الله اذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما - كما اشير اليه - . إلا أنه اذا اكتسب أصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة انكشافاً وجلاءً بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية ، الى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب ، فالاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من المشاهدة واللقاء إنما هو بزيادة الانكشاف والجلاء .

مثال ذلك : ان من رأى انساناً ، ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر اليها ، ولكن اذا فتح العين وأبصر ، ادرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها ، ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين ، لا تحادهما ، بل الافتراق إنما هو بمزيد الكشف والوضوح ، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافاً ، فاداً الخيال أول الادراك ، والرؤية استكمال لادراك الخيال ، وهي غاية الكشف ، لا لأنها في العين ، بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المتجلى في الصدر أو الجهة أو أى عضو فرض ، استحق أن يسمى رؤية . واذا فهمت هذا في المتخيلات - أى المدركات التى تدخل في الخيال من الصور والأجسام - فقس عليه الحال في المعلومات - أى ما يدرك بالعقل - ، ولا يدخل في الخيال كذات البارى ، وكل ما ليس بجسم ، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، فإن لمعرفتها وادراكها أيضاً درجتين : احدهما : أولى ، والثانية : استكمال لها ، ويدينهما من التفاروت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئى ، فتسمى الثانية بالاضافة الى الأولى لقاء ومشاهدة ورؤية ، وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت

رؤية لأنها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات ، فكذلك سنته أن النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته ، لم يحصل لها تمام الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال ، فاذا ارتفع بالموت حجاب البدن ، وخلصت النفس ، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا ، بل كانت ملوثة بها ، إلا أن النفوس مختلفة في ذلك : فمنها : ما تراكم عليه الخبث والصدى ، فصار كالمراة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الاصلاح والتصقييل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك . ومنها : ما لم ينته الى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقييل ، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب ، إذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع ، وبين التزكية التامة والتجرد الكلي الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات ، وهذه النفوس المتلوثه على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج الى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلى الحق فيها ، وتطهيرها إنما هو بنوع عقوبة من العقوبات الآخروية ، وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات ، أولها سكرة الموت ، وآخرها الدخول في النار ، وما بينهما عقوبات البرزخ واهوال القيامة بانواعها ، فكل نفس لا بد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدورتها : فمنها : ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزاع ، ومنها : ما يتطهر بها ، وينقص عقوبات البرزخ ، ومنها : ما لا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة ، ومنها ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضاً يجمع منها الخبث الذي تدنست به ، فربما كان ذلك لحظة حقيقة ، وربما كان سبعة آلاف سنة - كما وردت به الاخبار - وربما كان اقل

أو أكثر ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله - سبحانه - ، والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلدين في النار .

ثم النفوس القابلة للتطهير اذا اكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله ، استعدت حينئذ لصفائها ونقاؤها عن السكذورات لأن تتجلى فيها جليلة الحق ، فتتجلى فيها تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة الى ما علمته وعرفته كأنكشاف تجلي المرثيات بالإضافة الى المتخيلات ، وهذه المشاهدة والتجلى تسمى رؤية ، لأنه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر ، بل هو فوقه بمراتب شتى ، إذ الرأى في الأول العقل ، وفي الثانی البصر ، وشتان ما بينهما ، فإن الاختلاف في مراتب الإدراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك ، وأى نسبة لنورية البصر الى نورية العقل واشراقه ، وما للعقل من النفوذ في حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر .

وقد ظهر مما ذكر : أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة إلا العارفون في الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعاً ، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل ، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع ، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى ، إذ لا يستأنف لاحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، فلا يحصد المرء إلا ما زرع ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه . ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، يكون التجلى أيضاً على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلى بالإضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة الى اختلاف البذور ، إذ يختلف لا محالة : بكثرتها ، وقتها ،

وجودتها ، ورداءتها ، وضعفها . ثم كلما كان التجلي والمشاهدة أقوى ، كان ما يترتب عليه من حب الله والانس به أشد وأقوى ، وكلما كان الحب والانس أزيد ، كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى ، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تؤثر عليها لذة اخرى من نعيم الجنة ، بل ربما بلغت حداً تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته ، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله ، وحب الله بقدر معرفته ، فاصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه بـ (الايان) .

فإن قيل : اللقاء والمشاهدة إن كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحقق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة ، لمكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة ، وإن كانت أضعاف لذة المعرفة ، إذ هي في الدنيا ضعيفة ، فتضاعفها الى أي حد فرض لا ينتهي في القوة ، إلا أن يستحقر في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها . قلنا : هذا الاستحقر والتقليل اللذة المعرفة باعثه عدم المعرفة أو ضعفها ، فإن من خلا عن المعرفة ، أو كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا ، لا يدرك لذتها ، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريره ، قويت بهجته واشتدت لذته ، بحيث لا توازنها لذة ، فإن للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله - عز وجل - ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوها بها . ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً الى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ، ولا اللذة استنشاق روائح الأطعمة الطيبة الى ذوقها واكلمها ، ولا اللذة اللس باليد الى لذة الوقاع .

وعما يوضح ذلك ، أن لذة النظر الى وجه المعشوق تتفاوت بامور :

احدها - كمال جمال المعشوق ونقصانه .

وثانيها — كمال قوة الحب والشهوة وضعفه .

وثالثها — كمال الادراك وضعفه ، فإن الإلتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة ، أو من بعد ، أو من وراء ستر رقيق ، ليس كالإلتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء .

ورابعها — عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها ، فإن التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق ليس كإلتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم ، أو المشغول قلبه بهمهم من المهمات ، فلو كان العاشق ضعيف الحب ، ناظراً إلى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق ، مشغول القلب بهميات ، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلذعه ، لم يمكن خالياً عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه ، إلا أنه إذا فرض ارتفاع الستر واشراق الضوء ، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية ، وفراغ قلبه من المهمات ، وحدوث عشق مفرط ، وشهوة قوية ، بحيث بلغت أقصى الغايات ، تضاعفت لذته ، بحيث لم تكن لذته الأولى نسبة إليها بوجه ، فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بهمياته ، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها : من الجوع ، والعطش والشبق ، والغضب ، والحزن ، والحلم ، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق إلى الملاء الأعلى ، لإلتفاتها إلى أسفل السافلين إلى لذة اللقاء والمشاهدة التي يتدفع فيها جميع ذلك عن النفس ، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وإن قويت معرفته لا يمكن أن تكمل لذته وتصفو بهجته ، وإن ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الأحوال وبقي سالماً ، لاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله ، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، إلا أن ذلك كالبرق الخاطف ، ولا يمكن

أن يدوم ، إذ الخلوّ عن العوائق والمشوشات ليس يمكن أن يدوم ، بل هو آني ، ويعرض بعد الآن من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه ، وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية ، فلا تزال هذه اللذة منقصة الى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعده ، وإنما العيش عيش الآخرة ، فإن الدار الآخرة لى الحيوان لو كانوا يعلمون ، ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يجب الموت ولا يكرهه ، إلا من حيث ارادة زيادة استكمال في المعرفة ، فإن المعرفة - كما عرفت - بمنزلة البذر ، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته ، قويت المشاهدة واشتدت ، وكثر النعيم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثير الزرع وحسن . ولا ريب في أن المعرفة لا تنتهي الى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة ، إذ بحر المعرفة لا ساحل له ، والاحاطة بكنهه جلال الله محال ، فالعارف وإن قويت معرفته ، ربما أحب طول العمر ، وكره الموت أنزداد معرفته .

ثم أهل السنة قالوا : إن الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصوير والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان : تكون بالعين دون القلب ، : (وهو عندنا باطل) : إذ الرؤية بالعين محال في حق الله - تعالى - ، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة ، فكما لا تجوز رؤية الله - سبحانه - في الدنيا بالعين والبصر ، فكذلك لا تجوز في الآخرة ، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لأهل البصائر - أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى إلى المشاهدة واللقاء - فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى ، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد ، فإن العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع احوالهم

ومنصرفاتهم ، وإن كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافاً وأشدّ انجلاءً بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية - كما تقدم مفصلاً - ، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة ، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) - رحمهما الله - بإسنادهما الصحيح عن الصادق عليه السلام : « أنه سئل عما يروون من الرؤية ، فقال : الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر ، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب » . وإسنادهما عن أحمد بن اسحاق قال : « كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس ، فكتب : لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر ، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه ، لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه ، وكان ذلك التشبيه ، لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات » . وعن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال : « قلت له : أخبرني عن الله - عز وجل - هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : نعم ! وقد رأوه قبل يوم القيامة . فقلت : متى ؟ قال : حين قال لهم : ألسنت بربكم ، قالوا : بلى . . . ثم سكت ساعة ، ثم قال : وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ، ألسنت تراه في وقتك هذا ؟ قال أبو بصير : فقلت له : جعلت فداك ! فحدث بهذا عنك ؟ فقال : لا ! فإنك إذا حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين ، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون » . وسئل أمير المؤمنين عليه السلام : « هل رأيت ربك حين

عبدته ؟ فقال : ويلك ! ما كنت أعبد رباً لم أره . قيل : وكيف رأيتَه ؟ قال : ويلك ! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان ، (١) . وقال سيد الشهداء عليه السلام : « كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك ، عميت عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لهم تجعل من حبك نصيباً ، وقال عليه السلام ايضاً : « تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء » ، وقال : « وأنت الذي تعرفت إلي في كل شيء ، فرأيتك ظاهراً في كل شيء ، وأنت الظاهر لكل شيء » . (٢) . وأمثال ذلك مما ورد عنهم - عليهم السلام - أكثر من أن تحصى .

فصل

(الطريق الى الرؤية واللقاء)

الطريق الى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران : احدهما - تطهير القلب من شوائب الدنيا وعلائقها ، والتبتل الى الله بالذكر والفكر ، ثم اخراج حب غير الله من القلب ، إذ القلب مثل الاناء الذي لا يسع الماء - مثلاً - ما لم يخرج منه الحبل . وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وكال الحب في أن يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره ، فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله ، إلا أن يكون الالتفات الى الغير من حيث إنه صنع الله - تعالى - وفعله ، ومظهر

(١) صحننا الأحاديث كلها على (أصول الكافي) : الجزء الأول ، باب ابطال الرؤية .
وعلى (الوافي) : ١ / ٦٩ ، باب ابطال الرؤية .
(٢) صحننا فقرات دعاء عرفة على (مفاتيح الجنان) : ص ٢٧٢ - ٢٧٤ ،
طبعة الكراوري .

من مظاهر أسماء الله - تعالى - ، والى هذا التجريد والتفريد الاشارة بقوله - تعالى - :

﴿ قُلِ اللَّهُ مُنَّمٌ ذَرُّهُمُ ﴾ (١)

وثانيهما - تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب ، والاول ، اعنى قطع العلائق ، بمنزلة تنقية الأرض من الحشائش ، والثانى ، أى المعرفة ، بمنزلة البذر فيها ، ليتولد منه شجر المحبة .
ثم لتحصيل المعرفة طريقان :

احدهما - الأعلى ، وهو الاستدلال بالحق على الخلق ، وذلك بأن يعرف الله بالله ، وبه يعرف غيره ، أى افعاله وآثاره . والى هذا اشير فى الكتاب الإلهى بقوله :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢)

وهذا الطريق غامض ، وفهمه صعب على الأكثرين . وقد اشرنا الى كيفية فى بعض كتبنا الإلهيات .

وثانيهما - وهو الأدنى ، الاستدلال بالخلق على الحق - سبحانه - ، وهذا الطريق فى غاية الوضوح ، واكثر الافهام يتمكن من سلوكه ، وهو متسع الاطراف ، ومتكثر الشعوب والاكناف ، إذ ما من ذرة من أعلى السماوات الى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات وغرائب بينات ، تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ

الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْقِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي » (١)

وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق الى معرفة الله مع وضوحه ، إنما هو للاعراض عن التفكير والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحطوط النفس . ثم سلوك هذا الطريق ، أى الاستدلال على الله - تعالى - وعلى كمال قدرته وعظمته ، بالتفكير فى الآيات الآفاقية والانفسية ، خوض فى بحار لا ساحل لها ، إذ عجائب ملكوت السموات والارض مما لا يمكن أن تحيط به الافهام ، فإن القدر الذى تبلغه افهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضى الاعمار دون ايضاحه ، ولا نسبة لما احاط به علمنا الى ما احاط به علم العلماء ، ولا نسبة له الى ما احاط به علم الانبياء ، ولا نسبة له الى ما احاط به علم الخلائق كلهم ، ولا نسبة له الى ما استأثر الله به ليه ، بل كلما عرفه الخلائق جميعاً لا يستحق أن يسمى علماً فى جنب علم الله ، ونحن قد اشرنا الى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة فى بعض مخلوقاته فى مبحث التفكير .

فصل

(تفاوت المؤمنين فى محبة الله)

اعلم أن المؤمنين جميعاً مشتركون فى اصل محبة الله لا اشتراكهم فى أصل الايمان ، ولكنهم متفاوتون فى قدرها ، وسبب تفاوتهم امران :
أحدهما - اختلافهم فى المعرفة وحب الدنيا ، فإن أكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع اسماعهم من كونه متصفاً بصفات كذا وكذا ، من دون وصول إلى حقيقة معناها ، وإلى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة

(١) السكوت ، الآية : ٤١٠ .

صادرة عنه ، من غير تدبر في عجائب القدرة و غرائب الحكمة المودعة فيها .
وأما العارفون : فلهم الخوض في بحر التفكير والتدبر في انواع المخلوقات ،
واستخراج ما فيها من الحكم الخفية ، والمصالح العجيبة ، التي كل واحد منها
كشعلة في ازالة ظلمة الجهل ، والهداية الى كمال عظمة الله ، ونهاية جلاله
وكبريائه ، فمثل الاكثرين كمثل عامي أحب عالماً بمجرد استماعه أنه حسن
التصنيف ، من دون علم ودراية بما في تصانيفه ، فتسكون له معرفة بجملة ،
ويكون له بحسنه ميل بجمل ، ومثل العارفين كمثل عالم قتش عن تصانيفه ، واطلع
على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات ولا يرب في أن العالم بجمليته صنع
الله وتصنيفه ، فمن عرف ذلك بجملا تسكون له بحسبه محبة بجملة ، ومن وقف على
ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تسكون له غاية الحب ، وكلما ازدادت
معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه ، فمن اعتقد
أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بالهام الله - تعالى - اياها ، من
غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الأشكال ، لا
يكون في معرفة الله وادراك عظيمته وحكمته من يفهم ذلك ويتيقنه . ثم ، كما أن
دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية ، ولا يمكن لأحد أن يحيط بها ،
وإنما ينتهي كل الى ما يستعد له ، فينبغي أن تسكون مراتب الحب أيضاً غير
متناهية ، وكل عبد ينتهي الى مرتبة تقتضيها معرفته .
وثانيهما - اختلافهم في الأسباب المذكورة للحب ، فإن من يحب الله
لكونه منعماً عليه ومحسناً اليه ، ضعف محبته لتغيرها بتغير الانعام والاحسان ،
ولا يكون محبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرخاء والنعيم . وأما من يحبه
لذاته ، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظيمته ، فإنه لا يتفاوت حبه
بتفاوت الاحسان اليه .

فصل

(الواجب اظهر الموجودات)

عجبا لأقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله - سبحانه - ، مع أن الله - تعالى - أظهر الموجودات وأجلاها ، لأن البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون في الوجود موجود قائم بذاته ، أي ما هو صرف الوجود ، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا ، فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية ، قال الله - سبحانه - :

« الله نور السموات والأرض » (١)

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره ، ومبدأ الإدراك من المدرك إنما هو الوجود ، فكما ادركته إنما تدرك أولا وجوده ، وإن لم تشعر بذلك . ولا ريب في أن الظاهر لنفسه أظهر من الظاهر بغيره ، وأيضا كل موجود سوى الله - سبحانه - يعلم وجوده بقليل من الآثار ، فإن وجود الحياة لزيد - مثلا - لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض آخر من اعراض نفسه ، ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات ، وكذا وجود السماء - مثلا - لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها ، ولا يدل عليه شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها .

وأما وجود الواجب - تعالى - فيدل عليه كل شيء ، إذ ليس في الوجود مدرك محسوس أو معقول ، وحاضر أو غائب ، إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده ، فالسبب في خفائه مع كونه أجلى وأظهر من كل شيء غاية وضوحه

وظهوره ، فان شدة ظهور الشيء قد يكون سبباً لخبائه ، لانه بكل المدارك ويحسرها ، فشدته ظهوره - سبحانه - بلغت حداً بهرت العقول وادهشتها ، فضعفت عن ادراكه . وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لاختفاء النهار واستتاره ، بل لشدته ظهوره وضعف بصر الخفاش ، فإن بصره ضعيف يبهره نور الشمس اذا اشرق ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئاً إلا اذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الاشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب باشراق نوره ، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره ! ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره ، فإن الأشياء إنما تستبان باضدادها ، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر ادراكه ، فلو اختلفت الأشياء ، فدل بعضها على الله - تعالى - دون بعض ، ادركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد ، اشكل الأمران ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإننا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائماً الاشراق لا غروب لها ، لكننا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها ، وهي السواد والبياض وغيرهما ، وأما الضوء فلا ندركه وحده ، لكن لما غابت الشمس واطلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين ، فعلمنا أن الأجسام قد استضاءت بضوء فارقها عند الغروب ، فمعرفة وجود النور بعده . وما كنا نطلع عليه لو لا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في النور والظلام . هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر في

نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم امره بسبب ظهوره لو لا طريقان ضده ،
 فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر الأشياء ، وبه ظهرت الأشياء كلها ،
 ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير ، لانهدت السماوات والأرض ، وبطل
 الملك والملكوت ، وادركت التفرقة بين الحالتين ، ولو كان بعض الأشياء
 موجوداً به ، وبعضها موجوداً بغيره ، لادركت التفرقة بين الشئيين في
 الدلالة ، ولكن دلالاته عامة في الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم في
 الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل :
 خفي لا فراط الظهور تعرضت لا دراكه أبصار قوم أخافش
 وحظ عيون الزئبق من نور وجهه لشدته حظ العيون العوامش
 قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لم تحيط به الأوهام ، بل تجلى لها بها ، وبها
 امتنع منها ، . وقال عليه السلام : « ظاهر في غيب ، وغائب في ظهور ، . وقال عليه السلام :
 « لا تجننه البطون عن الظهور ، ولا تقطعه الظهور عن البطون ، قرب فنأى ،
 وعلفدنا ، وظهر فبطن ، وبطن فعلم ، ودان ولم يدن ، : أي ظهر وغلب ،
 ولم يغلب . ومن هناك قيل : « عرفت الله بجمعه بين الأضداد » .

فصل

(علامم محبة الله)

محبة العبد لله - سبحانه - له علامات :
 الأولى - أن يحب لقاءه بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام ،
 ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه ، إذ كل من يحب شيئاً يحب لقاءه ووجوهه ،
 وإذا علم أنه يمتنع الوصول إليه إلا بالأزجال من الدنيا بالموت لأحب الموت لا محالة ،
 وكيف يشغل على المحب أن يسافر من وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بشاهدته ،
 ولذا قال (حذيفة) عند موته : « حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح اليوم من

ندم . . قال بعض الاكابر : لا يكره الموت إلا مريب ، لأن الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال . . .

ثم من يكره الموت ، فإن كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والأولاد والأموال ، وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال ، بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه اصلاً بما يترتب عليه من لقاء الله - تعالى - ، ولم يجد في قلبه شوقاً إليه مطلقاً ، فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافياً لأصل الحب ، ولو لم يكن حبه للدنيا في غاية الكمال ، بحيث لم يجد في قلبه ميلاً الى ما يترتب على الموت من لقاء الله ، بل كان محباً للدنيا ، إلا أنه كان له شوق الى لقاء الله - تعالى - أيضاً ، أو كان لذلك كراهته للموت ضعيفة ، فمثل هذا الحب للدنيا يتنافى كمال حب الله ، لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ، ولا يبعد أن تتكون معه شائبة ضعيفة من حب الله ، فإن الناس متفاوتون في حب الله ، فمنهم من يحبه بكل قلبه ، ومنهم من لا يحبه بكل قلبه ، بل يحب معه غيره أيضاً من الأهل والولد والمال ، فلا جرم يكون فرجه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها ، وإن كانت كراهته للموت لأجل إرادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله ، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل ، لا لحب الأهل والمال ، ولا للتأسف على فراق الدنيا ، فهو لا يدل ضعف الحب ولا يتنافى أصله ، وهو كالمحب الذي وصل إليه خبر قدوم حبيبه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليحمر داره ويفر شها ويهيئ أسبابها ، ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل ؛ وعلامة ذلك: الجهد في العمل ، واستغراق الهم في تحصيل المعرفة ، والاستعداد الآخرة.

الثانية - أن يؤثر مراد الله - سبحانه - على مراده ، إذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه ، كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فاترك ما أريد لما يريد
 فمن كان محباً لله : يمتثل أوامره ويحتجب نواهيهِ ، ويحترز عن اتباع
 الشهوات ، ويدع الكسالة والبطالة ، ولا يزال مواظباً على طاعته وانقياده ،
 ويكون مبهتجاً متنعماً بالطاعة ولا يشغلها ، ويسقط عنه تعبها . وقد روى :
 « أن زليخا لما آمنت ، وتزوج بها يوسف عليه السلام ، انفردت عنه ، وتخلت
 للعبادة ، وانقطعت الى الله - تعالى - ، وكان يوسف يدعوها الى فراشه نهاراً
 فتدافعه الى الليل ، وإذا دعاها ليلاً سوفت الى النهار ، فعاتبها في ذلك ،
 فقالت : يا رسول الله ! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك ، فإذا إذ عرفته
 فلا أؤثر على محبته محبة من سواه ، وما أريد به بدلا ، ثم الحق أن العصيان
 يضاد كمال المحبة لا أصلها ، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد في
 مرضه مع أنه يحب نفسه ، ويجب صحته ، والسبب ضعف المعرفة ، وغلبة
 الشهوة ، فيعجز عن القيام بحق المحبة .

الثالثة — ألا يغفل عن ذكر الله - سبحانه - ، بل يكون دائماً مستهتراً
 بذكره ، إذ من أحب شيئاً أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به ، فحجب
 الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته ، لأنه كلامه ، ويكون
 محباً للخلاوة ليتفرد بذكره وبمناجاته ، ويكون له كمال الأانس والإلتذاذ
 بمناجاته ، وفي اخبار داود : « كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام عني ،
 أليس كل محب يجب لقاء حبيبه ، فما أناذا موجود لمن طلبني ، .

الرابعة — ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شيء ، ولا يفرح بوجود شيء ،
 سوى ما يقر به الى الله أو يبعده عنه ؛ فلا ينبغي أن يحزن ويجزع في المصائب ،
 ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية ، ولا يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه
 من طاعة مقربة الى محبوبه ، أو على صدور معصية مبعدة ، أو على ساعة

خلت عن ذكر الله والانس به .

الخامسة - أن يكون مشفقاً رؤفاً على عباد الله ، رحيماً على اوليائه ،
وشديداً على اعداء الله ، كارهاً لمن يخالفه ويعصيه ، إذ مقتضى الحب الشفقة
والمحبة لأحباء المحبوب والمنسوبين اليه ، والبغض لأعدائه ومخالفيه .

السادسة - أن يكون في حبه خائفاً متذللاً تحت سلطان العظمة
والجلال ، وليس الخوف مضاداً للحب ، كما ظن ، إذ ادراك العظمة يوجب
الهيبة ، وادراك الجمال يوجب الحب ، وللخصوص المحبين خوف الاعراض ،
وخوف الحجاب ، وخوف الابعاد ، وخوف الوقوف ، وسلب المزيد
وقال بعض العرفاء : « من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط
والادلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد
والاستيحاش ، ومن عبده من طريقها أحبه الله ، فقر به ومكثه وعليه ، »

السابعة - كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد واجتناب
الدعوى ، تعظيماً للمحبوب واجلالاً له ، وهيبة منه وغيره على سره ، فإن
الحب سر من اسرار المحبوب ، فلا ينبغي افشاؤه ، ولأنه ربما يدخل في
الدعوى ما يجاوز حد الواقع ، فيسكون من الافتراء ، وتعظم به العقوبة
في العقبي والبلية في الدنيا . نعم ، ربما غشيمته سكرة في حبه ، حتى يدهش
فيها ، وتضطرب احواله ، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل . فمثله
معدور ، لأنه تحت سلطان المحبة مقهور ، ومن عرف أن حصول حقيقة
المعرفة والمحبة التي تنبغى أن تكون في حق الله يستحيل أن يحصل لأحد ،
وأن يطلع على ما اعترف عظماء الانسان - أعني الأنبياء والاولياء - من العجز
والقصور ، وان صنفاً واحداً من الأصناف الغير المتناهية من ملائكته
ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، هم أهل المحبة لله ، ما خطر على

قلوبهم مذ خلقهم الله - وهو ثلاث مائة ألف سنة قبل خلق العالم - سوى الله - سبحانه - ، وما ذكر واغيره ، لاستحجي منه حق الحياء أن يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة ، وخرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . وروى في بعض الأخبار : ان بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله - تعالى - أن يعطيه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فحار عقله ، وذهل لبه ، ووله قلبه ، وهام في الجبال ، وبقى شاخصا سبعة ايام ، لا ينتفع بشيء ولا يفتنع به شيء ، فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي اعطاه . فأوحى الله - تعالى - اليه : (إنا اعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك ان مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا ، فأخرت اجابتهم الى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبته فيما سألت أعطيتهم كما اعطيته ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك) . فقال : سبحانك سبحانك ! أنقصه عما اعطيته ، فأذهب الله عنه جملة ما اعطاه ، وأبقى فيه عشر معشاره ، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن ، وصار كسائر الكمل من العارفين ، (١) .

والحق أن حقائق الصفات الالهية أجل وأعظم من ادراك العقول البشرية ، ولا يطبق أحد من الكمل أن يتحمل لفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها ، فالوصول الى ما عليه الخصرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال ، (وما قيل أو يقال فيه) وهم أو خيال ، فأين يحصل لأحد ما يليق به من المعرفة والمحبة ؟ فلو امكن أن تدخل أمثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والأرضين وما فوقهما وأضعافهما بقدر

(١) صحيفتنا الرواية على (احياء العلوم) : ٤ / ٢٨٨ .

غير متناه في جوف خردلة ، لا يمكن أن تدخل في أعظم العقول ذرة من
عظمته وجلاله ، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته
وسائر اوصافه الكالية بأمثال هذه العنوانات والتمثيلات، وهي أيضاً لوضوعفت
الى غير النهاية في أزمنة غير متناهية، لكانت بيانات قاصرة، بل وهمية خيالية،
فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ! . ومن علامات
المحبة الأانس والرضا - كما يأتي - . وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في
ايات ، فقال :

لا تخدعن	فللمحج دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر	بلائه	وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية	مقبولة	والفقر اكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه		طوع الحبيب وان ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما		والقلب فيه من الحبيب بلايل
ومن الدلائل أن يرى متفهما		لكلام من يحظى لديه وسائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا		متحفظا عن كل ما هو قائل
ومن الدلائل أن تراه مشعراً		في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه		خوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل أن تراه باكياً		أن قد رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل أن تراه راضياً		بملكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل زهده فيما ترى		من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه مسلماً		كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى		والقلب محزون كقلب الثاكل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً		نحو الجهاد وكل فعل قاضل

فصل

(معنى حب الله لعبده)

اعلم ان شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله - سبحانه - يحب العبد ، كقوله - تعالى - :

« يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » (١) . وقوله - تعالى - : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ » (٢) . وقوله - تعالى - : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (٣) .
 وقوله - تعالى - : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » (٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الايمان الا من يحب ، . وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب ، . وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، وان رضى اصطفاه ، . وقال ﷺ : « من أكثر ذكر الله أحبه الله ، . وقال ﷺ : « لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به ، . وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا ، جعل له واعظا من نفسه ، وزاجرا من قلبه ، يأمره وينهاه ، . . . وأمثال ذلك اكثر من أن تحصى .
 ثم حقيقة الحب - وهو الميل الى موافق ملامم - غير متصور فى حق

(١) المائة ، الآية : ٥٧ .

(٣) البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٤) آل عمران ، الآية : ٣١ .

(٢) الصف ، الآية : ٤ .

الله - تعالى - ، بل هذا انما يتصور في حق نفوس ناقصة ، والله - سبحانه - صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال ، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وأبداً ، اذ لا يتصور تجدده وزواله ، فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غير ، بل ابتهاجه بذاته وصفاته وافعاله ، وليس في الوجود إلا ذاته وصفاته وافعاله ، ولذلك قال بعض العرفاء - لما قرىء قوله - تعالى - : (يحبهم ويحبونه) - : نحن نحبههم ، فانه ليس يحب إلا نفسه ، ، على معنى انه الكل ، وانه في الوجود ليس غيره . فمن لا يحب إلا ذاته ، وصفات ذاته ، وافعال ذاته ، وتصانيف ذاته ، فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو اذاً لا يحب إلا ذاته . وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له - تعالى - بافعاله له ، إذ المستفاد من الآيات والأخبار : أن له - تعالى - خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات ، فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه اياه من القرب اليه ، وإلى ارادته ذلك به في الأزل ، وإلى تطهير باطنه عن حلول الغير به ، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه ، حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق ، ولا يبصر إلا به ، ولا ينطق إلا به - كما في الحديث القدسي - ، فيكون تقربه بالنوافل سبباً لهصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله في درجة القرب من ربه ، وكل ذلك من فضل الله - تعالى - ولطفه به .

ثم قرب العبد من الله لا يوجب تغيراً وتجديداً في صفات الله - تعالى - ، إذ التغير عليه - سبحانه - محال ، لأنه لا يزال في نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه في ازل الأزال ، بل يوجب مجرد تغير العبد بترقيه في مدارج الكمال ، والتخلق بكمال الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية ، فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً واحاطة بحقائق الأمور ، وأثبت قوة في

قهر الشياطين وفتح الشهوات ، وأظهر نزاهة عن الرذائل ، وأقوى تصرفاً في ملكوت الأشياء ، صار اقرب إلى الله ، ودرجات القرب غير متناهية ، لعدم تناهى درجات الحكال ، فمثل تقرب العبد إلى الله ليس كتقرب احد المتقاربين إلى الآخر اذا تحركا معاً ، بل كتقرب احدهما مع تحركه إلى الآخر الذي كان ساكناً ، او كتقرب التلميذ في درجات الحكال إلى استاذه ، فان التلميذ متحرك متحرك مترق من حضيض الجهل إلى بقاع العلم ، ويطلب القرب من استاذه في درجات العلم والحكال ، والأستاذ ثابت واقف ، وان كان التلميذ يمكن ان يصل إلى مرتبة المساواة لاستاذه لتناهى كالاته ، وأما العبد ، كائناً من كان ، لا يمكن أن يصل إلى كمال يمكن أن تكون له نسبة إلى كالاته - سبحانه - ، لعدم تناهى كالاته شدة وقوة وعدة ، وعلامة كون العبد محبوباً عند الله : أن يكون هو محباً له - تعالى - ، مؤثراً إياه على غيره من المحاب ، وأن يرى من بواطن أموره وظواهره انه - تعالى - يهيء له اسباب السعادة فيها ، ويرشده إلى ما فيه خيره ، ويصده عن المعاصي بأسباب يعلم حصولها منه - سبحانه - ، وانه - تعالى - يتولى أمره ، ظاهره وباطنه ، وسره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدير لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظواهره وباطنه ، والجاعل لطمومه هما واحداً ، والمبغض للدنيا في قلبه ، والموحش له من غيره ، والمونس له بلذة المناجاة في خلواته ، والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

ترتيب

(الحب في الله والبغض في الله)

اعلم ان الأخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه ، ومعناه لا يخلو عن ابهام ، فلا بد أن نشير إلى بعض هذه

الأخبار ، ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه :

أما الأخبار : كقول النبي ﷺ : « ودُّ المؤمن للمؤمن في الله أعظم شعب الإيمان ، ألا ومن أحب في الله ، وأبغض في الله ، وأعطى في الله ، ومنع في الله ، فهو من اصفياء الله » . وقال ﷺ لأصحابه : « أي عرى الإيمان اوثق ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم - فقال بعضهم : الصلاة ، وقال بعضهم : الزكاة ، وقال بعضهم : الصيام ، وقال بعضهم : الحج والعمرة ، وقال بعضهم : الجهاد - فقال رسول الله ﷺ : « لكل ما قلتم فضل وليس به ، ولكن اوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ، وتوالت اولياء الله والتبري من اعداء الله » . وقال ﷺ : « المتحابون في الله يوم القيامة على ارض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه - وكلتا يديه يمين - وجوههم أشد بياضا وأضوأ من الشمس الطالعة ، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبي مرسل ، يقول الناس : من هؤلاء ؟ فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » . وقال سيد الساجدين عليه السلام : « اذا جمع الله - عز جل - الأولين والآخرين ، قام مناد فنادى ليرسم الناس ، فيقول : أين المتحابون في الله ؟ قال : فيقوم عنق من الناس ، فيقال لهم : اذهبوا إلى الجنة بغير حساب . قال : فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة بغير حساب ، فيقولون : أي حزب انتم من الناس ؟ فيقولون : نحن المتحابون في الله . قال : فيقولون : وأي شيء كانت اعمالكم ؟ قالوا : كنا نحب في الله ونبغض في الله . قال : فيقولون : نعم اجر العاملين » . وقال الباقر عليه السلام : « اذا اردت أن تعلم ان فيك خيرا فانظر الى قلبك ، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته فبيك خيرا والله يحبك ، واذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خيرا والله يبغضك . والمرأ مع من أحبه » . وقال عليه السلام : « لو أن رجلا أحب رجلا لله ، لا ثابه الله على حبه

اياه ، وان كان المحبوب في علم الله من أهل النار ، ولو ان رجلا أبغض رجلا لله ، لاثابه الله على بغضه اياه ، وان كان المبغض في علم الله من أهل الجنة ، وقال الصادق عليه السلام : « من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ، فهو بمن كل ايمانه » . وقال عليه السلام : « ان المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور ، قد اضاء نور وجوههم ونور اجسادهم ونور منابرهم كل شيء ، حتى يعرفوا به ، فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » . وقال عليه السلام : « وهل الايمان إلا الحب في الله والبغض في الله ؟ ثم تلا هذه الآية :

« حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْمُصِيبَانَ أُولَئِكَ
هُمُ الرَّاشِدُونَ » (١) .

وقال عليه السلام : « ما التقى المؤمنان قط إلا كان افضلهما اشدهما حبا لآخيه » . وقال عليه السلام : « من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له » ، والأخبار بهذه المضامين كثيرة (٢) .

وإذا عرفت ذلك ، فلنشر الى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول : الحب الذي بين انسانين ، اما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية ، كالصحبة بحسب الجوار ، او بحسب الاجتماع في سوق ، أو مدرسة ، أو سفر ، او باب سلطان ، أو امثال ذلك ، ومعلوم ان مثل هذا الحب ليس من الحب في الله ، بل هو الحب بحسب الاتفاق ، أو لا يحصل بمجرد ذلك ، بل له سبب وباعث آخر ، وهذا على أربعة اقسام :

(١) الحجرات ، الآية : ٧ .

(٢) صحننا الأحاديث كلها على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب الحب في الله والبغض

في الله ، وعلى (الوافي) : ٣ / ٣٤٤ ، باب الحب في الله والبغض في الله .

الأول — أن يحب انسان انسانا لذاته ، لا ليتوصل به الى محبوب ومقصود وراءه . بأن يكون هو في ذاته محبوبا عنده ، بمعنى انه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدة اخلاقه ، لاستحسانه له ، فان كل جميل لذيد في حق من ادرك جماله ، وكل لذيد محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع . ثم ذلك المستحسن ، اما أن يكون جمال الصورة ، وكال العقل ، وغزارة العلم ، وحسن الاخلاق والافعال ، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة ، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب ، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما ، فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق . ومن دون ملاحظة في صورة ولا غيرهما من الأعضاء ، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة ، فان شبه الشيء ينجذب اليه بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ، ولها اسباب دقيقة ليس في قوة البشر أن يطلع عليها ، والى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله ﷺ بقوله : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف ، والبغض نتيجة التناكر . ومعلوم ان هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله ، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله ، إلا انه ان اتصل به غرض مذموم صار مذموماً ، وإلا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم .

الثاني — أن يحبه لا لذاته ، بل لينال منه محبوبا وراء ذاته ، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية ولا ريب في أن كلما هو وسيلة الى المحبوب محبوب ، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر .

الثالث — أن يحبه لا لذاته ، بل لغيره ، وذلك الغير راجع الى

حظوظه في الآخرة دون الدنيا ، وذلك كحب التلميذ الأستاذ ، لأن يتوسل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة . وهذا الحب من جملة الحب في الله ، وصاحبه من محبي الله ، وكذلك حب الاستاذ للتلميذ ، لأنه يتلقف منه العلم ، وينال بواسطته مرتبة التعليم ، ويرتقى به الى درجة التعظيم في ملكوت السماء . قال عيسى عليه السلام : من علم وعمل وعلم ، فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء . ولا يتم التعليم إلا بتعلم ، فهو اذن آلة في تحصيل هذا الكمال ، فان احبه لأنه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه ، فهو محب لله .

بل التحقيق : أن كل من يحب أحداً لصنعتة ، أو فعله الذي يوجب تقربه الى الله ، فهو من جملة المحبين في الله ، كحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين ، وحب طباطب يحسن صنعتة في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقرباً الى الله ، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا ، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة ، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكفس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل وقس على ما ذكر أمثاله ، والمعيار أن كل من احب غيره من حيث توسله لأجله الى فائدة اخروية فهو محب لله وفي الله .

الرابع — أن يحبه لله وفي الله ، لا لينال منه علماً أو عملاً ، أو يتوسل به الى امر وراء ذاته ، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب اليه ، إما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق إلى الله ، أو لأجل خصوصية النسبة أيضاً ، من تقربه الى الله ، وشدة حبه وخدمته له - تعالى - . ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب الى كل من يتعاق

به ويناسبه ، ولو من بعد ، فمن أحب انساناً حباً شديداً ، أحب محب ذلك الانسان وأحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويثني عليه أو يثني عليه محبوبه ، وأحب أن يتسارع الى رضاه محبوبه ، كما قيل :

أمرٌ على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض في الله ، فهو أن يبغض انسان انساناً لأجل عصيانه لله ومخالفته له - تعالى - ، فإن من يحب في الله لا بد وأن يبغض في الله ، فانك إن أحببت انساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عنده ، فإن عصاه لا بد أن تبغضه ، لأنه عاص فيه وممقوت عند الله ، قال عيسى عليه السلام : « تحبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم ، واتمسوا برضاء الله بسخطهم » . وروى : « أنه - تعالى - أوحى إلى بعض أنبيائه : أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة ، وأما انقطاعك إلي فقد تعززت بي ، ولكن هل عاديت في عدوآ ، أو واليت ولياً ؟ » .

ثم للمعصية درجات مختلفة ، فإنها قد تكون بالاعتقاد ، كالكفر والشرك والبدعة ، وقد تكون بالقول والفعل ، وهذا إما أن يكون مما يتأذى به غيره ، كالقتل والغضب والضرب وشهادة الزور وسائر انواع الظلم ، أو لا يكون مما يتأذى به غيره ، وهذا إما يوجب فساد الغير ، كالجمع بين الرجال والنساء ، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور ، أو لا يوجب فساد الغير ، كالزنا وشرب الخمر ، وهذا أيضاً إما كبيرة أو صغيرة . واطهار البغض أيضاً له درجات مختلفة ، كالتباعد والهجران ، وقطع اللسان عن المسكالمه والمحادثة ، والتغليظ في القول ، والاستخفاف والاهانه ، وعدم السعي في إطاعته ، والسعي في اسيائه

واقساد مآربه ، وبعض هذا أشد من بعض ، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضاً كذلك . فينبغي أن يكون الأشد من درجات البغض بازاء الأشد من درجات المعصية والفسق ، والوسط بازاء الوسط ، والأضعف بازاء الأضعف . وينبغي ألا يترك أولاً النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتغليظ القول في الوعظ والارشاد ، لا سيما إذا كان العاصي ممن بينه وبينه صحبة متأكدة . ثم العاصي إن كان ممن له صفات محمودة ، كالإيمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو أمثال ذلك ، ينبغي أن يكون مبعوضاً لأجل معصيته ومحبوياً لأجل صفته المحمودة ، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد اليه والتوحش عنه ، فلا تبالغ في اكرامه مبالغتك في اكرام من يوافقك في جميع اغراضك ، ولا تبالغ في اهانتته مبالغتك في اهانتته من خالفك في جميع اغراضك .

تتميم

(الوفاء في الحب)

اعلم أن من تمام الحب للاخوان في الله (الوفاء) ، وهو الثبات على الحب ولو ازمه وادامته الى الموت وبعده مع اولاده واصدقائه ، وضده (الجفاء) ، وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة أو بعد الموت بالنسبة الى اولاده وأحبته ، ولو لا الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة ، إذ الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت لضاع السعي وحبط العمل ، ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة : «واخوان تجابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه» . وروى : «أنه ﷺ كان يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه ، ففعل له في ذلك ، فقال : إنها كانت تأتيننا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين . فمن الوفاء مراعاة جميع الأصدقاء

والأقارب والمتعلقين ، ومراعاتهم أوقع في القلب من مراعاة الأخر المحبوب في نفسه ، فان فرجه بتفقد من يتعلق به اكثر من فرجه بتفقد نفسه ، إذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة إلا بتعديها من المحبوب الى كل من يتعلق به ، حتى أن من قوى حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب . ولا ريب في أن المحبة التي تنقطع - ولو بعد المئات - لا تكون محبة في الله ، إذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها . فما قيل من أن (قليل الوفاء بعد الوفاء خير من كثيره حال الحياة) إنما هو لدلالته على كون الحب في الله . وبالجملة : الوفاء بالمحبة تمامها . ومن آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقتة ، وألا يسمع بلاغات الناس عليه ، وأن يحب صديقه ويغض عدوه ، وليس من الوفاء موافقة الأخر فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء المخالفة له وارشاده الى الحق .

هذا وأما البعد والانس ، فقد عرفت ان الانس عبارة عن استبشار القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول ، والبعد خلافه ، والانس والخوف والشوق ، كلها من آثار المحبة ، وكل واحد منها يرد على الحب بحسب نظره ، وبما يغلب عليه في وقته ، فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال ، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنهه الجلال ، انبعثت النفس وانزعجت له ، وهاجت اليه ، فسميت هذه الحالة في الانزعاج (شوقاً) ، وهو بالاضافة الى امر غائب ، واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت الى ما لم يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظه فيه ، فيسمى استبشاره (أنساً) ، وإن كان نظره الى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة ، واستشعر امكان الزوال والبعد ، تألم قلبه بهذا الاستشعار ، فيسمى

تألمه (خوفاً) ، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، فإن غلب الأانس وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته ، وغلب عليه الأانس بالله ، ولم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، وذلك لأن الأانس بالله يلزمه التوحش من غير الله ، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الأشياء على القلب ، كما روى : « أن موسى ﷺ لما كلمه ربه ، مكث دهرأ لا يسمع كلامه أحد من الخلق إلا أخذه الغشيان ، لأن الحب يوجب عنوبة كلام المحبوب وعنوبة ذكره ، فيخرج عن القلب عنوبة ما سواه ، فان خالط الناس كان كمنفرد في جماعة ، ومجتمع في خلوة ، وغريب في حضر ، وحاضر في سفر ، وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ، ومخالط بالبدن ، متفرد بالقلب المستغرق في عنوبة الذكر ، قال أمير المؤمنين ﷺ في وصفهم : « هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى ، أو تلك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة الى دينه ، .

فصل

(الأانس بالله)

من أنكر وجود الحب والشوق أنكر وجود الأانس أيضاً ، ظناً أنه يدل على التشبيه ، وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية والذات الحقيقية ، وعن القصور في طريق المعرفة ، والجمود على احكام الحس ، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة ، وقد ظهر ثبوت الأانس من بعض الأخبار السابقة ، ويدل عليه ما ورد في أخبار داود : « ان الله - عز وجل - أوحى اليه : يا داود ! ابلغ أهل أرضي : اني حبيب لمن احبني ، وجليس لمن جالسني ،

ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى، ومختار لمن اختارنى، ومطيع لمن اطاعنى ، ما احبنى عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسى ، واحببته حباً لا يتقدمه احد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فارفضوا يا اهل الأرض ما اتم عليه من غرورها ، وهلموا الى كراحتى ومصاحبتى ومجالستى ، وآنسوا بى اوانسكم ، واسارع الى محبتكم .

فصل

(الأنس قد يشمر الادلال)

قال ابو حامد الغزالى : ه الأنس اذا دام وغلب واستحكم ، ولم يشوشه قلق الشوق ، ولم ينغصه خوف البعد والحجاب ، فإنه يشمر نوعاً من الانبساط فى الأقوال والافعال والمناجاة مع الله - سبحانه - ، وقد يكون منكرآ بحسب الصورة ، لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة ، ولسكنه محتمل بمن اقيم فى مقام الأنس ، ومن لم يقم فى ذلك المقام وتشبه بهم فى الفعل والكلام ، هلك واشرف على الكفر . ومثاله مناجاة (برخ الأسود) الذى أمر الله - تعالى - كلينه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى اسرائيل ، بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى فى سبعين الفاً ، فاوحى الله - عز وجل - اليه : كيف استجيب لهم وقد اظلت عليهم ذنوبهم ؟ سرأرهم خبيثة ، يدعونى على غير يقين ، ويأمنون مكبرى ، ارجع الى عبد من عبادى يقال له (برخ) ، فقل له : يخرج حتى استجيب له . فسأل عنه موسى ، فلم يعرف ، فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق ، اذا بعبد اسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من اثر السجود ، فى شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى بنور الله - عز وجل - ، فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى برخ ، قال : فانت طلبتنا منذ حين ، اخرج فاستسقى لنا ، فخرج ، فقال فى كلامه : ما هذا من فعالك ،

ولاهذا من حليمك ، وما الذى بدا لك ؟ أتعصت عليك غيومك ؟
 أم عاندت الرياح عن طاعتك ؟ أم نفذ ما عندك ؟ أم اشتد غضبك على
 المذنبين ؟ ألسنت كنت غفارا قبل خلق الخاطئين ؟ خلقت الرحمة وأمرت
 بالهفو ، أم ترىنا انك تمتنع ؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ . . . قال :
 فما برح حتى اخضل بنو اسرائيل بالمطر ، وانبت الله - عز وجل - العشب
 فى نصف يوم حتى بلغ الركب ، ثم رجع (برخ) ، فاستقبله موسى ، فقال :
 كيف رأيت حين خاصمت ربى ، كيف أنصفنى ؟ ! فهمم به موسى ، فوحي الله
 اليه : إن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات ، !! (١) . ولا ريب فى أن
 امثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد
 دون البعض ، فمن انبساط الأانس قول موسى :

« إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتِكَ » (٢)

وقوله فى التعلل والاعتذار ، لما قيل له :

« إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَفَرٌ ظَنِيٌّ » (٣) : « وَهَلُمُّ

عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » (٤) . وقوله : « وَيَضِيقُ

صَدْرِي » (٥) . وقوله : « إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا

أَوْ أَنْ يَنْطَعِنَا » (٦) .

(١) هذا من عجائب المنقولات الخرافية ، والغريب من (ابى حامد الغزالي) ان يركن

الى مثله ، وقد أشار المصنف - قدس سره - الى بطلان ما نقله بقوله : (ولا ريب) .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٥٤ . (٥) الشعراء ، الآية : ١٣ .

(٣) طه ، الآية : ٢٤ . النازعات ، الآية : ١٧ . (٦) طه ، الآية : ٤٥ .

(٤) الشعراء ، الآية : ١٤ .

وهذا من غير موسى سوء الأدب ، لأن الذي اقيم مقام الأئس يلاطف
ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره ، كيف ولم يحتمل من يونس النبي ﷺ ما
دون هذا الحال ، اقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في
ظلمات ثلاث ، فتودى عليه الى يوم الحشر ، لو لا أن تداركته نعمة من
ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، ونهى نبينا أن يقتدى به ، فقل له :

« وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ
الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ » (١) .

وهذه الاختلافات بعضها لا اختلاف المقامات والأحوال ، وبعضها
لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، قال
الله - سبحانه - :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ
مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » (٢) .

فالأنبياء والأولياء مختلفون في الصفات والأحوال ، ألا ترى أن
عيسى بن مريم ﷺ كان في مقام الانبساط والادلال ، ولإدلاله له سلم على
نفسه ، فقال :

« وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ
أُبْعَثُ حَيًّا » (٣) .

وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأئس . وأما يحيى ﷺ

(١) القلم ، الآية : ٤٨ . (٣) صرم ، الآية : ٣٣ .

(٢) البقرة ، الآية : ٢٥٣ .

فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه ، فقال :
 « وَسَلَامٌ عَآيَاهُ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ
 يُبْعَثُ حَيًّا » (١) .

وانظر كيف احتمل لآخوة يوسف ما فعلوا به ، وقد قال بعض
 العلماء : « قد عدت من أول قوله - تعالى - :

« إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا » (٢)

إلى رأس العشرين آية من اخباره - تعالى - عنهم ، فوجدت به نيفاً
 واربعين خطيئة ، بعضها أكبر من بعض ، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة
 الثلاث والأربع ، فغفر لهم وعفي عنهم ، ولم يحتمل لعزير في مسألة واحدة
 سأل عنها في القدر ، حتى قيل : لئن عاد محي اسمه عن ديوان النبوة . ومن
 فوائد هذه القصص في القرآن : أن تعرف بها سنة الله في عباده الذين
 خلوا من قبل ، فما في القرآن شيء إلا وفيه اسرار وانوار يعرفها الراسخون
 في العلم .

تزييف

(العزلة)

اعلم أن من بلغ مقام الأنس ، غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن
 الناس ؛ لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام إلى الله . فلا بد
 لنا من بيان أن الأفضل من العزلة والمخالطة أيهما ، فإن العلماء في ذلك
 مختلفون ، والأخبار أيضاً في ذلك مختلفة ، ولكل واحد منهما أيضاً فوائد
 ومفاسد ، فنقول : الظاهر من جماعة : تفضيل العزلة على المخالطة مطلقاً .

(١) صريم ، الآية : ١٤ . (٢) يوسف ، الآية : ٨ .

والظاهر من الاخرى : عكس ذلك .

نظر الاولين إلى اطلاق ما ورد في مدح العزلة ، وإلى فوائدها وما ورد في مدحها ، كقول النبي ﷺ : « إن الله يحب العبد التقي الخفي » ، وقوله ﷺ : « أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله » ، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب » ، وقوله ﷺ لمن سأله عن طريق النجاة : « ليسعك بيتك ، وامسك عليك دينك ، وابك على خطيئتك » ، وقول الصادق عليه السلام : « فسد الزمان ، وتغير الاخوان ، وصار الانفراد اسكن للفؤاد » ، وقوله عليه السلام : « اقلل معارفك ، وانكر من تعرف منهم » ، وقوله عليه السلام : « صاحب العزلة متحصن بحصن الله - تعالى - ، ومتحرس بحراسته ، فيأطوب لمن تفرد به سرا وعلانية ! وهو يحتاج إلى عشر خصال : علم الحق والباطل ، وتجنب الفقر ، واختيار الشدة ، والزهد ، واغتنام الخلوة ، والنظر في العواقب ورؤية التقصير في العبادة مع بذل الجهود ، وترك العجب ، وكثرة الذكر بلا غفلة ، فان الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب ، وخلوة البيت عما لا يحتاج اليه في الوقت . قال عيسى بن مريم عليهما السلام : (اخزن لسانك لعارة قلبك ، وليسعك بيتك ، واحذر من الرياء وفضول معاشك ، واستح من ربك ، وابك على خطيئتك ، وفر من الناس فرارك من الاسد والافعى ، فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء ، ثم ألق الله متي شئت) . قال ربيع بن خثيم : « إن استطعت أن تسكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل ، ففي العزلة صيانة الجوارح ، وفراغ القلب ، وسلامة العيش ، وكسر سلاح الشيطان ، والمجانبة من كل سوء ، وراحة القلب ، وما من نبي ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه ، إما في ابتدائه ،

وإما في انتهائه ، (١) .

وأما فوائد العزلة ، فكالفراغ للعبادة ، والذكر ، والفكر ،
والاستيناس بمناجاة الله ، والاشتغال باستكشاف اسرار الله في ملكوت
السموات والأرض ، والتخلص عن المعاصي التي يتعرض للانسان لها غالباً
بالمخالطة : كالغيبة ، والرياء ، وسائر آفات اللسان ، ومسارقة الطبع الأعمال
الخفية ، والأخلاق الرديئة من الناس ، والمداهنة في الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، والاستخلاص من الفتن والخصومات واطرارها ،
أو من شر الناس وايدائهم قولاً وفعلاً ، وقطع طمعه عن الناس ، وقطع
طمعهم عنه ، والخلاص من مشاهدة الظلمة ، والفسقة ، والجهال ، والثقلان ،
والحمق ، ومقاساة أخلاقهم .

ونظر الآخرين - اعني القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة - الى اطلاق
الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة والى فوائدها ، أما ما
ورد في مدحها ، كقول النبي ﷺ : « المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن
لا يألف ولا يؤلف » ، وقوله ﷺ : « من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية » ،
وكالأخبار الواردة في ذم الهجرة عن الإخوان ، وقوله ﷺ : « إياكم
والشعاب ، وعليكم بالعمامة والجماعة والمساجد » .

وأما فوائد المخالطة : كالتعليم ، والتعلم ، وكسب الأخلاق الفاضلة
من مجالسة المتصفين بها ، واستماع المواعظ والنصائح ، ونيل الثواب بحضور
الجمعة والجماعة والجنائز ، وعبادة المرضى ، وزيارة الإخوان ، وقضاء
حوائج المحتاجين ، ورفع الظلم عن المظلومين ، وادخال السرور على المؤمنين ،

(١) صحنا هذا القول ، وكذا الحديث السابق ، على (مصباح الصرية) :

باب ٢٤ ، وعلى (الجار) : - باب العزلة عن شرار الخلق - : معج ١٥ : ٢ / ٥١ ط
أمين الضرب .

والاستيناس بالاخوان ، وبأهل الورع والعبادة والتقوى ، وهو يرتوح القلب ، ويهيج داعية النشاط في العبادة وايصال النفع إلى المسلمين بالمال والجاه واللسان ، واستفادة مزيد الأجر والثواب بتحصيل المعاش والسكند على العيال ، وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم ، وكسر النفس وشهواتها ، وادراك صفة التواضع لتوقفه على معاشره الناس ومخالطتهم ، وعدم حصوله في الوحدة ، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين ، فانها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجارى أحوالهم . هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة ، وفوائد كل منهما مفسد وغوائل للآخر . وأنت - بعدما عرفت فوائد كل منهما وغوائله - تعلم أن الحكم بترجيح أحدهما على الآخر على الإطلاق خطأ. كيف يجوز أن يقال: ان العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئاً من اصوله وفروعه ، ولم يقرع سمعه علم الأخلاق ، ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها ، فضلاً عن أن تحصل له التخلية والتحلية ، ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولى الأخلاق الفاضلة؟ وكيف يجوز أن يقال: إن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل ، ووصل إلى مرتبة الابتهاج والإلتذاذ بالطاعات والمناجاة ، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدينية ، بل تترتب عليه المفسدات الكثيرة؟

فالصحيح أن يقال: إن الأفضلية فيهما تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والامكنة . فينبغي أن ينظر إلى كل شخص وحاله ، وإلى خليطه ، وإلى باعث مخالطته ، وإلى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة ، وما يفوت لأجلها من فوائد العزلة ، ويوازن بين ذلك ، حتى يظهر الأفضل والأرجح . ولاختلاف ذلك في حق الأشخاص ،

بملاحظة الأحوال والفوائد والآفات ، ربما يظهر - بعد التأمل - أن الأفضل لبعض الخلق العزلة التامة ، ولبعضهم المخالطة ، ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة . وبما ذكر يظهر أن الأفضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق : الخلوة والعزلة ، إذ لا ريب في أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والانس ، ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك . ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يمتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة . قال أويس القرني : « ما كنت أرى أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره » ، وقال بعضهم : « إذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس » ، وقال بعضهم : « سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه » . وقال بعض الصالحين : « رأيت في بعض البلاد عابداً خرج من بعض قلل الجبال ، فلما رأى تنحى عنى وتستر بشجرة ، فقلت له : سبحان الله ! أتبخل على بالنظر اليك ؟ فقال : يا هذا ! أتيت في هذا الجبل دهرأ طويلاً أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها ، فطال في ذلك تعبي ، وفتى فيه عمري ، فسألت الله - تعالى - أن يعطيني ذلك ، فسكن قلبي عن الاضطراب ، وألف الوحدة والانفراد ، فلما نظرت اليك خفت ان أوقع في الأول ، فإني أعوذ من شرك رب العالمين ، وحييب القانتين ، ثم صاح وقال : واغماه من طول المكث في الدنيا ! ، ثم حول وجهه عنى ، وقال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخلوة ، وحرارة الانقطاع اليه ! ، ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان ، وعن الخور الحسان » . وقال بعض الأكابر : « إنما يستوحش الإنسان من نفسه خلوة ذاته عن الفضيلة ، فبملاقة الناس ومخالطتهم يفرح ويتردد الوحشة من نفسه ، فإذا كانت ذاته فاضلة ، طلب الوحدة ليستعين بها على الفسكرة ، ويستخرج العلم والحكمة » ، ومن هنا قيل : (الاستيناس بالناس من علامات الافلاس) .

فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والانس بالله ، وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله ، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة ، فإن غاية العبادات وثمرتها المجاهدات أن يموت الانسان محباً لله ، عارفاً بالله ، ولا محبة إلا بالانس الحاصل بدوام الذكر ، ولا معرفة إلا بدوام الفكر ، وفراغ القلب شرط لسلك منهما ، ولا فراغ مع المخالطة .

فإن قلت : لا منافاة بين المخالطة مع الناس والانس بالله ، ولذا كان الأنبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والانس .

قلنا : لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً ، والاقبال التام على الله سرّاً ، إلا قوة النبوة . فلا ينبغي أن يعتزل ضعيف بنفسه ، فيطمع في ذلك . ثم ، بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين ، فإن ما ورد في فضيلة العزلة إنما هو بالنظر الى بعض الناس ، وما ورد في فضيلة المخالطة إنما هو بالنظر الى بعض آخر .

ومنها :

السخط

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الإلهية والتقديرية الربانية ، ويرادفه الانكار والاعتراض ، وهو من شعب الكراهة لأفعال الله ، وهو يتنافى الايمان والتوحيد . وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقع القضاء والقدر ، والغافل عن موارد الحكم والمصالح ، والاعتراض والانكار ، والسخط لأفعال الخالق الحكيم العليم الخبير ، وانى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه ، ولعمري ! أن من يعترض على فعل الله فهو أشد الجاهل ، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقد ورد في الخبر القدسي : « خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن خلقت له الخير

وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقتة للشر وأجريت الشر على يديه ،
 وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف ! ، . وفي خبر قدسي آخر : « أنا الله لا إله
 إلا أنا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر على نعمائي ، ولم يرض بقضائي ، فليتخذ
 رباً سواي . وفي مناجاة موسى : « أي رب ! أي خلقتك أحب اليك ؟ قال : من إذا
 أخذت منه المحبوب سامني . قال : فأى خلقتك أنت عليه مناخط ؟ قال : من يستخيرني
 في الأمر ، فإذا قضيت له سخط قضائي ، . وفي الخبر القدسي : « قدرت
 المقادير ، ودبرت التدبير ، وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا مني
 حين يلقاني ، ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني ، . وقال الباقر عليه السلام :
 « ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء ، وأحبط الله أجره ، . وقال الصادق
عليه السلام : « كيف يكون المؤمن مؤمناً ، وهو يسخط قسمته ، ويحقر منزلته ،
 والحاكم عليه الله ، وأنا الضامن لمن لم يهتس في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله
 فيستجاب له ، وفي بعض الأخبار : « أن نبياً من الأنبياء شكى الى الله - عز وجل -
 الجوع والفقر والعري عشر سنين ، فما أجيب اليه ، ثم اوحى الله - تعالى -
 اليه : كم تشكو ؟ وهكذا كان بدوك عندي في ام الكتاب قبل ان اخلق
 السماوات والأرض ، وهكذا سبق لك مني ، وهكذا قضيت عليك قبل ان
 اخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من اجلك ؟ أم تريد أن ابدل ما
 قدرته عليك ، فيسكون ما تحب فوق ما احب ، ويكون ما تريد فوق ما اريد ؟
 وعزتي وجلالي ! أن تلجج هذا في صدرك مرة اخرى ، لأخونك من ديوان
 النبوة ، (١) . وروى انه : « اوحى الله - تعالى - إلى داود عليه السلام : تريد واريد
 وإنما يكون ما اريد ، فان اسلمت لما اريد كفييتك ما تريد ، وإن لم تسلم

(١) صحنا هذا الحديث ، وكذا الأخبار القدسية ، السابقة ، على (احياء العلوم) :

لما اريد اتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما اريد ، (١) .

وبالجملة : من عرف أن العالم بجميع اجزائه ، من الجواهر والاعراض ، صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية . وأنها النظام الاصلح الذي لا يتصور فوقه نظام ، ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الاصلحية والخيرية ، وعرف الله بالربوبية ، وعرف نفسه بالعبودية ، يعلم أن السخط والاعراض وعدم الرضا بشيء مما يرد ، ويكون غاية الجهل والخطر ، ولذلك لم يكن احد من الانبياء أن يقول قط في أمر : ليت كان كذا ، حتى قال بعض اصحاب النبي ﷺ : « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي شيء فعلته : لم فعلت ، ولا لشيء لم افعله : لم لم تفعله ، ولا قال في شيء كان : ليته لم يكن ، ولا في شيء لم يكن : ليته كان ، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله ، يقول : دعوه ، لو قضى شيء لسكان ، . وروى : « أن آدم ﷺ كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، ويجعل أحدهم رجلية على اضلاعه كهيئة الدرج ، فيصعد الى رأسه ، ثم ينزل على اضلاعه كذلك ، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ، ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده : يا أبت ! أما ترى ما يصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا ، فقال : يا بني ! إني رأيت ما لم تروا ، وعليت ما لم تعملوا ، إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار السكرامة الى دار الهوان ، ومن دار النعيم الى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك حركة اخرى فيصيبني ما لا اعلم ، (٢) .

(١) صححنا هذا الحديث ، وكذا ما روي قبله من أهل البيت - عليهم السلام - على (اصول

الكافي) : ج ٢ - باب الرضا بالقضاء - وعلى (سفينة البحار) : ١ / ٢٢٤ .

(٢) صححنا الحديث على (احياء العلوم) : ٤ / ٢٩٥ .

فصل

الرضا - فضيلة الرضا - رضا الله - رد انكار تحقق الرضا - هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا - طريق تحصيل الرضا - التسليم .

* * *

ضد السخط (الرضا) ، وهو ترك الاعتراض والسخط باطنياً وظاهراً ، قولاً وفعلاً ، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها ، إذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه ، وصاحب الرضا يستوى عنده الفقر والغنى ، والراحة والعناء ، والبقاء والفناء ، والعز والذل ، والصحة والمرض ، والموت والحياة ، ولا يرجح بعضها على بعض ، ولا يثقل شيء منها على طبيعه ، إذ يرى صدور الكل من الله - سبحانه - ، وقد رسخ حبه في قلبه ، بحيث يحب افعاله ، ويرجح على مراده مراده - تعالى - ، فيرضى لكل ما يكون ويرد . وروى : « أن واحداً من ارباب الرضا عمر سبعين سنة ، ولم يقل في هذه المدة لشيء كان : ليته لم يكن ، ولا لشيء لم يكن : ليته كان » . وقيل لبعضهم : « ما وجدت من آثار الرضا في نفسك ؟ فقال : ما في راحة من الرضا ، ومع ذلك لو جعلني الله جسراً على جهنم ، وعبر عليه الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة ، ثم يلقوني في النار ، وملائي جهنم ، لأحببت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه ، ولم يختلج بيالي أنه لم كان كذا ، ولبت لم يكن كذا ، ولم هذا حظي وذاك حظهم » . وصاحب الرضا ابدأ في روح وراحة ، وسرور وبهجة ، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا ، وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية ، وسر الحكمة الأزلية ، فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهو اه . وفائدة الرضا ، عاجلاً ، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم ، وآجلاً ، رضوان الله والنجاة من غضبه - تعالى - .

فصل

(فضيلة الرضا)

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين ، وأشرف منازل المقربين ، وهو باب الله الأعظم ، ومن دخله دخل الجنة . قال الله - سبحانه - :

« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » (١)

وعن النبي ﷺ : « أنه سأل طائفة من أصحابه : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون ، فقال : ما علامة إيمانكم ؟ فقالوا : نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : مؤمنون ورب الكعبة ! » ، وفي خبر آخر ، قال : « حكاء علماء كادوا من فقهم أن يكونوا أنبياء » . وقال - صلى الله عليه وآله - : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتبه ، فإن رضى اصطفاه » . وقال ﷺ : « أعطوا الله الرضا من قلوبكم ، تطفروا بثواب فقرم » . وقال ﷺ : « إذا كان يوم القيامة ، أنبت الله - تعالى - لطائفة من امتي أجنحة ، فيطرون من قبورهم إلى الجنان ، يسرحون فيها ، ويتنعمون فيها كيف شاؤوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حساباً ، فتقول لهم : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطاً ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئاً ، فتقول الملائكة : من أمة من أنتم ؟ فيقولون : من أمة محمد ﷺ ، فتقول : ناشدناكم الله ! حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا ، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فيقولون : وما هما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ، ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول

(١) المائدة ، الآية : ١٤٢ . التوبة ، الآية : ١٠١ . المجادلة ، الآية : ٢٢ .

الملائكة : يحق لكم هذا ، وقال الصادق عليه السلام : « إن الله بعدله وحكمته
وعلمه ، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله - تعالى - ، وجعل الهم
والحزن في الشك والسخط ، . وروى : « أن موسى عليه السلام قال : يا رب !
دلني على امر فيه رضاك . فقال - تعالى - : إن رضاى فى رضاك بقضائى .
وروى : « أن بنى اسرائيل قالوا له عليه السلام : سئل لنا ربك امرأ إذا نحن فعلناه
يرضى عنا ، فقال موسى عليه السلام : إلهى ! قد سمعت ما قالوا ، فقال : يا موسى !
قل لهم يرضون عنى حتى ارضى عنهم ، (١) . وقال سيد الساجدين عليه السلام :
« الصبر والرضا رأس طاعة الله ، ومن صبر ورضى عن الله فيما قضى عليه
فيما أحب او كره ، لم يقض الله - عز وجل - له فيما أحب او كره إلا ما هو
خير له ، . وقال - صلوات الله عليه - : « الزهد عشرة اجزاء ، أعلى درجة
الزهد أدنى درجة الورع ، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين ، وأعلى درجة
اليقين أدنى درجة الرضا . وقال الباقر عليه السلام : « أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله
- عز وجل - ، من عرف الله - عز وجل - . ومن رضى بالقضاء ، أتى عليه القضاء
وعظم الله أجره ، . وقال الصادق عليه السلام : « أعلم الناس بالله أَرْضَاهُمْ بِقَضَاءِ اللَّهِ ، .
وقال عليه السلام : « قال الله - عز وجل - : عبدي المؤمن ، لا أصرفه فى شيء إلا جعلته
خيراً له ، فليرض بقضائى ، وليصبر على بلائى ، وليشكر نعمائى ، اكتبه
يا محمد من الصديقين عندي ، . وقال عليه السلام : « عجزت لله المسلم لا يقضى الله
- عز وجل - له قضاء إلا كان خيراً له ، إن قرض بالمقاريض كان خيراً
له ، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له ، . وقال عليه السلام : « إن
فيما أوحى الله - عز وجل - الى موسى بن عمران - عليه السلام - : يا موسى
ابن عمران ! ما خلقت خلقاً أحب إلي من عبدي المؤمن ، وإنى
إنما ابتليته لما هو خير له ، وعافيه لما هو خير له ، وازوى عنه لما هو خير له ،

(١) صححنا الأحاديث على (أحياء الملوم) : ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦

وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي ، فليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي ، وليرض بقضائي ، اكتبه في الصديقين عندي ، إذا عمل برضاي واطاع امرى .
وقيل له عليه السلام : بأى شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن ؟ قال : « بالتسليم لله ، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط » . وقال الكاظم - عليه السلام - :
« ينبغي لمن غفل عن الله ، ألا يستبطنه في رزقه ، ولا يتممه في قضائه » (١) .

وصل

(رضا الله)

قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة : أن رضا الله - سبحانه - من العبد يتوقف على رضا العبد عنه - تعالى - ، فمن فوئد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله - سبحانه - عنه ، وهو اعظم السعادات في الدارين ، وليس في الجنة نعيم فوقه ، كما قال - سبحانه - :

« وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَّرِضْوَانٌ

مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » (٢) .

وفي الحديث : « إن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة ، فيقول لهم : سلوني ، فيقولون : رضاك يا ربنا ! » ، فسؤالهم الرضا بعد التجلي ، يدل على أنه أفضل كل شيء . وورد في تفسير قوله - تعالى - : « ولدينا مزيد » : أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها :

أحداها : هدية الله ، ليس عندهم في الجنان مثلها ، وذلك قوله - تعالى - :

(١) صححنا الأحاديث على (اصول الكافي) ج ٢ - باب الرضا بالقضاء . وعلى (سفينة

(٢) التوبة ، الآية : ٢٣ .

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (١)
 والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فزيد ذلك على الهدية ، وهو
 قوله - تعالى - :

« سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » (٢)

والثالثة : يقول الله - تعالى - : « إني عنكم راض ، ، وهو أفضل من
 الهدية والتسليم ، وذلك قوله - تعالى - :

« وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » (٣) : أي من النعيم الذي هم فيه .
 ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له ، إلا أنه في الآخرة
 سبب لدوام النظر والتجلى في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة . ولهذا
 ليست رتبة في الجنة فوقه . ويروه أهل الجنة اقصى الاماني ، وغاية الغايات .

فصل

(رد انكار تحقق الرضا)

من الناس من أنكر امكان تحقق الرضا في انواع البلاء وفيما يخالف
 الهوى ، وقال المتمكن فيهما : هو الصبر دون الرضا ، وهو إنما اتى من ناحية
 انكار المحبة ، إذ بعد ثبوت امكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى ايجابه
 للرضا بافعال المحبوب . وذلك يكون من وجهين :
 أحدهما - أن يوجب الاستغراق في الحب ابطال الاحساس بالألم ،
 حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ولا
 تستبعدن ذلك ، فان المحارب عند خوضه في الحرب ، وعند شدة غضبه أو

(١) السجدة ، الآية : ١٧ . (٣) التوبة ، الآية : ٧٣ .

(٢) يس ، الآية : ٥٨ .

خوفه ، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها ، فاذا رأى الدم استدل به على الجراحة ، بل الذى يهدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه ، ولا يحس بالمها لشغل قلبه . والسر : أن القلب اذا صار مستغرقا بامر من الأمور ، لم يدرك ما عداه . فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة الممشوق أو بحبه ، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغم ، لو لا عشقه ، ولا يدرك ألمه وغمه لا ستيلاه الحب على قلبه ، وهذا اذا اصابه من غير حبيبه ، فكيف اذا اصابه من حبيبه . ولا ريب في أن حب الله - تعالى - أشد من كل حب ، وشغل القلب به اعظم الشواغل ، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ، فمن ينكشف له شيء منها ، فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ، ولا يحس بما يجرى عليه .

وثانيتها - الا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالالم ولا يدركه ، ولكن يكون راضياً به ، بل راغباً فيه ، مريداً له بعقله ، وان كان كارهاً له بطبعه ، كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة ، فإنه يدرك ألمه ، إلا أنه راض به وراغب فيه . فالحب الخالص لله ، اذا اصابته بلية من الله ، وكان على يقين بأن ثوابها الذى ادخر له فوق ما فاته ، رضى بها ورغب فيها ، وأحبها وشكر الله عليها . هذا إن كان نظره إلى الثواب والأجر الذى يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا . وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً ، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق ، فضلاً عن حب الخالق والجمال الأزلى الأبدى الذى لا ينتهى لكمال المدرك بعين البصيرة التى لا يمتريها الغلط والخطأ ، فإن القلوب اذا وقفت بين جماله وجلاله ، فاذا لا حظوا جلاله هابوا ، واذا لا حظوا جماله تاهوا .

ويشهد بذلك حكايات المحبين ، على ما هو في السكتب مسطور ، وفي الألسنة والأفواه مذكور . فان للحب عجائب ، من لم يذق طعمها لا يعرفها . وقد روينا : أن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر الى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا اذا جاعوا نظروا إلى وجهه ، فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع . بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة ايديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله ، حتى ما احسن بذلك . وروى : أن عيسى عليه السلام مرّ برجل اعمى وابرص ، مقعد مفلوج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثير من الناس ! فقال عيسى : يا هذا ! أى شيء من البلاء تراه مصروفا عنك ؟ فقال : يا روح الله ! انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته ، فقال : صدقت ! هات يدك ، فناوله يده ، فاذا هو أحسن الناس وجهاً ، وفضلهم هيئة ، قد اذهب الله عنه ما كان به ، وصحب عيسى وتعبده . .

فصل

(هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا)

اعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا ، وكذلك كراهية المعاصي ، ومقت أهلها ، وحسم اسبابها ، والسعي في ازالتها بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي . وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور : أن جميع ذلك يخالف الرضا ، إذ كل ما يقصده بالدعاء وانواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره ، فيجب للمؤمن أن يرضى به . وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاماً من مقامات الرضا ، وسموه حسن الخلق ، وهذا جهل بالتأويل ، وغفلة عن أسرار الشريعة ودقائقها . أما الدعاء ، فلا ريب في أننا قد تعبدنا به ، وقد كثرت ادعية الانبياء

والأئمة ، وكانوا على أعلى مقامات الرضا ، وتظاهرت الآيات ، وتواترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه ، واثني الله - سبحانه - على عباده الداعين ، حيث قال :

« وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » (١) . وقال « أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » (٢) . وقال : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » (٣) .

وهو يوجب صفاء الباطن ، وخشوع القلب ، ورقة النظر ، وتنوير النفس وتجليها . وقد جعله الله - تعالى - مفتاحا للكشف ، وسبباً لتواتر مزايا اللطف والاحسان . وهو أقوى الأسباب لإفاضة الخيرات والبركات من المبادئ العالية .

فإن قيل : ما يرد على العبد من المكروه والبلايا يكون بقضاء الله وقدره ، والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقاً ، فالتشمر لرده بالدعاء يناقض الرضا .

قلنا : إن الله - سبحانه - بعظيم حكمته ، أوجد الأشياء على التسبب والترتيب بينهما ، فربط المسببات بالأسباب ، ورتب بعضها على بعض ، وجعل بعضها سبباً وواسطة لبعض آخر ، وهو مسبب الأسباب . والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من أسبابها المعينة بحسب أوقاتها ، مطابقة لما في القضاء ، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلي على الوجه السلكي ، مطابقة لما في العناية الإلهية المسماة بالعناية الأولى ،

(١) الأنبياء ، الآية : ٩٠ . (٣) البقرة ، الآية : ١٨٦ .

(٢) المؤمن ، الآية : ٦٠ .

والعناية عبارة عن احاطة علم الله - تعالى - بالكل على ما هو عليه احاطة تامة، فنسبة القضاء إلى العناية كنسبة القدر إلى القضاء . ثم ، من جملة الاسباب لبعض الامور الدعاء والتصديق وأمثالها. فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الاسباب لازالة العطش ، ولولم يشربه لكان عطشه باقياً الى أن يؤدي الى هلاكه ، وشرب المسهل سبب لدفع الاخلاق الرديئة ، ولولم يشربه لبقيت على حالها ، وهكذا في سائر الاسباب ، وكذلك الدعاء سبب رتبه الله - تعالى - لدفع البلايا ورفعها ، ولولم يدع لنزل البلاء ولم يندفع .

فلو قيل : لو كان في علم الله - تعالى - وفي قضااته السابق ، أن زيدا - مثلاً - يدعو الله ، أو يتصدق ، عند ابتلائه ببليّة كذا ، وتندفع به بليته لدعاء أو تصديق ، ودفع بليته ، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلى بتلك البليّة ، لم يدع الله ، ولم يتصدق ، ولم تندفع عنه البليّة . والحاصل : أن كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الأزلي يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير ، إن خيراً نفي ، وإن شراً فشر ، فأى فائدة في سعي العبد واجتهاده ؟

قلنا : هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبوراً في فعله ونفي الاختيار عنه ، ولا مدخلة لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا ، وكونه من جملة الاسباب المرتبة منه - تعالى - لحصول مسيئاتها ، كالتزويج لتحصيل الولد ، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش ، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد ، وغير ذلك . ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذکور في موضعها .

وأما انكار المعاصي وكرهاتها ، والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه ، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها ، فقال :

« وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُطْمَأْنِنُوا بِهَا » (١) . وقال :
 « رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ » (٢) .

وفي بعض الأخبار : « من شهد منكراً ورضى به فكأنه قد فعله » .
 وفي آخر : « لو أن عبداً قتل بالشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب ، كان
 شريكاً في قتله » . وفي آخر : « إن العبد لينيب عن المنكر ويكون عليه مثل
 وزير صاحبه » ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : « فيبلغه فيرضى به » .
 وأما بعض الكفار والفجار والفساق ، ومقتهم والانكار عليهم ، فما
 ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى . قال الله - سبحانه - :
 « لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ » (٣) . وقال :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
 أَوْلِيَاءَ » (٤) .

وفي الخبر : « إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق » .
 وقال ﷺ : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » . وقد
 تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله .
 فإن قيل : المعاصي إن لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في
 التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله مطلقاً فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله .
 والآيات والأخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقاً ، وذلك تناقض ،

(١) يونس ، الآية : ٧ . (٣) آل عمران ، الآية : ٢٨ .

(٢) التوبة ، الآية ٨٨ ، ٩٤ . (٤) المائدة ، الآية : ٥٤ .

فكيف السبيل الى الجمع؟ وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟
قلنا: المقرر عند بعض الحكماء: أن الشرور الواقعة في العالم، من
المعاصي وغيرها، راجعة الى الأعدام دون الموجودات، فلا تكون مرادة له
- تعالى -، ولا داخلة في قضائه، وعند بعضهم أنها داخلة في قضائه بالعرض
لا بالذات، ولا ضير في كراهة ما ليس في قضاء الله - تعالى - بالذات. وعند
بعضهم: أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا، فينبغي أن تكون
مكروهة من حيث ذاتها، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاء الله والرضا
به، وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة. والتحقيق: أن الأوصاف
الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم، اعنى أنها راجعة الى الأعدام وداخلة
في قضائه - تعالى - بالعرض، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى
هذا فوجه الجمع أظهر. ثم لأبي حامد الغزالي هنا وجه جمع آخر، لا يروى
الغليل ولا يشفى الغليل.

فإن قيل: بغض اهل المعاصي ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار
لهم وتمسكهم من تركها، واثبات ذلك مشكل.

قلنا: لا اشكال فيه، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في
افعالهم، لا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي.
فالأولى فيها السكوت، والتأدب بأداب الشرع، والرجوع الى ما ورد من
العترة الطاهرة. وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى
بـ (جامع الأفكار).

فصل

(طريق تحصيل الرضا)

الطريق الى تحصيل الرضا: أن يعلم أن ما قضى الله - سبحانه - له هو الأصلح

بحاله ، وإن لم يبلغ فهمه الى سيره فيه . مع أن السخط والكراهة لا يفيد شيئاً ولا يتبدل به القضاء . فإن ما قدر يكون ، وما لم يقدر لم يكن ، وحسرة الماضي وتديير الآتى يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة ، وتبقى تبعه السخط عليه . فينبغي أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالالم ، كما للعاشق ، وأن يهون عليه العلم بمعظم الثواب التعب والعناء - كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر - فيفوض امره الى الله ، إن الله بصير بالعباد .

تصميم

(التسليم)

اعلم أن التسليم ، ويسمى تفويضاً ايضاً ، قريب من الرضا ، بل هو فوق الرضا ، لانه عبارة عن ترك الأعراض في الأمور الواردة عليه ، وحوالتها باسرها الى الله ، مع قطع تعلقه عليها بالكلية ، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقاً بشيء منها . فهو فوق الرضا ، إذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه ، فالطبع ملحوظ ومنظور له ، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة الى الله - سبحانه - ، وفوق مرتبة التوكل ايضاً ، إذ التوكل - كما يأتي - عبارة عن الاعتماد في امور على الله ، فهو بمنزلة توكيل الله في امور ، وكأنه يجعل الله - تعالى - بمثابة وكيله ، فيكون تعلقه باموره باقياً ، وفي مرتبة التسليم بقطع العلاقة من الأمور المتعلقة به بالكلية .
ومنها :

الحزن

وهو التحسر والتألم ، لفقد محبوب ، أو فوت مطلوب . وهو ايضاً ، كالأعراض والانكار ، مترتب على الكراهة للمقدرات الإلهية .

والفرق : أن الكراهة في الاعتراض أشد من الكراهة في الحزن ، كما أن ضد الكراهة - أعني الحب في ضدهما - بعكس ذلك ، أي ظهوره في السرور الذي ضد الحزن أشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض . فإن الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح ، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط . فالسرور فوق الرضا في الشرافة ، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والرذالة ، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتبهات الطبيعية ، والميل الى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة ، وتوقع البقاء للامور الجسمانية . وعلاجه : أن يعلم أن ما في عالم الكون والفساد من : الحيوان ، والنبات ، والجماد ، والعروض ، والاموال ، في معرض الفناء والزوال ، وليس فيها ما يقبل البقاء ، وما يبقى ويدوم هو الامور العقلية ، والسمكالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المسكان وتصرف الاضداد وتطرق الفساد . واذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة ، والاماني الباطلة . فلا يتعلق قلبه بالاسباب الدنيوية ، ويتوجه بشرائره الى تحصيل السمكالات العقلية ، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية ، والمجاورة للانوار القادسة الثابتة ، فيصل الى مقام البهجة والسرور ، ولا تلحقه احزان عالم الزور ، كما اشير اليه في المكتاب الإلهي بقوله :

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) .

وفي أخبار داود عليه السلام : « يا داود ! ما لاوليائي وهم بالدنيا ؟ إن لهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، إن محبي من اوليائي أن يسكنوا روحانيين لا يفتنون » . والحاصل : أن حب الفانيات والتعلق بما من شأنه

الفوات خلاف مقتضى العقل ، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الأمور
الفانية ، أو يحزن بزوالها . ولقد قال سيد الأوصياء - عليه آلاف التحية
والثناء - : « ما لعلّ وزينة الدنيا ؟ وكيف افرح بلذة تقنى ، ونعيم لا يبقى ؟ » .
بل ينبغي أن يرضى نفسه بالموجود ، ولا يغمّ بالمفقود ، ويكون راضياً بما
يرد عليه من خير وشر . وقد ورد في الآثار : « أن الله - تعالى - بحكمته
وجلاله ، جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين ، ، ومن رضى بالموجود
ولا يحزن بالمفقود ، فقد فاز بأمن بلا فزع ، وسرور بلا جزع ، وفرح بلا
حسرة ، ويقين بلا حيرة ، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من
سائر طبقات الناس ، فإن كل حزب بما لديهم فرحون ، كالتاجر بالتجارة ،
والزارع بالزراعة ، بل الشاطر بالشطارة ، والقواد بالقيادة . مع أن ما هو السبب
والموجب المفرح فى الواقع ونفس الامر ليس إلا لأهل السعادة والكمال ،
وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال . فينبغى لطالب السعادة أن يكون
فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية ، والسعادات الأبدية ، ولا يحزن على
فقد الزخارف الدنيوية ، والحطام الطبيعية ، ويتذكر ما خاطب الله به
نبيه ﷺ :

« وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » (١) .

ومن تصفح فرق الناس ، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشىء من
الأشياء ، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم . فالصبيان فرحهم باللعب

وتهيئة أسبابه ، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم .
 والبالغون حد الرجولية ، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار ، وبعضهم بالضياح
 والعقار ، وآخر بالاتباع والأنصار ، وفرقة بالنسوان والأولاد ، وطائفة
 بالحرف والصنایع ، وبعضهم بالحسب والنسب ، والآخر بالجاه والمنصب ،
 وبعضهم بالقوة الجسمانية ، وآخر بالجمال الصورى ، وطائفة بالسكالات
 الدنيوية : كالخط ، والشعر ، وحسن الصوت ، والطب ، والعلوم الغربية ،
 وغير ذلك ، حتى ينتهى الى من لا يفرح إلا بالسكالات النفسية والرياسات
 المعنوية ، وهم أيضاً مختلفون ، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة ، وآخر
 بمعرفة حقائق الأشياء ، حتى يصل الى من ليس فرحه إلا بالأنس بحضرة
 الربوبية ، والاستغراق في لجة أنواره ، وسائر المراتب عنده في زائل
 وخيال باطل . ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أن يفرح ويتبهج به
 حصول هذه المرتبة وسائر الأمور ، كسراب ببيعة يحسبه الظمان ماء . فلا
 ينبغي للعاقل أن يحزن بفقدائها ويفرح بوجودها . ثم ، من تأمل ، يجد أن الحزن
 ليس أمراً وجودياً لازماً ، بل هو أمر اختياري يحدثه الشخص في نفسه
 بسوء اختياره . إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجوداً لكثير
 من الناس ، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلاً ، ومع ذلك لا تجدهم
 حزونين على عدمه ، بل فرحون راضون ، ولو كان الحزن لازماً لفقد هذا الأمر ،
 لكان كل من فقده حزوناً ، وليس كذلك . وإيضاً كل حزن يعرض لأجل
 مصيبتة يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور ، ولو كان الحزن لأجلها أمراً
 ضرورياً لازماً لما زال أصلاً .

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الأمور الدنيوية ، مع أنه
 يعلم أن الدنيا دار الفناء ، وزخارفها متنقلة بين الناس ، ولا يمكن بقاؤها

لأحد ، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل الى الناس على سبيل التبادل والتناوب . ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب ، يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم ، ثم يعطيها غيره . فطامع البقاء للحطام الدنيوية ممن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به ، إذا وصلت اليه نوبة الاستمتاع ، وإذا استردت منه عرض له الحزن والحجلة . وما المال والأهلون إلا ودائع ، ولا بد يوماً أن ترد الودائع . فلا ينبغي للعاقل أن يغم ويحزن لأجل ردّ الوديعة ، كيف والحزن بردها كفران للنعمة ؟ إذ أقل مراتب الشكر أن تردّ الوديعة الى صاحبها على طيب النفس ، لا سيما إذا استرد الأخص - أعني الخبائث الدنيوية - ، وبقي الأشرف - أعني النفس وكالاتها العملية والعملية - ، فينبغي لكل عاقل ألا يعلق قلبه بالأمور الفانية ، حتى لا يحزن بفقدائها . قال سقراط : « إنى لم أحزن قط ، إذ ما أحببت قط شيئاً حتى أحزن بفوته ، ومن سره ألا يرى ما يسوؤه ، فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً ، .

ومنها :

عدم الاعتماد

أو ضعفه في أموره على الله ، والثوق بالوسائط ، والنظر اليها فيها . وسببه : إما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، أو كلاهما . فهو من رذائل قوتي العاقلة والغضب . ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة ، وينافي الإيمان ، بل هو من شعب الشرك . ولذا ورد في ذمه من الآيات والأخبار ما ورد ، قال الله - سبحانه - :

« إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمِّثَالِكُمْ » (١).
 وقال : « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
 لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ » (٢).
 وقال : « وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » (٣).

وفي اخبار داود عليه السلام : « ما اعتصم عبد من عبادى بأحد من خلقى
 عرفت ذلك من نيته ، إلا قطعت اسباب السماوات من يديه ، واستخطت
 الأرض من تحته ، ولم ابال بأى وادهلك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
 اغتر بالعبيد أذله الله . وقيل : « مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته
 بانسان مثله . فينبغى للمؤمن أن يتخلى عنه باكتساب ضده ،
 أعنى التوكل ، كما يأتى .

وصل

التوكل - فضيلة التوكل - درجات التوكل - السعى لا ينافى التوكل -
 الأسباب التى لا ينافى السعى اليها التوكل - اعقل وتوكل - درجات الناس فى
 التوكل - تفهيد زعم - طريق تحصيل التوكل .

* * *

التوكل اعتماد القلب فى جميع الأمور على الله ، وبعبارة اخرى :
 حوالة العبد جميع أموره على الله ، وبعبارة اخرى : هو التبرى من كل حول

(٣) المنافقون ، الآية : ٧ .

(١) الأعراف ، الآية : ١٩٣ .

(٢) العنكبوت ، الآية : ١٧ .

وقوة ، والاعتماد على حول الله وقوته . وهو موقوف على أن يعتقد اعتقاداً
 جازماً بأنه لا فاعل إلا الله ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن له
 تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة
 العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء
 منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته عناية . فمن اعتقد ذلك
 اتكل قلبه لا محالة على الله وحده ، ولم يلتفت الى غيره ، ولا إلى
 نفسه اصلاً . ومن لم يجد ذلك من نفسه ، فسببه إما ضعف اليقين ،
 أو ضعف القلب ، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام
 الغالبة عليه . فإن القلب الضعيف ينزعج تبعاً للوهم ، وطاعة له من غير
 نقصان في اليقين ، كأنزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش ، مع يقينه
 بأنه جماد في الحال لا يتصور منه إضرار ، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفر
 عنه ، كما لا يفر من سائر الجمادات . وكذا من كان ضعيف القلب وتناول
 العسل - مثلاً - ، فشببه العسل بين يديه بالعدرة ، فربما نفر طبعه لضعف
 قلبه ، وتعذر عليه أن يتناوله ، مع يقينه بأنه عسل ولا مدخله للعدرة فيه .
 فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون
 القلب وطمانينته . فالسكون في القلب شيء آخر ، واليقين شيء آخر .
 فكم من يقين لا طمانينة معه ، كما قال - تعالى - :

« أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالِ: بَلَىٰ! وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنُّ قَلْبِي » (١).

فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله ، فإن
 النفس تتبع الخيال وتطمئن به ، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره إلى أن

تبلغ درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون في البداية . وكم من مطمئن لا يقين له ، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة . فإن اليهودى مطمئن القلب الى تهوؤده ، وكذا النصراني ، ولا يقين لهما أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس . وإذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب ، وارتفع بضعف احدهما ، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والغضبية معاً ، وضده - اعنى عدم التوكل - من رذائل احدهما أو كليهما . ثم ، إنك قد عرفت في باب التوحيد ، أن عماد التوكل وما يبتنى عليه ، هو المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهى أن ينكشف للعبد باسراق نور الحق ، بأنه لا فاعل إلا هو ، وأن ما عداه من الأسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الازلية . فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل . وقد عرفت - ايضاً - أن المرتبة الثانية منه - اعنى التوحيد الاعتقادى - إذا قويت ربما اورثت حال التوكل ، إلا أن التوكل كما ينبغى موقوف على المرتبة الثالثة منه .

فصل

(فضيلة التوكل)

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين ، بل هو أفضل درجات الموقنين . ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة ، قال الله - تعالى - :

« وَاعْلَمِ اللَّهُ فَتَوْا كَلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (١).

وقال : « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (١) . وقال :
 « إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (٢) . وقال : « وَمَنْ
 يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (٣) . وقال : « وَمَنْ
 يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٤) :

أى عزيز لا يذل من استجار به ، فلا يضع من لاذ بجنابه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال رسول الله ﷺ : « من انقطع الى الله ، كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب . ومن انقطع الى الدنيا ، وكله الله اليها ، . وقال ﷺ : « من سره أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يده ، . وقال ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما ترزق الطيور ، تغدو خماساً وتروح بطناناً ، . وعن علي بن الحسين - عليهما السلام - قال : « خرجت حتى انتهيت الى هذا الحائط ، فانتكأت عليه ، فإذا رجل عليه ثوبان ابيضان ينظر في تجاه وجهي ، ثم قال : يا علي بن الحسين ! مالي أراك كئيباً حزيناً ؟ أعلى الدنيا ؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر . قلت : ما على هذا أحزن ، وإنه لسكا تقول . قال : فعلى الآخرة ؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر . قلت : ما على هذا أحزن ، وإنه لسكا تقول . فقال : مم حزنتك ؟ قلت : مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس . قال : فضحك ، ثم قال :

(١) آل عمران ، الآية : ١٣٢ ، ١٦٠ . المائدة ، الآية : ١٢ . التوبة ، الآية : ٥٢ .

ابراهيم ، الآية : ١٦ . المجادلة ، الآية : ١٠ . التغابن ، الآية : ١٣ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٥٩ . (٤) الانفال ، الآية : ٥٠ .

(٣) الطلاق ، الآية : ٣ .

يا على بن الحسين ! هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه ؟ قلت : لا ! قال : فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ! قال : فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا ! . . . ثم غاب عني ، ولعل الرجل كان هو الخضر - على نبينا وﷺ . وقال الصادق ﷺ : « اوحى الله الى داود : ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي ، عرفت ذلك من نيتته ، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن ، إلا جعلت له المخرج من بينهن . » وقال ﷺ : « إن الغنى والعز يجولان ، فإذا ظفرا بموضع التوكل اوطنا . » وقال ﷺ : « من أعطى ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً : من أعطى الدعاء أعطى الاجابة ، ومن أعطى الشكر أعطى الزيادة ، ومن أعطى التوكل أعطى الكفاية . » ثم قال : أتلوت كتاب الله - عز وجل - (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، وقال : (ولئن شكرتم لأزيدنكم) ، وقال : (ادعوني استجب لكم) ؟ . » وقال ﷺ : « أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله - تعالى - أقبل الله قبله ما يحب ، ومن اعتصم بالله عصمه الله ، ومن أقبل الله قبله وعصمه ، لم يبال لو سقطت السماء على الأرض ، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بليّة ، كان في حزب الله بالتقوى من كل بليّة ، أليس الله - تعالى - يقول : (إن المتقين في مقام أمين) ؟ . » وقال ﷺ : « إن الله - تعالى - يقول : وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي ! لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيري باليأس ، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ، ولأنخينه من قربي ، ولأبعدنه من وصلي ، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد يمدى ؟ ويرجو غيري ؟ ويقرع بالفكر باب غيري ، ويبدى مفاتيح الابواب وهي مغلقة ؟ وباب مفتوح لمن دعاني ، فمن ذا الذي املني لنوائبه فقطعته دونها ، ومن ذا الذي رجاني لعظيمه فقطعت

رجاهه مني ؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة ، فلم يرضوا بحفظي ، وملاّت سماواتي بمن لا يعمل من تسييحي ، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي ، فلم يشقوا بقولي ، ألم يعلم من طرفته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها احد غيري إلا من بعد اذني ؟ فما لي اراه لاهياً عني ؟ اعطيته بجودي ما لم يسألني ، ثم انتزعتة عنه فلم يسألني رده ، وسأل غيري ، أفتراني ابدأ بالعطاء قبل المسألة ؟ ثم اسأل فلا اجيب سائلني ؟ أبخيل أنا فيبخلني عبادي ؟ اوليس الجود والكرم لي ؟ أو ليس العفو والرحمة بيدي ؟ اولست أنا محل الآمال ؟ فمن يقطعها دوني ؟ أفلا يخشى المؤمنون أن يؤملا غيري ؟ فلو أن اهل سماواتي واهل ارضي أملاوا جميعاً ، ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ما امل الجميع ، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك أنا قيمه ؟ فيا بؤساً للقائنين من رحمتي ! ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني ! « (١) » .

فصل

(درجات التوكل)

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات :

الأولى - أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالاته كحال بالثقة بالوكيل ، وهذه اضعف الدرجات ، ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة ، ولا ينافي اصل التدبير والاختيار ، بل ربما زاول كثيراً من التدبيرات بسعيه

(١) صحننا الاحاديث على (اصول السكاف) : ج ٢ ، باب التفويض الى الله والتوكل

عليه وعلى (البجار) : باب التوكل والتفويض والرضا : ج ١٥ : ٢ / ١٥٣ ، ط (امين الضرب) * والعلامة (المجلسي) - قدس سره - في الموضوع المذكور ، في الحديث الخامس ، تحقيق دقيق وبيان لطيف ، لا يسمع المقام ذكره هنا ، فن اراد الوقوف عليه ، فعليه بمراجعة الموضوع المذكور .

واختياره . نعم ينأى بعض التدبيرات ، كالتوكل على وكيله في الخصومة ، فإنه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل ، واما لا يترك التدبير الذي اشار اليه وكيله ، ولا التدبير الذي عرفه من عاداته وسنته دون تصريح اشارته .

الثانية - أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه ، فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفرع إلا اليها ، ولا يعتمد إلا عليها . فإن رآها تعلق في كل حال بذيلها ، وإن ورد عليه امر في غيبتها كان اول سابق لسانه يا امه ! . والفرق بين هذا وسابقه ، أن هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله ، أى ليس يلتفت قلبه الى التوكل ، بل التفاته إنما هو الى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الاول فتوكل بالكسب والتكلف ، وليس فانياً عن توكله ، أى له التفات الى توكله ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . وهذا أقل وقوعاً ودواماً من الاول ، إذ حصوله إنما هو للخواص ، وغاية دوامه أن يدوم يوماً أو يومين ، وينأى التدبيرات ، إلا تدبير الفرع الى الله بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط .

الثالثة - وهى أعلى الدرجات ، أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل ، بأن يرى نفسه ميتاً ، وتحركة القدرة الأزلية كما يحرك الغاسل الميت . وهو الذى قويت نفسه ، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد . والفرق بينه وبين الثانى ، أن الثانى لا يترك الدعاء والتضرع ، كما أن الصبي يفرع الى امه ، ويصيح ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها ، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته ، فهذا مثال صبي علم أنه إن لم يرص بامه ، فالأم تطلبه ، وإن لم يتعلق بذيلها فهمي تحمله ، وإن لم يسأل اللبن فهمي تسقيه . ومن هذا القسم توكل ابراهيم الخليل

ﷺ لما وضع في المنجنيق ليرمى به الى النار ، و اشار اليه روح الأمين
 بسؤال النجاة والاستخلاص من الله - سبحانه - فقال : « حسبي من سؤالي
 عليه بحالي » . وهذا نادر الوقوع ، عزيز الوجود ، فهو مرتبة الصديقين ،
 واذا وجد فدوامه لا يزيد على صفرة الوجل ، أو حمرة الخجل ، وهو ينافي
 التدبيرات مادام باقياً ، إذ يكون صاحبه كالمبهوت . ثم ، توكل العبد على الله
 قد يكون في جميع اموره ، وقد يكون في بعضها . وتختلف درجات ذلك
 بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقتها . وقال الكاظم ﷺ في قوله - عز وجل - :

« وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (١) :

« التوكل على الله درجات ، منها أن تتوكل على الله في امورك كلها ، فما
 فعل بك كنت عنه راضياً ، تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً ، وتعلم أن الحكم في
 ذلك له ، فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه ، وثق به فيها وفي غيرها » .
 ولعل سائر درجات التوكل أن يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض ،
 وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقتها .

فصل

(السعي لا ينافي التوكل)

اعلم أن الامور الواردة على العباد إما أن تكون خارجة عن قدرة
 العباد ووسمهم ، بمعنى أنه لا تكون لها اسباب ظاهرة قطعية أو ظنية جالبها
 أو دفعها ، أو تكون لها اسباب جالبة لها أو دافعة اياها ، إلا أن العبد لا
 يتمكن منها .

فقتضى التوكل فيها ترك السعي بالتمحلات والتدبيرات الخفية ،
 وحوالتها على رب الأرباب ، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات ،

(١) الطلاق ، الآية : ٣ .

لكان خارجاً عن التوكل رأساً ، أو لا تكون خارجة عن قدرتهم ، بمعنى
 أن لها أسباباً قطعية أو ظنية يمكن للعبد أن يحصلها ويتوصل بها إلى جلبها أو
 دفعها . فالسعي في مثلها لا ينافي التوكل ، بعد أن يكون وثوقه واعتماده
 بالله دون الأسباب . فمن ظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك
 التدبير بالعقل رأساً ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، فقد أبعد
 عن الحق ، لأن ذلك محرم في الشرع الأقدس . فإن الشارع كلف الإنسان
 بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله إليها ، من زراعة ، أو تجارة ، أو
 صناعة ، أو غير ذلك مما أحله الله ، وبإبقاء النسل بالتزويج ، وكلفه بأن
 يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوسل إلى الأسباب المعينة لدفعها . وكما
 أن العبادات أمور أمر الله - تعالى - عبادة بالسعي فيها ، ليحصل لهم بها
 التقرب إليه والسفادات في دار الآخرة ، فكذلك طلب الحلال ودفع
 الضرر والالم عن النفس والأهل والعيال أمور أمرهم الله - تعالى - ، ليحصل
 لهم بها التوسل إلى العبادات وما يؤدي إلى التقرب والسعادة . ولكنه
 - سبحانه - كلفهم أيضاً بالآل يتقوا إلابه ، ولا يعتمدوا على الأسباب .
 كما أنه - سبحانه - كلفهم بالآل يتكفوا على أعمالهم الحسنة ، بل على فضله
 ورحمته . فعنى التوكل المأمور به في الشريعة : اعتماد القلب على الله في الأمور
 كلها ، وانقطاعه عما سواه . ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يسكن إليها ،
 وكان سكونه إلى الله - سبحانه - دونها مجوراً في نفسه أن يؤتمه الله مطلقاً
 من حيث لا يحتسب ، دون هذه الأسباب التي حصلها ، وأن يقطع الله هذه
 الأسباب عن مسبباتها .

فصل

(الأسباب التي لا ينافي السعى اليها التوكل)

الأسباب التي لا ينافي تحصيلها ومزاوتها للتوكل، هي الأسباب القطعية أو الظنية ، وهي التي يقطع أو يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنها ، سواء كانت جلب نفع أو لدفع ضرر منتظر أو لإزالة آفة واقعة ، وذلك كمد اليد الى الطعام للوصول الى فيه ، وحمل الزاد للسفر ، واتخاذ البضاعة للتجارة ، والوقاع لحصول الأولاد ، وأخذ السلاح للعدو ، والادخار لتجدد الاضطرار ، والتداوى لازالة المرض ، والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل ، وغلق الباب ، وعقل البعير ، وترك الطريق الذي يقطع أو يظن وجود السارقين أو السباع الضارة فيه وقس عليها غيرها .

وأما الأسباب الموهومة ، كالرقية ، والطيرة ، والاستقصاء في دقائق التدبير ، وابداء التحلات لأجل التبديل والتغيير ، فيبطل بها التوكل ، لأن امثال ذلك ليست بأسباب عند العقلاء ، وليست بما أمر الله - تعالى - بها ، بل ورد النهي عنها ، على أن المأمور به الاجمال في الطلب وعدم الاستقصاء . قال رسول الله ﷺ : « ألا إن الروح الأمين نفث في روعي : أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله - تعالى - ، واجملوا في الطلب ، . وقال ﷺ : « ما أجمل في الطلب من ركب البحر ، . وقال الصادق عليه السلام : « ليسكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع ، ودون طلب الحريص ، الراضى بدنياه ، المطمئن اليها ، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف ، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف ، وتمكتسب ما لا بد منه ، إن الذين

اعطوا المال ثم لم يشكروا الا مال لهم . . وقال ﷺ : « اذا فتحت بابك ، وبسطت بساطك ، فقد قضيت ما عليك . »

فصل

(إعقل وتوكل)

اعلم أن التوكل لا يبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة ، مع أن الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك ، لأن الله - سبحانه - ربط المسببات بالاسباب ، وأبى أن يجرى الأشياء إلا بالاسباب . ولذا لما أهمل الاعرابي بعيره ، وقال : توكلت على الله ، قال له النبي ﷺ : « إعقلها وتوكل . » وقال الصادق ﷺ : « اوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك . » وقال الله - تعالى - :

« خُذُوا حِذْرَكُمْ » (١) . وقال في كيفية صلاة الخوف :

« وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ » (٢) . وقال : « وَأَعِدُّوا

لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » (٣) .

وقال لموسى : « فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا » (٤) ، والتحصن بالليل

اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر .

وفي الاسرائيليات : « أن موسى بن عمران ﷺ اعتل بعملة ، فدخل

عليه بنو اسرائيل ، فعرفوا علمته ، فقالوا له : بلو تداويت بكذا البرئت ، فقال :

« لا اتداوى حتى يعافيني الله من غير دواء . فضالت علمته ، فأوحى الله اليه :

(١) النساء ، الآية : ٧٠ . (٢) الانفال ، الآية : ٦١ .

(٣) النساء ، الآية : ١٠١ . (٤) الدخان ، الآية : ٢٣ .

وعزتي وجلالي ! لا ابرؤك حتى تتداوى بما ذكره لك . فقال لهم : داووني بما ذكرتم . فداووه ، فبرىء . فاجس في نفسه من ذلك ، فوحي الله - تعالى - اليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي ، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟ . وروى : « أن زاهداً من الزهاد ، فارق الأمصار وأقام في سفح جبل ، فقال : لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي . فتعد سبعمائة ، فكاد يموت ، ولم يأته رزق ، فقال : يا رب ! إن احيمتني فأتني برزقي الذي قسمت لي ، وإلا فاقبضني إليك . فوحي الله - تعالى - اليه : وعزتي وجلالي ! لا أرزقك حتى تدخل الأمصار ، وتقع بين الناس . فدخل المصر فأقام ، فجاء هذا بطعام ، وهذا بشراب ، فاكل وشرب . فاجس في نفسه ذلك ، فوحي الله اليه : أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا ، أما علمت اني أرزق عبدي بأيدي عبادي احب الي من أن أرزقه بيد قدرتي ؟ . »

(فصل)

(درجات الناس في التوكل)

اعلم أن درجات الناس - كما عرفت - في التوكل مختلفة ، بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه ، وفي قوة التوحيد وضعفه : فمنهم : من كمل إيمانه ويقينه ، بحيث سقط وثوقه عن الأسباب الكليية ، وتوجه بشرائه الى الواحد الحق ، ولا يرى مؤثراً إلا هو ، وليس نظره الى غيره أصلاً ، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته ، بحيث لا يختلج بباله احتمال أن يكله ربه الى غيره ، ولا يعترى نفسه اضطراب أصلاً . فلا بأس لمثله أن يعرض عن الأسباب المقطوعة أو المظنونة بالكليية ، لأن الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح أموره ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، سواء

حصل الأسباب أم لا ، وسواء كسب أم لم يكتسب ، إلا أنه ربما لم يترك
السبب والكسب ويتبع امر الله فيه ، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون
السبب والكسب . وما ورد من حكايات بعض الكمل من الأولياء ، من
أنهم يسافرون في البوادي التي لا يطررها الناس بغير زاد ثقة بالله ، ويصل
اليهم الرزق ، أو لا يتحرزون من السباع الضارة ، أو يغلظون القول بالنسبة
الى أهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة ، اعتماداً
على الله ، والله - سبحانه - ينجيهم منهم ، كانوا منهم : أى من الكاملين
فى التوكل . قال الصادق عليه السلام : « أبى الله - عز وجل - أن يجعل أرزاق
المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون ، . وإنما خفصه بالمؤمنين ، لأن كمال
الايان يقتضى ألا يثق صاحبه بالأسباب وأن يتوكل على الله - عز وجل -
وحده . وكال الايمان إنما يكون لصاحب العلم الممكنون من الأنبياء والأولياء ،
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومنهم : من لم يبلغ قوة ايمانه ويقينه حيداً تغيب عن نظره الأسباب
والوسائط ؛ ويكون مقصور الالتفات الى جناب الحق . فهذا هو الذى
لا ينبغي له أن يعرض عن الأسباب ويتركها ، لأن مثله ليس له المظنة التي
توصله الى المقصد بدون الوسائط : اعنى قوة التوكل على الله واليقين به سبحانه .

فصل

(تفنيد زعم)

بعض الناس زعم : أن حق التوكل أن يكتفى بالأسباب الخفية عن
الأسباب الجلية ، كأن يسافر فى البوادي التي لا يطررها الناس بغير زاد ،
بعد أن راض نفسه على جوع الأسبوع وما يقاربه ، بحيث يهبر عنه من
غير ضيق قلب ، واضطراب نفس ، وتشويش خاطر ، وفتور فى ذكر الله ،

وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما يتفق له ، وأن
يوطن نفسه على أنه إن مات جوعاً كان خيراً له في الآخرة .
وكان يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب ، ويتفرغ للعبادة ،
والفكر والذكر ، واستغرق وقته بها ، بحيث لا يستشرف نفسه الى الناس في
انتظاره ومن يدخل فيحمل اليه شيئاً ، بل يكون قوى القلب في الصبر
والاتكال على الله . وهذا محض الخطأ ، إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث
يصبر على جوع الاسبوع ، ويمكنه التقوى بالحشيش ، صارت الاسباب له
جلية . فإن عدم الحاجة احد الغنائين . ثم إن كان اعتماده - حينئذ - على صبره
وتمكنه من التقوى بالحشيش ، فإين التوكل ؟ وإن كان وثوقه بالله وحده ، فليقيم
في بلده مع الاسباب ، كما أمر الله به في الشرع . وأما توطين نفسه باختياره
على الموت ، فممنوع عقلاً ، ومحرم شرعاً . قال الله - سبحانه - :

« وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » (١) .

وأما الجالس في بيته ، التارك لكسبه ، يعبد الله من دون طلب ،
فهو أيضاً قد ترك متابعة امر الله . قال الصادق - عليه السلام - : « إن من
يقوته أشد عبادة منه » . وربما يكون مثله كلا على الناس ، فإن حاله ينادى
بالبؤس واليأس ، بل هو ضرب على توطين الناس وتعرض للذل . وبالجملة
لا مدخل لخفاء الاسباب وجلائها في التوكل ، بعدما تقرر أن معناه الثقة بالله
وحده ، لا بالاسباب ، فسواء وجود الاسباب وفقدها وجلائها وخفائها .

فصل

(طريق تحصيل التوكل)

الطريق الى تحصيل التوكل — بعد تقوية التوحيد والاعتقاد ، بأن

(١) البقرة ، الآية : ١٩٥ .

الأمور بأسرها مستندة إليه سبحانه ، وليس لغيره مدخلة فيها - أن يتذكر الآيات والأخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه ، وكونه باعث النجاة والكفاية ، ثم يتذكر أن الله - سبحانه - خلقه بعد أن لم يكن موجوداً ، وأوجده من كتم العدم ، وهيأله ما يحتاج إليه ، وهو أرف بعبادته من الوالدة بولدها ، وقد ضمن بكفاية من توكل عليه ، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته ، ولا يوصل إليه ما يحتاج إليه ، ولا يدفع عنه ما يؤذيه ، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو . وينبغي أن يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الأرزاق إلى صاحبها ، وفي دفع البلايا والأسواء عن بعض عبده ، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في إهلاك أموال الأغنياء واذلال الأقياء ، وكَم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة ، وكَم من ذى مال وثروة هلكت بضاعته أو سرت وصار محتاجاً ، وكَم من قوى صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزاً ذليلاً بلا سبب ظاهر ، وكَم من ذليل عاجز قوياً واستولى على الكل . ومن تأمل في ذلك ، يعلم أن الأمور بيد الله ، فيلزم الاعتماد عليه والثقة به . والمناط أن يعلم أن الأمور لو كانت بقدره الله - سبحانه - من غير مدخلة للأسباب والوسائط فيها ، فعدم التوكل عليه - سبحانه - والثقة بغيره غاية الجهل ، وإن كانت لغيره - سبحانه - من الوسائط والأسباب مدخلة ، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وإنجاح الأمور ، إذ السمع والتجربة شاهدان بأن من توكل عليه وانقطع إليه كفاه الله كل مؤنة . فكأن شرب الماء سبب لازالة العطش ، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع ، فكذا التوكل سبب رتبته مسبب الأسباب لإنجاح المقاصد وكفاية الأمور . وعلامة حصول التوكل ، ألا يضطرب قلبه ، ولا يبطل سكونه بفقد أسباب نفسه

وحدوث اسباب ضره . فلو سرقت بضاعته ، أو خسرت تجارته ، أو تعوق أمر من اموره ، كان راضياً به ، ولم تبطل طمأنينته ، ولم تضطرب نفسه ، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً . فإن من لم يسكن الى شيء لم يضطرب بفقدته ، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن اليه واطمان به .
ومنها :

الكفران

(وضده الشكر)

الشكر - فضيلة الشكر - الشكر نعمة يجب شكرها - المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه - اقسام النعم واللذات - الأكل - لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل - عجائب المأكولات - حاجة تحضير الطعام الى آلاف الاسباب - تسخير الله التجار لجلب الطعام - نعم الله في خلق الملائكة للانسان - الاسباب الصارفة للشكر - طريق تحصيل الشكر - الصحة خير من السقم .

* * *

وبعد ما تعرف حقيقة الشكر ، وكونه متعلقاً باى القوى ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من ردائل القوى .

فنقول : الشكر هو عرفان النعمة من المنعم ، والفرح به ، والعمل بموجب الفرح باضمار الخير ، والتحميد للمنعم ، واستعمال النعمة في طاعته . أما المعرفة ، فبان تعرف أن النعم كلها من الله ، وأنه هو المنعم ، والوسائط مستخرات من جهته . ولو انعم عليك أحد ، فهو الذى سخره لك ، وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطراً الى الايصال اليك ، فمن عرف ذلك ، حصل أحد اركان الشكر لله ، وربما كان مجرد ذلك

شكراً ، وهو الشكر بالقلب . كما روى : « أن موسى قال في مناجاته : إلهي ! خلقت آدم بيديك ، وأسكنته جنتك ، وزوجته حواء أمتك ، فكيف شكرك ؟ فقال : علم أن ذلك مني ، فكانت معرفته شكراً . »

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد ، وهما داخلان فيها . إذ التقديس تزييه - سبحانه - عن صفات النقص ، والتوحيد قصر المقدس عليه ، والاعتراف بعدم مقدس سواه ، وهذه المعرفة هي اليقين بأن كل ما في العالم موجود منه ، والكل نعمة منه ، فينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « من قال : سبحان الله ، فله عشر حسنات ، ومن قال : لا إله إلا الله ، فله عشرون حسنة ، ومن قال : الحمد لله ، فله ثلاثون حسنة . » فسبحان الله : كلمة تدل على التقديس ، ولا إله إلا الله : كلمة تدل على التوحيد ، والحمد لله : كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق . ولا تظن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها ، بل هي بازاء الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف المعدودة من ابواب الايمان واليقين . واما الفرح بالمنعم ، مع هيئة الخضوع والتواضع ، فهو ايضاً من اركان الشكر . بل كما أن المعرفة شكر قلبي برأسه ، فهو ايضاً في نفسه شكر بالقلب ، وانما يكون شكراً إذا كان فرحه بالمنعم أو بالنعمة لا من حيث إنه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا ، بل من حيث إنه يقدر بها على التوصل الى القرب من المنعم ، والنزول في جواره ، والنظر الى وجهه على الدوام . وأما رته ألا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومعينه عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتضده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لذاتها ، بل من حيث إنها توصله الى مجاورة المنعم وقربه ولقائه . وأما

العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح . أما المتعلق بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما المتعلق باللسان فأظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه . وأما المتعلق بالجوارح ، فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى أن من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم ، ومن جملة شكر الاذنين أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم ، فيدخل هذا وامثاله في جملة شكر نعمة هذه الأعضاء . بل قيل : من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس ايضاً ، إذ الا بصر انما يتم بها ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويبقى بهما ما يضره فيهما . بل المراد من خلق السماء والأرض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول الى الله ، ولا وصول اليه إلا بمحبته والانس به في الدنيا ، والتجاني عن الدنيا وغورها ولذاتها وعلائقها ، ولا انس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء والنار ، ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الاشياء وكل ، ذلك لاجل البدن . والبدن مطية النفس . والنفس الراجعة الى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة . فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية . وإذا عرفت حقيقة الشكر ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران ، فإنه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله ، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث ايصالها الى القرب منه ، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم ، أو استعمالها فيما يكرهه .

ثم ، بما ذكرناه ، وإن ظهر أن حقيقة الشكر ملتزمة من الأمور الثلاثة ، إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد ايضاً ، كما قال الصادق عليه السلام : « شكر كل نعمة ، وإن عظمت ، أن تحمد الله ، وقال عليه السلام : « شكر النعم اجتناب المحارم ، وتمام الشكر قول الرجل : الحمد لله رب العالمين . وسئل عنه عليه السلام : « هل للشكر حد ؟ إذا فعله العبد كان شاكرأ ؟ قال : نعم ! قيل : ما هو ؟ قال : يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال ، وإن كان فيما انعم عليه في ماله حق أداه . ومنه قوله - جل وعز - :

« سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ

مُقْرِنِينَ » (١) . ومنه قوله - تعالى - : « رَبِّ أَنْزِلْ لِي مَنزِلًا مُبَارَكًا وَاَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ » (٢) . وقوله : « رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا » (٣) .

وقال عليه السلام : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ورد عليه أمر يسره ، قال : الحمد لله على هذه النعمة . وإذا ورد عليه أمر يعتم به ، قال : الحمد لله على كل حال . وقال عليه السلام : « إذا أصبحت وأمسيت ، فقل عشر مرات : اللهم ما أصبحت في من نعمة أو عافية في دين أو دنيا ، فمك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر بها علي يا رب ، حتى ترضى وبعد الرضا . فإنك إذا قلت ذلك ، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي

(٣) الاسراء ، الآية : ٨٠ .

(١) الزخرف ، الآية : ١٣ .

(٢) المؤمنون ، الآية : ٢٩ .

تلك الليلة . وفي رواية : « كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح ، فسمى بذلك عبداً شكوراً . » وقال عليه السلام : « إذا ذكر أحدكم نعمة الله ، فليضع خده على التراب شكراً لله ، فإن كان ركباً فلينزل وليضع خده على التراب ، وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه (١) ، وإن لم يقدر فليضع خده على كفه ، ثم ليحمد الله على ما انعم عليه . » وروى : « أن الصادق عليه السلام قد ضاعت دابته ، فقال : لن ردها الله عليّ لأشكرن الله حق شكره . » قال الراوى : فما لبث أن أتى بها ، فقال : « الحمد لله . » فقال قائل له : جعلت فداك ! أليس قلت لأشكرن الله حق شكره ؟ فقال ابو عبدالله عليه السلام : « ألم تسمعنى قلت : الحمد لله ؟ » (٢) . ثم الشكر باللسان لاظهار الرضا من الله ، ولذا أمر به . وقد كان السلف يتساءلون بينهم ، ويتهم استخراج الشكر لله ، ليوجر كل واحد من الشاكر والسائل . وقد روى : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل : كيف أصبحت ؟ فقال : بخير . فأعاد عليه السؤال ، فأعاد عليه الجواب ، فأعاد السؤال ثالثة ، فقال : بخير ، أحمد الله واشكره . » فقال صلى الله عليه وآله وسلم : هذا الذى أردت منك . »

(تنبيه) لا ريب فى أن الجزء الأول من الشكر — اعنى معرفة النعم من الله — من متعلقات العاقلة وفضائلها . والثانى — اعنى الفرح للنفس — إن كان من النعم العقلية الروحانية ، يكون متعلقاً بالعاقلة ايضاً ، وإن كان لأجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء — مثلاً — على عدو ظالم ، يكون متعلقاً بالقوة الغضبية ، وإن كان من نعمة المال والأولاد ، يكون متعلقاً بالقوة الشهوية .

(١) القربوس — بفتحين — : حنو السرج ، أى قسمة المقوس المرتفع من قدام المقعد

ومن مؤخره .

(٢) هذه الرواية مذكورة فى (اصول الكافى) ج ٢ — باب الشكر . وفى

(الواقى) : ٣ / ٣٢٤ — باب الشكر . إلا أن المنقول فى نسخ (جامع السعادات) فيه اختلاف

كثير عما فى الموضعين ، فصحبناهما عليهما .

والجزء الثالث - اعنى العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم - فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته . وبهذا يظهر : أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث ، والأول من فضائلها اذا امتزجت وتسامت ، والثانى من رذائلها .

فصل

(فضيلة الشكر)

الشكر أفضل منازل الأبرار ، وعمدة زاد المسافرين الى عالم الأنور ، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء . وقد ورد به الترغيب الشديد ، وجعله الله سبباً للمزيد . قال الله - سبحانه - :

« مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » (١). وقال : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » (٢).
 وقال : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » (٣) . وقال : « وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » (٤) .
 ولكونه غاية الفضائل والمقامات ، ليس لسلك سالك أن يصل اليه ، بل ليس الوصول اليه إلا لأوحى من كمل السالكين . ولذا قال الله رب العالمين :

« وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » (٥) . وكفى به شرفاً

(٤) آل عمران ، الآية : ١٤٥ .

(١) النساء ، الآية : ١٤٦ .

(٥) سبأ ، الآية : ١٣ .

(٢) ابراهيم ، الآية : ٧ .

(٣) البقرة ، الآية : ١٥٢ .

وفضلاً ، أنه خلق من اخلاق الربوبية ، كما قال الله - سبحانه - :
 « وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » (١) . وهو فاتحة كلام أهل الجنة
 وخاتمته ، كما قال الله - تعالى - : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 صَدَقْنَا وَعَدَّهُ » (٢) . وقال : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « الطاعم الشاكر ، له من الاجر كأجر
 الصائم المحتسب . والمعافي الشاكر ، له من الاجر كأجر المبتهل الصابر . والمعطي
 الشاكر ، له من الاجر كأجر المحروم القانع » . وقال ﷺ : « إن للنعم
 أوابد كأوابد الوحش ، فقيدها بالشكر » . وقال ﷺ : « ينادى
 مناد يوم القيامة : ليقوم الحمادون ! فيقوم زمرة . فينصب لهم لواء فيدخلون
 الجنة ، فقيل : من الحمادون ؟ فقال : « الذين يشكرون الله على كل حال » .
 وقال السجادة عليه السلام : « إن الله - سبحانه - يحب كل عبد حزين ، ويجب كل
 عبد شكور » . وقال الباقر عليه السلام : « كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليلتها ،
 فقالت : يا رسول الله ! لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
 وما تأخر ؟ فقال : يا عائشة ! ألا أكون عبداً شكوراً ؟ قال : وكان يقوم
 على أطراف اصابع رجله ، فأنزل الله - تعالى - : طه ! ما أنزلنا عليك
 القرآن لتشقى » . وقال الصادق عليه السلام : « ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرّفها
 بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه ، فتم كلامه ، حتى يؤمر له بالمزيد » . وقال

(٣) يونس ، الآية : ١٠ .

(١) التين ، الآية : ١٧ .

(٢) الزمر ، الآية : ٧٤ .

ثلاث لا يضر معهن شيء : الدعاء عند الكرب ، والاستغفار عند الذنب ، والشكر عند النعمة ، (١) وقال عليه السلام : « في كل نفس من انفسك شكر لازم لك ، بل الف أو أكثر ، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله - تعالى - من غير علة يتعلق القلب بها دون الله - عز وجل - ، أو الرضا بما اعطى ، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته . فكن لله عبداً شاكراً على كل حال ، تجد الله رباً كريماً على كل حال ، ولو كان عند الله - تعالى - عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال ، لا تطلق لفظة منهم عن جميع الخلق بها ، فلما لم يكن أفضل منها ، خصها من بين العبادات ، وخص أربابها ، فقال : (وقليل من عبادي الشكور) . وتمام الشكر الاعتراف بلسان السر ، خاضعاً لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره ، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها ، وهي اعظم قدراً وأعز وجوداً من النعمة التي من أجلها وفقت له ، فيلزمك على كل شكر شكر اعظم منه ، الى ما لانهاية له ، مستغرقاً في نعمه ، قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره ، وأنى يلحق العبد شكر نعمة الله ، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه ، والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلا بالله - عز وجل - ، والله غني عن طاعة العبد قوى على مزيد النعم على الأبد ، فكن لله عبداً شاكراً على هذا الأصل ، ترى العجب ، (٢) . ثم كما أن الشكر من المنجيات الموصلة الى سعادة الأبد وزيادة النعمة في الدنيا ، فضده - اعنى الكفران - من المهلكات المؤدية الى شقاوة السردم وعقوبة الدنيا وسلب النعم . قال الله - سبحانه - :

(١) صحننا الأحاديث على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب المكر . وعلى (البحار) :

ج ١٥ : ٢ / ١٣٢ - ١٣٥ ، باب الشكر .

(٢) صحننا الحديث على (مصباح الشريفة) : الباب السادس . وعلى (سفينة

البحار) ١ / ٧١٠ .

« فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ » (١) . وقال - تعالى - : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (٢) .
 وقال الصادق عليه السلام : « اشكر من أنعم عليك ، وانعم على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ، ولا بقاء لها إذا كفرت . الشكر زيادة في النعم ، وامان من الغير ، أى من التغيير ، .

فصل

(الشكر نعمة يجب شكرها)

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله ، فالشكر على كل نعمة أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته . ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضاً نعمة من الله ، إذ جميع ما يتعاطاه باختيارنا نعمة من الله ، لأن جوارحنا ، وقدرتنا ، و ارادتنا ، ودواعينا ، وافاضة المعارف علينا ، وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا ، بل نفس حركاتنا ، من الله . وعلى هذا ، فالشكر على كل نعمة نعمة أخرى من الله يحتاج إلى شكر آخر ، وهو أن يعرف أن هذا الشكر أيضاً نعمة من الله - سبحانه - ، فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه . وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكر آخر . وهكذا ، فلا بد من الشكر في كل حال ، وليس يمكن أن تنتهى سلسلة الشكر إلى ما لا يحتاج الى شكر . فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن اداء حق شكره - تعالى - ، إذ عرفان

(١) النحل ، الآية : ١١١ .

(٢) الرعد ، الآية : ١٢ .

عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم ، حتى شكره من الله ، وهذا غاية ما يمكن للعبد . ويشهد بذلك ما روى : « أن الله - عز وجل - أوحى الى موسى عليه السلام : يا موسى ! اشكرني حق شكرى . فقال : يا رب ! كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت انعمت به علي ؟ قال : يا موسى ! الآن شكرتني ، حيث علمت أن ذلك مني . . وكذلك أوحى ذلك الى داود ، فقال : يا رب ! كيف اشكرك وأنا لا أستطيع أن اشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك . . وفي لفظ آخر : « وشكرى لك نعمة اخرى منك ، ويوجب علي الشكر لك ، فقال : اذا عرفت هذا فقد شكرتني . . وفي خبر آخر : « اذا عرفت أن النعم مني ، رضيت عنك بذلك شكراً . . وروى : « أن السجادة عليها السلام كان اذا قرأ هذه الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول : سبحان من لم يجعل في احد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها . . كما لم يجعل في احد من معرفة ادراكه اكثر من العلم بأنه لا يدركه ، فشكره - تعالى - معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره ، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً ، كما علم علم العارفين بأنهم لا يدركونه ، فجعله ايماناً ، علماً منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك ، فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته ، فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقال ابو الحسن عليه السلام : « من حمد الله على النعمة فقد شكره ، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة ، (١) ، يعني أنه نعمة فوق تلك النعمة ، يستدعي شكراً آخر .

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافي) ج ٢ ، باب الشكر . وعلى

(الوافي) : ٣ / ٣٢٤ . باب الشكر .

(فصل)

(المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه)

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه ، والكفران عبارة عن نقيض ذلك - اعنى ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه - فلا بد من معرفة ما يحبه وما يكرهه ، وتمييز محابه عن مكارهه ، حتى يتمكن من اداء الشكر وترك الكفران ، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزهما . وهذا التمييز والتعريف له مدركان :

احدهما - الشرع ، فإنه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه ، وعبر عن الاول بالواجبات والمندوبات ، وعن الثانى بالمحرمات والمسكروحات . فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع احكام الشرع فى افعال العباد ، فمن لم يطلع على حكم الشرع فى جميع افعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر .
 وثانيهما - العقل والنظر بعين الاعتبار ، فإن العقل متمكن - فى الجملة - من أن يدرك بعض وجوه الحكم فى بعض الموجودات . فإن الله - سبحانه - ما خلق شيئاً فى العالم إلا وفيه حكم كثيرة ، وتحت كل حكمة مقصود ومصالحة ، وهذا المقصود والمصالحة هو محبوب الله - تعالى - . فمن استعمل كل شىء على النحو الذى يودى الى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التى خلق لها فقد شكر نعم الله - تعالى - ، وإن استعمل شيئاً على النحو الذى لم يودى الى المقصود منه أو فى جهة غير الجهة التى خلق لها ، فقد كفر بنعمة الله . ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شىء ، إذ الحكم المقصودة من الأشياء ، إما جلية أو خفية : أما الجلية : كحكمة حصول الليل والنهار فى وجود الشمس ، وحكمة انتشار الناس وسكونهم فى وجود الليل والنهار ، وحكمة انشقاق الأرض بانواع النبات فى وجود الغيم ونزول

الأمطار ، وحكمة الإبصار في العين ، والبطش في اليد ، والمشى في الرجل ، وحصول الأولاد ، وبقاء النسل في آلات التناسل وخلق الشهوة ، وحكمة المضغ والطحن في خلق الأسنان وأمثال ذلك . وأما الحكم الخفية : كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة ، واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص ، والحكم التي في بعض الاعضاء الباطنية للحيوان ، من الامعاء والمرارة والكلى واحاد العروق والاعصاب والمضلات ، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك . فهذه الحكم وأمثالها لا يعرفها كل أحد ، ومن يعرف منها شيئاً فلا يعرف إلا قدرأ يسيراً . فإن جميع اجزاء العالم . سماءه وكواكبه ، وما فيها من الأوضاع والحركة والاختصاصات ، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والارض ، وما فيها من البحار والجبال والرياح ، والمعادن والنبات والحيوان ، لا تخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة الى الف أو اكثر ، وقليل منها جليلة ، واكثرها دقيقة خفية ، وبعضها متوسط في الجلاء والخفاء ، يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والارض ، واكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجدها . ثم ما عدا الانسان من الاشياء المجردة والمادية ، الروحانية والجسمانية ، جارية على وفق الحكمة ، ومستعملة ذواتها واجزاؤها وما يتعلق بها على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها . وأما الانسان ، فليكونه محل الاختيار ومجراه ، فقد يجرى ويستعمل الأشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك ، فيكون كافراً بنعمة الله - سبحانه - . فمن ضرب غيره بيده فقد كفر بنعمة الله في اليد ، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويأخذ ما ينفعه ، لايملك به غيره . ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر بنعمة العين ، لانها خلقت

ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقى بها ما يضره فيهما . ومن ادّخر الدراهم والدنانير وحبسها فقد كفر نعمة الله فيهما ، لانهما حيران لامنفعة ولا عوض في أعيانها ، وإنما خلقهما الله - تعالى - ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الاموال من الاعيان المتنافرة المتباعدة ، فبها عزيزان في أنفسهما . ولا غرض في اعينهما . ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة . فمن ملكها فكأنه ملك ، كل شيء لا كمن ملك ثوباً ، فانه لا يملك إلا الثوب . فان احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، إذ لا غرض له في ذاته ، بخلاف النقدين ، فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء ، ومن حيث المعنى كأنهما كل الشيء . والأشياء إنما تستوى نسبتها الى المختلفات — إذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها بخصوصها — كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون ، وكالحرف لا معنى لها في نفسها ، بل تظهر لها المعاني في غيرها ، وكذلك النقدان ، لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة الى كل غرض . فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الاموال بالعدل ، وتعرف بهما المقادير المختلفة ، وتقوم بهما الاشياء المتباينة ، ويحصل التوصل بهما الى سائر الاموال . فيلزم اطلاقهما لتداولهما الأيدي ، وتحصل بهما التسوية في تبادل الاعيان والمنافع المتخالفة ، فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكفر نعمة الله فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن ، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل الى ما يحتاج ، وانفق الزائد في سبيل الله ، فهو الذي استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما . ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتهما في فائدتهما وحكمتيهما بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، أخبرهم الله عن ذلك بقوله :

« وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (١).

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما ، يظهر أن من اتخذ الأواني منها فقد كفر نعمة الله فيهما ايضاً ، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما إنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما ، إذ لا غرض في عينهما ، فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة . وكذلك الحكمة في خلق الاطعمة أن يغتذى بها ، فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها وتقيدها في الايدي ، بل اللازم أن تخرج عن يد المستغنى عنها الى المحتاج . ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الاطعمة ، لان ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها . وإذا عرفت ذلك ، فقس عليه جميع افعالك واعمالك وحركاتك وسكناتك ، فإن كل فعل يصدر منك إما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما ، مثلاً لو استنجيت باليمين ، فقد كفرت نعمة اليمين ، إذ خلق الله اليمين وجعل إحداها أقوى ، واستحق الاقوى لرجحانه التفضيل ، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل ، وهذا التفضيل إنما يتصور بأن تصرف الاقوى في الافعال الشريفة ، كأخذ المصحف وأكل الطعام ، وتصرف الاضعف في الاعمال الخسيسة ، كازالة النجاسة ، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة . وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لان الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالاشرف ، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة ، بخلافه ظلم وكفران .

وكذلك إن استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله في خالق الجهات وخلق سعة العالم ، لأنه خلق الجهات متعددة متسعة ، وشرف بعضها بأن وضع فيه بيته ، فينبغي استقباله بالأفعال الشريفة ، كالصلاة والجلوس للذكر والاعتسال والوضوء ، دون الأفعال الخسيسة ، كقضاء الحاجة ورعى البزاق ، فمن قضى حاجته أورمى بزاقه الى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله . وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله في خلق الاشجار وفي خلق اليد . أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة المعينة عليها . وأما الشجر ، فلان الله - تعالى - خلقه ، وخلق له العروق وساق اليه الماء ، وخلق فيه قوة الاعتناء والنماء ليميلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لاعلى وجه ينتفع به عباده ، مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة . نعم إن كان له غرض صحيح في كسره فله ذلك . إذ الشجر والحيوان جملاً فداءين لاغراض الانسان ، فأنهما جميعاً فانيان هالكان . فافناء الاخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب الى العدل من تضييعهما جميعاً . واليه الإشارة بقوله - تعالى - :

« وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » (١) .

ثم هذه الأفعال المتصفه بالكفران ، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم البعد الذي هو افق الشياطين . ولذلك يوصف بعضها - في لسان الفقه - بالكرهه وبعضها بالحضر . وقد سوح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محظورة ، مع أن جميعها عدول عن العدل ،

وكفران بالنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغة الى القرب ، لأن الخطاب به إنما هو الى العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام ، وقد انغمسوا في ظلمات اعظم من أن تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة اليها . فإن المعاصي كلها ظلمات ، إلا أن بعضها فوق بعض ، فيتمحق بعضها في جنب البعض . ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده إذا استعمل سكينه بغير اذنه ، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكايته في نفسه . ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند ارباب القلوب بالحظر ، ولا يتساحون في شيء مما راهه الانبياء والاولياء من الآداب . حتى نقل : ان بعضهم جمع أكراراً من الخنطة ليتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً ، فأريد أن اكفره بالصدقة .

فصل

(أقسام النعم واللذات)

اعلم أن النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر . وهي تنقسم الى مؤثر لذاته لا لغيره ، أى تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية اخرى ، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لانقضاء لها ، اعنى لذة النظر الى وجه الله ، وسعادة لقائه ، وسائر لذات الجنة ، من البقاء الذى لا فناء له ، والسرور الذى لا غم فيه ، والعلم الذى لا جهل معه ، والغنى الذى لا فقر بعده ، وغير ذلك . فإنها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية اخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها ، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا عيش إلا عيش الآخرة » ، وغالب هذه النعمة والسعادة واقواها واشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية — كما لا يخفى — ، فيختص بادراكها العقل ،

ولاحظ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها . والى ما يقصد لغيره ،
أى تكون مطلوبة لاجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة اليها ، سواء أ كانت
مقصودة لذاتها ايضاً أم لا . وهى تنقسم الى اربعة اقسام :

القسم الاول - وهو الاقرب الأخص : الفضائل النفسية المذكورة
فى هذا الكتاب ؛ ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة ، وهذه مع كونها
لذيذة فى نفسها ، تكون وسيلة الى النعمة التى هى غاية الغايات بلا توسط
وسيلة اخرى . ولذلك قلنا : هى اقرب الوسائل وأخصها . وأشرفها
العلم ، وأشرف أفراد العلم : العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله ، وأحوال
النشأة الآخرة ، وسائر أفعاله ، وعلم المعاملة الراجع الى علم الاخلاق ،
إذ هو الذى يؤدى الى السعادة الحقيقية بلا توسط شىء آخر ، وسائر العلوم
إنما هى مقصودة من حيث كونها وسائل الى هذا العلم ، وهذه الفضائل لذيدة
فى الدنيا والآخرة نافعة فيهما ، أى تؤدى الى الراحة فيهما ، وجميلة على
الاطلاق ، أى تستحسن فى جميع الأحوال . وضدها - اعنى الجهل
والاخلاق السيئة - ضارة مؤلمة فى الدارين ، قبيحة على الاطلاق . وسائر
الصفات ليست جامعة لهذه الأوصاف . فإن أكل لذائذ الأطعمة وطيباتها
يوجب اللذة والنفع ، أى حصول الراحة فى الحال ، ولكنه ضار فى المال ،
وترك الشهوات بعكس ذلك .

ثم لذة المعرفة وفضائل الاخلاق دائمة لازمة لاتزول أبداً ، لافى
الدنيا ولا فى الآخرة . وعقلية يختص باذراكها العقل دون سائر الحواس .
وأما غيرها من الذات ، فبعضها مما يشترك فيه الانسان وبعض الحيوانات ،
كاذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء ، وهذه اللذة موجودة فى الأسد والفيل
وبعض آخر من الحيوانات . وبعضها مما يشترك فيه الانسان وسائر

الحيوانات ، كذرة البطن والفرج ، وهي أخس اللذات ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج ، حتى الديدان والحشرات . فمن جاوز هذه اللذة ، تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء ، فإن جاوزها أيضاً ارتقى الى اللذة العقلية . فصار أقرب اللذات عليه لذة المعرفة ، لاسيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله . وهذه مرتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرئاسة والجاه ، ولذلك قمعها بالكلية ، بحيث لا يقع بها الاحساس قط ، يشبه أن يكون خارجاً عن مقدرة البشر . نعم ربما غلبت لذة المعرفة في احوال ، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة ، إلا أن ذلك لا يدوم ، بل تعثره الفترات ، فتعود الى الحالة البشرية . وعلى هذا ، تنقسم القلوب الى أربعة أقسام : قلب : لا يحب إلا الله ، ولا يستريح إلا اليه ، وليس فرجه إلا بزيادة المعرفة والافتكر فيه ، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه . وقلب : أغلب احواله الأنا لله والتلذذ بمعرفة والافتكر فيه ، ولكنه في بعض الاوقات والأحوال يعثره الرجوع الى أوصاف البشرية . وقلب : أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية ، وفي بعض الاوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والأنا لله . وقلب : لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الأنا لله ، وإنما لذته بالرئاسات والشهوات . والأول — إن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية التدور . والثاني — أيضاً نادر . والمر في تدور هذين القسمين : أن من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وأنسه ، أو غلب عليه ذلك ، فهو من ملوك الآخرة ، والملوك هم الأقولون ولا يكثرون . فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا إلا نادراً ، وأكثر الناس دونهم ، فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة . إذ الدنيا عالم

الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، وهي وإن كانت الثانية في رتبة الوجود ، إلا أنها في أمر الرؤية أولى ، لأنك ترى صورتك في المرآة أولاً ، ثم ترى نفسك ، فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق الرؤية والمعرفة ، وانقلب المتأخر متقدماً . وهذا النوع من الانعكاس والانعكاس ضرورة هذا العالم . وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملسكوت ، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملسكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الخلق به ، فقيل :

« فَاعْتَسِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ » (١)

ومنهم من عميت بصيرته ، فلم يعتبر ، فاحتبس في عالم الملك والشهادة ، وستفتح إلى حبسه له أبواب جهنم . وأما الثالث — فأكثر وجوداً منه . وأما الرابع — فدار الدنيا طافحة به ، لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة العلم ، إما لعدم الذوق ، إذ من لم يذوق لم يعرف ولم يشفق ، إذ الشوق فرع الذوق ، وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل ، ولا يستلذ إلا باللبن ، فهو لاء بمن يحبي باطنهم بعد كالطفل . وإما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر ، أو الميت الذي سقط عنه الادراك وهو لاء كالمريض أو الأموات بسبب اتباع الشهوات .

القسم الثاني — الفضائل البدنية : وهي أربعة : الصحة ، والقوة ، وطول العمر ، والجمال .

(١) الحشر ، الآية : ٢٠

الثالث — النعم الخارجة المضيغة بالبدن : وهي : المال ، والجاه ، والأهل ، وكرم العشيرة .

الرابع — الأسباب التي تناسب من وجه الفضائل النفسية ، ويعبر عنها بالنعم التوفيقية : وهي : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأيمده . وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض ، الى أن ينتهي الى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها . والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة ، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية ، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن ، أو على سبيل النفع والاعانة ، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة . ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر . واعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية مبني على أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة ، فحاجات الجميل الى الاجابة أقرب ، وجاهه في الصدور أوسع . وأيضاً الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس ، لأن نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن . ولذلك عول اصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن . ثم إما لا نعي بالجمال ما يحرك الشهوة ، فإن ذلك انوثة ، بل نعي به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة ، وارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال في اللحم ، وتناسب الأعضاء ، وتناسب خلقة الوجه ، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه . وأما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية الى النعم التوفيقية ، فلأن المراد بالتوفيقية هو التآلف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، بشرط كون المراد والمقضى سعادة . وبعبارة اخرى : هو توجيه الأسباب نحو المطلوب .

وأما الهداية ، فلها مراتب : أولها : الهداية العامة ، وهي إراءة طريق الخير وتعريفه . وثانيتهما : الخاصة ، وهي الافاضات المتتالية الواردة من

الله على بعض عبده ، نظراً الى مجاهدتهم . وثالثتها : الهداية المطلقة ، وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية ، فيهتدى بهما الى ما لا يهتدى اليه بالعقل . وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة ، كائناً ما كان ، على مساعدة القضاء والقدر ، وعلى العلم بطريق الخير ، ظاهر .

وأما الرشد ، فالمراد به العناية الإلهية ، التي تعين الانسان عند توجهه الى مقاصده ، فيقويه على ما فيه صلاحه ، ويفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن . وبعبارة اخرى : هو هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها . وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة اليه من مفهومه .

وأما التسديد ، فهو توجيه حركانه الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ، ليصل اليه في أسرع وقت . فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تفييه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الأعضاء الى صوب الصواب والساداد . وقد ظهر وجه كون التسديد معيناً في طلب الخير أيضاً من حاق معناه .

وأما التأييد ، فإنه جامع للكل ، إذ هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة ، فكأنه من داخل ، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج . وتقرب منه العصمة ، وهي عبارة عن وجود إلهي يسنح في الباطن ، يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كما نع باطنى غير محسوس يمنع عن الشر . وهو المراد من برهان الرب في قوله - تعالى - :

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٍ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ

بُرْهَانَ رَبِّهٍ » (١) .

تبيين

اعلم أن النعم الاخروية ، التي هي الغايات المطلوبة لذواتها ، وتفصيلها
 وأسبابها وما يتوقف وجودها عليه ، الى أن ينتهي الى مسبب الأسباب ،
 مما لا يمكن دركها ، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها .
 وأما الوسائل الأربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضاً الى أربعة
 أقسام ، وصار مجموعها ستة عشر قسماً ، فيستدعي كل قسم من الستة عشر
 أسباباً ، وتلك الأسباب أسباباً ، حتى تنتهي بالآخرة الى مسبب الأسباب
 وموجد الكل . والمتفكر يعلم ، أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى
 متسلسلة خارجة عن حد الاحصاء . فان نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في
 المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملة نعمة الأكل ، فإن احصاءها
 وإن لم يكن ممكناً ، إلا أنها تشير الى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء ،
 لتقاس عليها البواقى . فنقول :

نعمة الأكل تتوقف على ادراك الغذاء وأسبابه ، وعلى شهوة الطعام
 وميله وارادته وأسبابه ، وعلى القدرة الى تحصيله وأسبابه ، وعلى وجود أصل
 الغذاء المأكول وتكوّنه ، وعلى اصلاحه بعد وجوده وتكوّنه ، وعلى
 الأسباب الموصلة له الى كل انسان لو كان بعيداً عنه ، وعلى أسباب الطحن
 والجذب والمضغ والدفع وسائر الأفعال الباطنة الى أن يصير جزءه للبدن ،
 وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الأفعال المذكورة . فهذا هو نذكرها اجمالاً
 وتلويحاً في فصول :

فصل

(الأكل)

الأكل يتوقف أولاً على ادراك الغذاء المأكول رؤية ولمساً واستشهماً وذوقاً ، إذ ما لم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه ، وما لم يلامسه لم يتمكن من درك بعض أو صافه اللازمة في الأكل ، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكره رائحته عما تطيب رائحته ، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد ، لا سيما لبعض الحيوانات ، وما لم يذقه لم يدرك أنه موافق أو مخالف له ، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس المدركة الظاهرة ، فخلقها الله سبحانه . ثم ، الأسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تتناهى ، فلا نتعرض لبيانها . وبعد ادراك الغذاء — على ما ذكر — لا بد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقاً وراه مرة أخرى موافقاً أو مخالفاً ، وهذه القوة هي الحس المشترك ، الذي يتأدى إليه جميع الحسوسات ويجتمع فيه ، فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر — مثلاً — فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته ، فإذا رأيت مرة أخرى فلا تعرف أنه مرٌّ ما لم تذقه ، لو لا الحس المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بد من حاكم يجمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مرٌّ ، فيمتنع عن تناوله ثانياً . وهذه القوة — أعني الحس المشترك — يتوقف خلقه على أسباب ونعم لا يمكن احصائها ، فلتذرها على سبيلها .

ثم الإدراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك ، مما تشترك فيه سائر الحيوانات ، ولو انحصر ادراك الانسان أيضاً به لكان ناقصاً . إذ البهيمة

تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثانی الحال ، فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر ، وأما ادراك العواقب فليس لها إليه سبيل . فيتوقف تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى . خلق الله للإنسان العقل ، به يدرك مضرة الأطعمة ومنفعتهم في المسأل ، وبه يدرك كيفية طبع الأطعمة وتركيبها واعداد أسبابها ، فينتفع بعقله في الأكل الذي هو سبب صحته ، وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه ، إذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من ان تحصى ، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله . والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن ، والحواس الخمس كالجواسيس واصحاب الأخبار والموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكل كل واحدة منها بامر خاص . فواحدة بأخبار الألوان ، وأخرى بأخبار الأصوات ، وأخرى بأخبار الروائح ، وأخرى بأخبار الطعوم ، وأخرى بأخبار الحر والبرد والحشونة والملاسة واللين والصلابة . فهذه الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها الى الحس المشترك ، وهو قاعد في مقدمة الدماغ ، مثل صاحب السكتب والقصاص على باب الملك ، يجمع القصاص والسكتب الواردة من نواحي العالم ، ويأخذها ويسلمها الى العقل الذي هو السلطان محتومة ، إذ ليس له إلا أخذها وحفظها ، وأما معرفة حقائق ما فيها فليس إليه . ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك ، سلم ، لأنها آتية إليه محتومة ، فيفتشها الملك ويطلع على اسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها . وبجسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود - أعني الأعضاء - في الطلب أو الهرب أو إتمام التدبيرات التي تمن له . ثم عجائب حكم العقل والاسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر ، وهذه ما يتوقف عليه الأكل من الإدراكات وأسبابها .

فصل

(لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل)

إذا أدرك الغذاء ، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق اليه .
 إذ لو لا الميل اليه لكان ادراكه بأى حس وقوة فرضاً معطلاً . ألا ترى
 أن المريض يرى الطعام ويدرك أنه أنفع الأشياء له ، وقد سقطت شهوته ،
 فلا يتناوله ، فيبقى البصر والإدراك معطلاً في حقه ؟ فيتوقف الأكل على
 ميل الى الموافق ، ويسمى شهوة ، ونفرة عن المخالف ، ويسمى كراهة .
 خلق الله شهوة الطعام وسلطها على الانسان كالمقتضى الذى يضطره الى
 تناول ، وهذه الشهوة لو لم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت
 نفسه ، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها ، ولم يجعلها كالزرع
 الذى لا يزال يجتذب الماء إذا انصب فى اسافله حتى يفسد ، ولذلك يحتاج
 الى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى .
 ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفي ، ما لم تنبعث الداعية الى تناول الغذاء . فخلق
 الله - تعالى - له الارادة - أعنى انبعاث النفس الى تناوله . وربما حصل
 الاحتياج الى قوة الغضب - ايضاً - ليندفع عن نفسه المؤذى وما يضاده
 ويخالفه ، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء . ثم لكل واحد من
 الشهوة ، والكراهة ، والارادة ، والغضب ، اسباب لا يمكن احصاؤها .
 ثم بعد ادراك الغذاء وميله وشهوته وارانته ، لا يفيد شيئاً من ذلك ما لم يتحقق
 الطلب والأخذ بالفعل بآلاتهما . فكم من زمن شائق الى شىء بهيد منه مدرك
 له مائل اليه مريد له ، لا يمكنه أن يمشى اليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن
 يتناوله لفقد يده أو لفالج أو عذر فيهما . فلا بد من آلات للحركة ، وقدرة
 فى تلك الآلات على الحركة ، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً . فلذلك

خلق الله - تعالى - لك الأعضاء التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف اسرارها .
فمنها ما هو آلة للطلب ، كالرجل للانسان ، والجنح للطير ، والقوائم
للدواب . ومنها ما هو آلة لدفع المؤذي والممانع من طلب الغذاء ، كالقرن
لبعض الحيوانات ، والأنياب لبعض آخر منها ، والمخالب لبعض آخر منها ،
والأسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة . ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول ،
كاليدين للانسان . ثم لهذه الأعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر ،
وقد تقدم قليل من حكمها ومعانيها في باب التفكر .

فصل

(عجائب الماء كولات)

عمدة ما يتوقف عليه الأكل وأصله ومناطه ، هي الأغذية والأطعمة
الماء كولة ، والله - تعالى - في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، وأسباب متوالية
لا تنتهي . والأغذية والأدوية من الأطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حداً
يمكن احصاؤها وحصرها ، فضلاً عن بيان عجائبها وأسبابها . فنحن نترك
الجميع ، ونأخذ من جملة حبة من الحنطة ، ونبين بعض أسبابها وحكمها
وعجائبها . فنقول :

قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك . فإن
النبات إنما يفارقك في الحس والحركة دون الاعتداء ، لأنه يغتذى بالماء .
ولا نتعرض لذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء الى نفسه ، بل نشير الى
لمعة من كيفية اغتذاء الحبة . فنقول :

إن الحبة لا تغتذى بكل شيء ، بل يتوقف اغتذاؤها على أرض
فيها ماء . ولا بد أن تكون أرضها رخوة متخلخلة بتغلغل الهواء اليها ، فلو
تركتها في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء . ثم الهواء

لا يتحرك اليها بنفسه ، فلا بد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف ، واليه الاشارة بقوله - تعالى - :
 « وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ » (١)

والقاحها إنما هو ايقاعها الازدواج بين الهواء والماء والأرض . ثم لا يمكن ذلك في إنباته في برد مفرط ، فيحتاج الى حرارة الصيف والربيع . فهذه أربعة أسباب . فإن الماء لا بد أن ينساق الى ارض الزراعة من البحار والشطوط والأنهار والعيون والسواقي ، فانظر كيف خلق الله جميع ذلك . ثم الأرض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع اليها مياه العيون والقنوات ، فخلق الله الغيوم ، وهي سحب ثقيل حاملات للماء ، وسلط عليها الرياح لتسوقها باذنه الى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات ، وترسلها مدراراً على الأراضى في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، ثم خلق الجبال حافظه للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً على قدر الحاجة ، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشى . ونعم الله - تعالى - وعجائب صنعته وحكمته في السحاب والبحار والجبال والأمطار لا يمكن احصاؤها . وأما الحرارة ، فإنها لا يمكن أن تحصل في الماء والأرض ، لكونهما باردين . فخلق الله الشمس ، وسخرها ، وجعلها - مع بعدها عن الأرض - مستحثة لها في وقت دون وقت ، ليحصل الحر عند الحاجة اليه ، والبرد عند الافتقار اليه ، وهذه أحسن حكم الشمس ، والحكم فيها أكثر من أن تحصى . ثم النبات إن ارتفع على الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر الى رطوبة تنضجها ، فخلق الله القمر ، وجعل من خاصيته الترطيب ، كما يظهر لك ذلك إذا كشفت رأسك له في الليل ، فإنه تغلب على رأسك

الرطوبة المعبر عنها بـ (الزكام) ، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها ،
ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم . وهذا أيضاً أخس فوائد القمر وحكمه ،
وما فيه من الحكم والفوائد لا مطمع في استقصائه ، بل كل كوكب في السماء
فقد سخر لفوائده كثيرة لا تفي القوى البشرية باحصائها. وكما أنه ليس في أعضاء
البدن عضو لا فائدة فيه ، فكذلك ليس عضو من أعضاء بدن العالم لا تكون
فيه فائدة أو فوائد كثيرة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه
كالأعضاء له ، وهي متفاوتة تفاوت أعضاء البدن ، وشرح ذلك ليس في
مقدرة البشر ، وكلها مسخرات لله - سبحانه - ، وآثار من قدرته الكاملة ،
ورشحات من أبحر عظمته الباهرة ، وليست في انفسها إلا أعدام صرفة .
فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له ، إذا نظروا إلى ملكوت السماوات
والأرض ، والآفاق والأنفس ، والحيوانات والنباتات ، لا ينظرون
إليها إلا من حيث إنها آثار قدرة ربهم ، ورشحات صفاته ، ويكون
تفكيرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها ، وابتهاجهم وشغفهم لأجل
ذلك. كما أن من أحب عالماً لم يزل مشغولاً بطلب تصانيفه، فيزداد بمزيد الوقوف
على عجائب علمه حباً له . فكذلك الأمر في عجائب صنع الله ، فإن العالم كله
من تصنيفه - تعالى - ، بل جميع المصنفين أيضاً من تصنيفه الذي صنفه
بواسطة قلوب عباده . فإن تعجبت من تصنيف ، فلا تتعجب من المصنف ،
بل من الذي سخر المصنف لتأليفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده
وتعريفه. كما إذا رأيت لعب المشعوذ (١) يترقص ويتحرك حركات موزونة
متناسبة ، فلا تتعجب من اللعب، فإنها خرق محركة لا متحركة، وليكن تعجب من
حذق المشعوذ المحرك لها ورباطة دقيقة عن الابصار. وقد ظهر أن غذاء النبات لا

(١) المشعوذ : الرجل الخيال ، الذي يصنع الشعبة .

يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالآفلاك التي هي مركوزة فيها ، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها ، وكذلك تتسلسل الاسباب الى أن تنتهي الى مسبب الاسباب وغاية السلك ، وليس لنا سبيل الى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها .

فصل

(حاجة تحضير الطعام الى آلاف الاسباب)

ثم ما يذبت من الأرض من النبات ، وما يحصل من الحيوانات ، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك ، بل لابد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف ، بالقاء البعض وابقاء البعض ، الى غير ذلك من الاعمال التي لا تحصى ، وكل من الاطعمة يتوقف اصلاحها على امور خاصة كثيرة ، واستقصاء ذلك في كل طعام طويل . فلنأخذ رغيماً واحداً ، وننظر الى بعض ما يحتاج اليه حتى يستدير ويصلح للأكل ، إذ بيان جميع ما يحتاج اليه حتى يستدير الرغيغ الواحد ليس ممكناً ، فنقول :

أول ما يتوقف عليه هذا الرغيغ الأرض ، ثم إلقاء البذر فيها ، ثم الثور الذي يثير الأرض مع آلاته ، كالغدان وغير ذلك ، ثم تنقية الأرض من الحشائش ، والتعهد بسقي الماء الى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه ، ثم الحصاد ، ثم الفرك ، ثم التنقية والتصفية ، ثم الطحن ، ثم العجن ، ثم الخبز . فتأمل عدد هذه الافعال ، واستحضر سائر الافعال التي لم نذكرها ، ثم تذكر عدد الاشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التي يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيرها . وانظر الى اعمال الصناع في اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من تجارة وحدادة وغيرهما ، واحتياج

كل منها الى آلات كثيرة . ثم انظر كيف ألف الله - سبحانه - بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين ، وسلط عليهم الأنس والمحبة ، حتى اتلفوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد ، ورتبوا المساكن والدور متجاورة متقاربة ، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ، ولو تفرقت آراؤهم ، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش ، لتهددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض . ثم لما كان في جبلة الانسان الغيظ والعداوة ، والحسد والمنافسة ، والانحراف عن الحق ، ربما زالت المحبة بين البعض لا عراض ، فيزدحمون عليها ، ويتنافسون فيها ، وربما أدى إلى التنافر والتقابل . فبعث الله الانبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا اليها عند التنازع ، فيرتفع نزاعهم . ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الانبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها . وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهراً عليها لو أرادوا التخلف عنها ، فسلاط الله السلاطين اولى القوة والعدة على الناس ، وألقى رعبهم في قلوبهم ، واهمهم اصلاح العباد ، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والاسواق ، واضطروا الخلق الى قانون الشرع والعدل ، وألزموهم التآلف والتعاون ، ومنعوهم عن التفرق والتباغض . فأصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين ، وإصلاح السلاطين بالعلماء ، وإصلاح العلماء بالانبياء ، وإصلاح الانبياء بالملائكة ، وإصلاح الملائكة بعضهم ببعض ، الى ان ينتهي الى حضرة الربوبية ، التي هي ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وقد ظهر مما ذكر : أن من قنش يعلم ، أن رغبة واحداً لا يستدير بحيث يصلح للاكل ما لم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الإنس .

فصل

(تسخير الله التجار لجلب الطعام)

ثم جميع الأطعمة لما لم يمكن أن يوجد في كل مكان وبلد ، إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها ، لا يمكن إلا أن يوجد في بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون إليه من الأطعمة ، بحيث تحول بينهم وبينها البرارى والبحار ، فسخر الله - تعالى - التجار ، وسلط عليهم حرص المال وشهره الربح ، حتى يقاسوا الشدائد ، ويركبوا الأخطار في قطع المفاوز وركوب البحار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق . فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادي والجبال ، من الجمال وكيفية قطعها البرارى والمراحل تحت الأعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش ، ومن الخيل وكيفية سرعة سيرها وحركاتها ، ومن الحمار وصبره على التعب ، وانظر كيف خلق الله ما يحتاج إليه السفن وهذه الحيوانات من الأسباب والغذاء ، وينتهى الى حد لا يمكن تحديده .

فصل

(نعم الله في خلق الملائكة للانسان)

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره واصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء للبدن . وهذا موقوف على اعمال كثيرة ، محتاجة الى أسباب كثيرة ، من الطحن ، والجذب ، والمضغ المعدى والسكبدي ، وغير ذلك من الأفعال التي يحتاج كل منها الى أسباب كثيرة . وقد أشرنا الى لمعة من

كيفية ذلك في باب التفكير ، فارجع اليه . وهنا نشير الى أنموذج من نعمة الله في خلق الملائكة . فنقول :

إن كثرة الملائكة لم تبلغ حداً يمكن تصويره تفصيلاً أو إجمالاً . ولهم طبقات وأصناف : منها : طبقات الملائكة الأرضية . ومنها : الملائكة السماوية . ومنها : حملة العرش العظيم . ومنها : المسلسلون . ومنها : المهيمنون . . . وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم ، ولا يحيط بهم إلا الله - سبحانه - . فكل صنع من صنائع الله في الأرض والسماء لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به . فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع الى الأكل والأغذاء الذي كلامنا فيه ، دون ما يجاوز ، وذلك من صنائع الله وافعاله ، ومن الوحي الى الأنبياء والهداية والارشاد وغيرها ، فإن استقصاء ذلك ليس من مقدورات البشر . فنقول : إن كل جزء من اجزاء بدنك ، بل من اجزاء النبات ، لا يغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة ، هم أقل الأعداد ، إلى عشرة الى مائة ، الى أكثر من ذلك بمراتب .

بيان ذلك : ان معنى الاغتذاء : أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك . وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء ، حتى يصير جزءاً للبدن ، كالجذب والهضم وصيرورته لحماً وعظماً . ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها ، ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في اطوارها ، كما أن الأبر بنفسه لا يصير طحيناً وعجيناً وخبزاً مطبوخاً إلا بصناع ، والصناع في الباطن هم الملائكة ، كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد . فالغذاء ، بعد وضعه في الفم إلى أن يصير دماً ، لا بد له من صناع من الملائكة ، ولا نتعرض لهم وليمان عددهم ، ونقول : بعد صيرورته دماً الى أن يصير جزءاً للبدن ، يتوقف على سبعة من

الملائكة ، إذ لا بد من ملك يجذب الدم الى جوار اللحم والعظم ، إذ الدم لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق ، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة ، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم ، وما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلا ، ولا بد من سابع يراعى المقادير في الإلصاق ، فيلحق بالمستدير على ما لا يبطل استدارته ، وبالعريض على ما لا يبطل عرضه ، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه ، وهكذا ... ويراعى في الإلصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج اليه . فلو جمع لانف الصبي - مثلا - من الغذاء ما يجمع على نخذه ، لكبير أنفه ، وبطل تجويفه ، وتشوهت صورته ، بل ينبغي أن يسوق الى الاجفان مع رقتها ، والى الأنفاز مع غلظتها ، والى الحدقة مع صفائها ، والى العظم مع صلابته ، ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، ويراعى العدل في القسمة والتقسيم ، وإلا بطلت الصورة ، وتشوهت الخلقة ، ورق بعض المواضع وضعف البعض . فمراعاة هذه الهندسة مفوضنة الى ملك من الملائكة . وإياك وأن تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فإن من أحال هذه الأمور الى الطبع جاهل ولا يدري ما يقول . فإن أراد من الطبع قوة عديمة الشعور ، ويقول : إن كل فعل من هذه الأفعال موكل الى قوة لا شعور لها ، فنقول : ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته ، إذ لا ريب في أن ما لا شعور له ليس له في نفسه أن يفعل فعلا ما ، فضلا عن أن يفعل أفعالا متقنة محكمة ، مشتملة على الحكم الدقيقة ، والمصالح الجليلة والخفية . فتكون هذه شروطاً ناقصة لإيجاد الله - سبحانه - هذه الأفعال بلا واسطة ، أو بواسطة عدد هذه

القوى من الملائكة . وعلى أى تقدير ، لا بد من سبعة اشخاص من مخلوق الله - سبحانه - مسخرين فى باطنك ، موكلين بهذه الأفعال ، قد شغلوا بك ، وأنت فى النوم تستريح ، وفى الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء فى باطنك ولا خبر لك منهم ، وكذلك فى كل جزء من اجزائك التى لا تتجزأ ، حتى يفتقر بعض الأجزاء - كالعين والقلب - الى أكثر من مائة ملك . ثم الملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لا يحيط بكنهه إلا الله ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش ، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس ، المتفرد بالملك والملسكوت والعزة والجبروت . ومن أراد أن يعلم - اجمالا - كثرة الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين ، وأجزاء النبات والحيوانات ، والسحب والهواء والبحار والجبال والأمطار وغير ذلك ، فليرجع فى ذلك الى الأخبار الواردة من الحجج - عليهم السلام - . ثم لا بد أن يفوض كل فعل من الأفعال السبعة المذكورة الى ملك من الملائكة ، ويكون الموكل به ملكا واحداً على حدة ، ولا يمكن أن يفوض جميعها الى ملك واحد ، كما لا يمكن أن يتولى انسان واحد سبعة أعمال فى الحنطة ، كالطحن وتمييز النخالة ، ودفع الفضلة عنه ، وصب الماء عليه ، والعجن ، وقطعها كمرات مدورة ، وترقيقها رغفانا عريضة ، والصاقها بالتنور . إذ الملك وحدانى الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات . فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، كما اشير اليه بقوله - تعالى - :

« وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » (١)

ولذلك ، ليس بينهم تحاسد وتنافس . ومثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخر له مثال الحواس الخمس ، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه اموراً مختلفة ، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه ، فإنه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل ، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى . وذلك غير موجود في الملائكة ، فإنهم مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية ، ولكل منهم طاعة خاصة معينة . فالراكع منهم راکع أبداً ، والساجد منهم ساجد دائماً ، والقائم منهم قائم أبداً ، لا اختلاف في افعالهم ولا فتور ، ولكل واحد منهم مقام معلوم . وإذا قد ظهر لك عدد ما يحتاج اليه بعض افعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الأرضية المستمدين من الملائكة السماوية ، فقس عليه سائر افعال الاغتذاء ، وسائر افعال الباطنة والظاهرة ، فإن بيان ذلك ليس ممكناً . ثم قس على ذلك اجمالاً جملة صنائع الله وافعاله الواقعة في عالمي الجبروت والمللكوت ، وعالم الملك والشهادة ، فسماواته وارضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما ، فإن اعداد الملائكة الموكلين بها غير متناهية ، كيف ومجامع طبقات الملائكة وانواعهم خارجة عن الاحصاء ، فضلاً عن الآحاد الداخلة تحت الطبقات ؟

وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة ، الى أن ينتهي الى الله ، واتصال البعض ببعض ووقوع الارتباط والترتب بينهما : أن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود ، فمن نظر الى غير محرم — مثلاً — فقد كفر ، ففتح العين نعمة الله في الأجفان ، ولا تقوم الأجفان إلا بالعين ، ولا العين إلا بالرأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا

بالسماوات ولا السماوات إلا بالملائكة . فإن الكل كالشيء الواحد ، يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض . فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود ، من ابتداء الثرى الى منتهى الثريا . وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان ، ولا ماء ولا هواء ، ولا كوكب ولا فلك ولا ملك ، إلا يلغنه . ولذلك ورد في الأخبار : « ان البقعة التي يجتمع فيها الناس ، إما تلغنهم إذا تفرقوا ، أو تستغفر لهم ، . وكذلك ورد : « ان الملائكة يلغنون العصاة ، . وورد : « ان العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت في البحر ، . وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء ، وكل ذلك اشارة الى أن العاصي بتطريفة واحدة يحني على جميع الملك والملكوت .

ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم ، فاعتبر ما سواه . ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر ؟ كيف والله في كل طرفة على كل عبد من عبده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء ؟ فإن في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين ، إذ بانساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجتمع روح الهواء الى القلب ، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لا تقطع قلبه وهلك . ولما كان اليوم والليلة اربعاً وعشرين ساعة ، وفي كل ساعة يوجد الف نفس تخميناً ، وإذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم ، يكون عليك في كل يوم وليلة آلاف الوف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك ، بل في كل جزء من اجزاء العالم ، وكيف يمكن احصاء ذلك ، ولذلك قال الله - تعالى - :

« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا » (١)

وورد : « أن من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه ، فقد قل »

(١) ابراهيم ، الآية : ٣٤ . النحل ، الآية : ١٨ .

علمه وحضر عذابه . فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء ، ولا يلم خاطره بوجوده ، إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه . ولذلك قال موسى بن عمران : « إلهي اكيف أشكرك ولك عليّ في كل شعرة من جسدي نعمتان : أن ليذنت أصلها ، وأن طمست رأسها » .

فصل

(الأسباب الصارفة للشكر)

اعلم أن السبب الصارف لأكثر الخلق عن الشكر ، إما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله - سبحانه - ، أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم وآحادها ، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها ، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرد أن يقولوا بلسانهم : الحمد لله ، أو الشكر لله ، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، بحيث لا يتنبهون للقيام بالشكر ، كما في سائر الفضائل والطاعات ، أو عدم احتسابهم للجهد ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الأحوال من النعم نعمة . ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم ، لسكونها عامة للخلق ، مبدولة لهم في جميع الحالات . فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً بها ، فلا يعدها نعمة . وتأكد ذلك بالفهم واعتيادهم بها ، فلا يتصورون خلاف ذلك ، ويظنون أن كل انسان يلزم أن يكون على هذه الأحوال . فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء ، ووفور الماء ، وصحة البصر والسمع ، وأمثال ذلك . ولو أخذ يمحققهم ، حتى انقطع عنهم الهواء ، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار ، أو برّ فيها هواء تقبل رطوبة الماء ، ماتوا . فإن ابتلي واحد بشيء من ذلك ، ثم نجى منه ، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله

عليه . وكذا البصير ، اذا عميت عينه ، ثم أعيد عليه بصره ، عده نعمة وشكره ، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيراً دائماً كان غافلاً عن الشكر . وهذا غاية الجهل ، إذ شكرهم صار موقوفاً على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال ، مع أن النعمة في جميع الأحوال أولى بالشكر . فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع احوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة . ومثلهم كمثل العبد السوء الذي لو لم يضرب بطن وترك الشكر ، وإذا ضرب في غالب الأحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك . ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه اعظم من ملك الأرض كلها . كما نقل : « ان بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء ، وفي يده كوز ماء يشربه ، فقال له : عطشى . فقال : لو لم تعط هذه الشربة لإي بئذ أموالك وملوكك كله ، ولو لم تعطه بقيت عطشاناً ، فهل تعطيه ؟ قال : نعم ! قال : فكيف تفرح بملك لا يساوى شربة ماء ! . هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله ، لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد ، أو يشاركه يسير من الناس ، إما في العقل ، أو في الخلق ، أو في الورع والتقوى ، أو الدين ، أو في صورته وشخصه ، أو أهله وولده ، أو مسكنه وبلده ، أو رفقاته وأقاربه ، أو عزّه وجاهه ، أو طول عمره وصحة جسمه ، أو غير ذلك من محابه . بل نقول : لو كان أحد لا يكون مخصوصاً بشيء من ذلك ، فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيتته في بعض هذه على سائر الخلق . فإن أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس ، أو أحسن أخلاقاً منهم ، مع أن الأمر ليس كذلك . ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال ، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال ، ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها ، ولا يرى ذلك من نفسه .

وبالجملة : كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره ، وإن لم يكن مطابقاً للواقع . ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطى ما خصص به غيره ، لكان لا يرضى به . بل التأمل يعطى : أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والأفعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائناً من كان ، بل لو وكل اليه الاختيار ، وقيل له : أنت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس ، لم يخير إلا نفسه . والى هذا أشار الله - سبحانه - بقوله :

« كَلِّفْ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (١)

وإذا كان الأمر هكذا ، فأنى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة؟ ولو لم يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة ، لعظمت النعمة في حقه ، ولم يخرج عن عهد الشكر . قال رسول الله ﷺ : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، وعندة قوت يومه ، فكأنما خيرت له الدنيا بخذا فورها ، ومهما فتشت الناس ، لو جدهتم يشكون عن أمور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم . بل لو لم تسكن للإنسان نعمة سوى الإيمان الذي به وصوله إلى النعيم المقيم والملك العظيم ، لكان جديراً به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره . بل ينبغي للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان . ونحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب ، من أموال واتباع ، وانصار وبلدان وممالك ، بدلا عن عشر عشر من علمه لم يأخذه ، لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله - تعالى - في الآخرة . بل لو سلم إليه جميع ذلك عوضاً عن لذة العلم في الدنيا ، مع نيته في الآخرة إلى ما يرجوه ،

(١) المؤمن ، الآية : ٥٤ . الروم ، الآية : ٣٢ .

لم يأخذه ولم يرض به ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لا تسرق ولا تعصب ، وصافية لا كدورة فيها ، بخلاف لذات الدنيا .

فصل

(طريق تحصيل الشكر)

الطريق الى تحصيل الشكر أمور :

الأول - المعرفة والتفكير في صنائعه - تعالى - ، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامّة والخاصة .

الثاني - النظر الى الأدنى في الدنيا والى الأعلى في الدين .

الثالث - أن يحضر المقابر ، ويتذكر أن أحب الأشياء الى الموتى وأهم سؤلهم ودعواهم من الله أن يردوا الى الدنيا ، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا ، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب ، أو يزيد ثوابهم وترتفع درجاتهم . فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعواته وردّه الى الدنيا ، فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العود لأجله .

الرابع - أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض أيام عمره من المصائب العظيمة والأمراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها ، فليتصور أنه هلك بها ، ويغتتم الآن حياته وماله من النعم ، فليشكر الله على ذلك ، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافى طبعه .

الخامس - أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة أكبر منها ، وإنه لم تصبه مصيبة في الدين . ولذلك قال عيسى عليه السلام في دعائه : « اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني ! » . وقال رجل لبعض العرفاء : « دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي » ، فقال له : « اشكر الله لو

كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيديك ، ماذا كنت تصنع ؟ .
ومن حيث إن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنوب صدر منه ، فإذا حلت به هذه
العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة ، كما قال رسول الله ﷺ :
« إن العبد إذا أذنب ذنباً فاصابته شدة أو بلاء في الدنيا ، فإله أكرم من أن يعذبه
ثانياً ، . وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا - عليهم السلام - أيضاً ،
فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها إلى الآخرة . ومن حيث إن
هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية إليه ألبتة ، فقد أتيت وفرغ منها . ومن
حيث إن ثوابها أكثر منها وخير له ، لما يأتي في باب الصبر من عظم ثوابات
الإبتلاء بالمصائب في الدنيا . ومن حيث إنها تنقص في القلب حب الدنيا
والركون إليها ، وتشوق إلى الآخرة وإلى لقاء الله سبحانه . إذ لا ريب في أن
من آتاه النعم في الدنيا على وفق المراد ، من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، يورث
طمأنينة القلب إلى الدنيا وأنساً بها ، حتى تصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه
عند الموت بسبب مفارقتها ، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا
ولم يأنس بها ، وصارت الدنيا سجناً عليه ، وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن .
ولذلك قال رسول الله ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . فمجن الدنيا
ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها ، والتفاتها إلى عالمها الأصلي ،
وتشوقها إلى الخروج عنها إليه ورغبتها إلى لقاء الله وما أعد في الدار الآخرة لأهلها .
فإن قلت : غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه ، وأما الشكر عليه
فغير متصور ، إذ الشكر إنما يستدعي نعمة وفرحاً ، والبلاء مصيبة وألم ،
فكيف يشكر عليه ؟ وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شيء واحد ،
إذ الصبر يستدعي بلاء وألماً ، والشكر يستدعي نعمة وفرحاً ، فهما متضادان
غير مجتمعين ، فكيف حكتم باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية ؟

قلنا: كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم الى مطلق ومقيد. فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والايمان والاخلاق الحسنة في الدنيا، والنعمة المقيدة في الدنيا - أي ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه - كالمال الذي يصلح الدين من وجه، ويفسده من وجه. والبلاء المطلق، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والاخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا، والبلاء المقيد، كمصائب الدنيا، من الفقر والخوف والمرض وسائر أقسام المحن والمصائب، فإنها وإن كانت بلاء في الدنيا، وليكنها نعم في الآخرة. وعند التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة، أو رياضة النفس، أو زيادة التجرد، أو رفع الدرجة. فالنعمة المطلقة بازائها الشكر المطلق، ولا معنى لاجتماع الصبر معه، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه، كما يأتي. والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية، بل يجب عدم الصبر عليه والسعي في تركه. وأما البلاء المقيد، فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين، بل الصبر من حيث ايجابه الاغتمام والالم في الدنيا، والشكر من حيث ادائه الى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر.

ثم لو لم يصبر على جهة شريفة، ولم يشكر على جهة خيريته، صار بلاء مطلقاً لزم تركه بالرجوع الى الصبر والشكر. وأما النعمة المقيدة، كالمال والثروة، فإن أدت الى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر، ولم يكن محلاً للصبر، وإن أدت الى فساده كانت بلاء مطلقاً واجب الترك، وإن أدت الى بلاء الدنيا، كأن يصير ماله سبباً لهلاك أولاده، وفساد مزاجه، ويصير فوته باعثاً لا بتلائه ببعض المصائب الدنيوية، كان حكمه حكم البلاء المقيد. ثم يأتي في باب الصبر: أن الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية، وفيهما

يتحقق الشكر والصبر ، إذ الشكر — كما عرفت — هو عرفان النعمة من الله والفرح به ، وصرف النعمة الى ما هو المقصود منها بالحكمة ، والصبر — كما يأتي — هو ثبات باعث الدين ، اعنى العقل النظرى ، فى مقابلة باعث الهوى ، اعنى القوة الشهوية . ولا ريب فى أنه فى اداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور ، إذ هو صرف النعمة الى ما هو المقصود ، إذ باعث الدين إنما خلق لحكمة دفع باعث الهوى ، وقد صرفه الى مقصود الحكمة . وأنت خير بأنه وان تحقق الشكر والصبر فى هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، إلا أن ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، إذ الصبر إنما هو عليهما ، واما الشكر فعلى باعث الدين ، أعنى العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية ، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية ، فاختلاف فيهما الصبر والشكر فى المتعلق ، أى ما يصبر عليه وما يشكر عليه ، واتحدا فى فعل الصبر والشكر ، إذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة ، وهو عين الطاعة وترك المعصية ، وفعل الشكر هو صرف النعمة فى مقصود الحكمة ، وهو أيضاً عين الطاعة وترك المعصية . ويمكن أن يقال : إن من فعل هذه الطاعة ، وترك هذه المعصية ، عرف كونها من الله وفرح به ، ويعمل طاعة اخرى شكر آله . وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر فى هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، أعنى المشكور عليه وما يصبر عليه ، إذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المعصية بعينها ، ويختلف فعلاهما . إذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، وفعل الشكر تحميد أو طاعة اخرى .

فصل

(الصحة خير من السقم)

لا تظن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وادائه الى سعادة الأبد أنه خير من العافية فى الدنيا ، بل مع ذلك كله العافية فى الدنيا خير من البلاء والمصيبة

فيها ، فإياك أن تسأل من الله البلياء والمصائب في الدنيا ، فإن رسول الله ﷺ كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ، وكان يقول هو والأنبياء والأوصياء — عليهم السلام — : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة » ، وكانوا يستعيزون من شماتة الأعداء وسوء القضاء . وقال ﷺ : « سلوا الله العافية ، فما أعطى عبدا أفضل من العافية إلا اليقين » ، وأشار باليقين الى عافية القلب من الجهل والشك ، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن . وقال ﷺ في دعائه : « والعافية أحب إلي » .

وبالجملة : هذا أظهر من أن يحتاج الى الاستشهاد . إذ البلاء إنما يصير نعمة بالإضافة الى ما هو أكثر منه في الدنيا والآخرة ، وبالإضافة الى ما يرجى من الثواب في الآخرة ، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها الى الآخرة . فينبغي أن يسأل تمام النعمة في الدنيا ، والثواب في الآخرة على شكر المنعم ، والتجاني عن دار الغرور ، والإجابة الى دار الخلود ، فإنه قادر على اعطاء الكل ، وما نقل عن بعض العارفين ، من سؤالهم المصائب والبلاء ، كما قال بعضهم : « أود أن أكون جسراً على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون ، وأكون أنا في النار » ، وقال سمنون الحب : « وليس لي في سواك حب ، فكيفها شئت فاخترني » ، فبناه على غلبة الحب ، بحيث يظن الحب بنفسه انه يجب البلاء . ومثل ذلك حالة تعتريه ، وليس لها حقيقة . فان من شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام ، ولما زال سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة . فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه . وقد روى : « ان فاخته كان يرأودها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذي يمنعك عني ، ولو أردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهر ألبطن لفعلته لاجلك ؟ فسمع ذلك

سليمان عليه السلام ، فطلبه وعاتبه في ذلك ، فقال : يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى ، .
 ونقل : « أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور ، ابتلى بمرض الحصر ،
 فكان يصيح ويجزع ، ويسأل الله العافية ، ويظهر الندامة بما قال ، ويدور على
 ابواب المكاتب ، ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب ، . والحاصل : أن
 صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية ، لاستشعارهم رضا المحبوب
 لأجله ، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية إنما يكون في غليان الحب ،
 فلا يثبت ولا يدوم . ومع ذلك كله ، فاعلم ان الظاهر من بعض الاخبار الآتية
 في باب الصبر : ان في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلا بالمصائب الدنيوية
 والصبر والشكر عليها ، ويؤيده ابتلاء اكبر النوع ، من الأنبياء والأولياء ،
 بالمصائب العظيمة في الدنيا ، وما ورد من ان أعظم البلاء موكل بالأنبياء ثم
 بالأولياء ، ثم بالأمثال فالأمثال في درجات العلاء والولاء . وعلى هذا ، فالظاهر
 اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس . فمن كان
 قوى النفس صابراً شاكراً في البلاء ، ولم يصدده عن الذكر والفكر والحضور
 والانس والطاعات والاقبال عليها ، ولم يصر باعثاً لنقصان الحب لله ، فالبلاء
 في حقه افضل في بعض الأوقات ، إذ بأزائه في الآخرة من عوالى الدرجات
 ما لا يبلغ بدونه ، ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعاً
 أو كفراناً ، أو منعه عن شيء مما ذكر ، فالعافية أصلح في حقه ، وربما كان
 البلاء مما منعه من الوصول الى المراتب العظيمة ، فلا ريب في أن العافية وعدم
 هذا البلاء أفضل وأعلى منه . فان البصير الذى توسل بعينه الى النظر الى عجائب
 صنع الله ، وتوصل به الى معرفة الله ، وتمسك لأجل العيين الى مطالعة العلوم
 وتصنيف الكتب الكثيرة من انواع العلوم ، وتبقى آثاره العلمية على مر
 الدهور ، وينتفع من علومه الناس ابدأ ، وربما بلغ لأجل العيين الى غاية

درجات المعرفة والقرب والحب والانس والاستغراق ، ولو لا وجود العينين له لم يبلغ الى شيء من ذلك ، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل واصلاح من عدمه ، ولو لا ذلك لكانت رتبة شعيب مثلاً — وقد كان ضريراً من بين الأنبياء — فوق رتبة موسى وإبراهيم وغيرهما — عليهم السلام — لأنه صبر على فقد البصر ، وموسى لم يصبر عليه ، وكان الكمال في أن يسلب الانسان الأطراف كلها ويترك كل لحم على وضم . وهذا باطل ، فإن كل واحد من الأعضاء آلة في الدين ، فيفوت بفواتها ركن من الدين . ويدل على ذلك ماورد في عدة من الأخبار : « أن كل ما يرد على المؤمن من البلاء أو عافية أو نعمة أو بلية ، فهو خير له وأصلح في حقه ، وما ورد في بعض الأحاديث القدسية : « إن بعض عبادي لا يصلحه إلا الفقر والمرض ، فاعطيته ذلك ، وبعضهم لا يصلحه إلا الغنى والصحة ، فاعطيته ذلك ، . وبذلك يجمع بين أخبار العافية وأخبار البلاء .
ومنها :

الجزع

وهو إطلاق دواعي الهوى ، من الإسترسال في رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب ، أو ضيق الصدر والتبرم والتضجر . وهو وإن كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط ، إلا أنه لما كان ضده الصبر ، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية — كما يأتي — فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط ، بل ذكرناه هنا . ثم الجزع في المصائب من المهلكات ، لأنه في الحقيقة انكار لقضاء الله ، وإكراه لحكمه ، وسخط على فعله . ولذا قال رسول الله ﷺ : « الجزع عند البلاء تمام الخنقة ،

وقال عليه السلام : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » . وفي الخبر القدسي : « من لم يرض بقضائي ، ولم يشكر على نعمائي ، ولم يصبر على بلائي ، فليطلب رباً سواي » . وروى : « أن زكريا لما هرب من الكفار ، واختفى في الشجرة ، وعرفوا ذلك ، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا ، فأن آتة ، فأوحى الله اليه : يا زكريا ! إن صعدت منك آتة ثانية لأحونك من ديوان النبوة ! فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين ، وبالجملة : العاقل يعلم أن الجزع في المصائب لا فائدة فيه ، إذ ما قدر يكون ، والجزع لا يردده . ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضي مدة ، فليتركه أولاً حتى لا يضيع أجره . وقد نقل : « انه مات ابن لبعض الأكابر ، فعزاه مجوسى ، وقال له : ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام . فقال : اكتبوه عنه » . وقال الصادق عليه السلام : « الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء ، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة . والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده إلا المخبتون ، والجزع ينكره كل أحد وهو أبين على المنافقين ، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب . وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه ، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبراً . وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص ، وتغير اللون والحال . وكل نازلة خلت أوائلها من الإخبات والإنابة والتضرع إلى الله فصاحبها جزوع غير صابر . والصبر ما أوله مر وآخره حلو ، من دخله من أواخره فقد دخل ، ومن دخله من أوائله فقد خرج . ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر ، قال الله - تعالى - في قصة موسى والخضر - عليهما السلام - : فكيف تصبر على ما لم تحط به خيراً ، فمن صبر كرهاً ، ولم يشك إلى الخلق ،

ولم يجزع بهتك ستره ، فهو من العام ، ونصيبه ما قال الله - عز وجل - :
 وبشر الصابرين : أى بالجنة والمغفرة . ومن استقبل البلاء بالرحب ، وصبر
 على سكينته ووفار ، فهو من الخاص ، ونصيبه ما قال الله - عز وجل - :
 إن الله مع الصابرين ، (١) .

فصل

الصبر - مراتب الصبر - أقسام الصبر - فضيلة الصبر - الصبر على
 السراء - اختلاف مراتب الصبر فى الثواب - طريق تحصيل الصبر - التلازم
 بين الصبر والشكر - القانون الكلى فى معرفة الفضائل - تفضيل الصبر
 على الشكر .

* * *

ضد الجزع (الصبر) ، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها فى الشدائد
 والمصائب ، بأن تقاوم معها ، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه
 قبل ذلك من السرور والطمأنينة ، فيحبس لسانه عن الشكوى ، وأعضائه
 عن الحركات الغير المتعارفة . وهذا هو الصبر على المكروه ، وضده الجزع .
 وله أقسام آخر لها أسماء خاصة تعد فضائل آخر : كالصبر فى الحروب ،
 وهو من انواع الشجاعة ، وضده الجبن . والصبر فى كظم الغيظ ، وهو
 الحلم ، وضده الغضب . والصبر على المشاق ، كالعبادة ، وضده الفسق ،
 أى الخروج عن العبادات الشرعية . والصبر على شهوة البطن والفرج من
 قبائح اللذات ، وهى العفة ، واليه أشير فى قوله - سبحانه - :

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : باب ٩٢ . وعلى (البحار) : باب

الصبر واليسر بعد العسر ، مج ١٥ : ٢ / ١٤٣ .

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » (١).

وضده الشره . والصبر عن فضول العيش ، وهو الزهد ، وضده الحرص . والصبر في كتمان السر ، وضده الاذاعة ، والأولان ، كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب . والرابع ، من نتائج المحبة والحشية . والبواقى ، من فضائل قوة الشهوة - كما يأتي - . وبذلك يظهر : أن من عدّ الصبر مطلقاً من فضائل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به بعض أقسامه .

ويظهر من ذلك : أن أكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر . ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان ، قال : « هو الصبر ، لأنه أكثر أعماله وأشرفها » ، كما قال : « الحج عزم » . وقد عرف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى ، وبعبارة أخرى : أنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى . والمراد ببعث الدين هو العقل النظري الهادى الى طريق الخير والصلاح ، والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدية إلى الفوز والفلاح . والمراد ببعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل . والقتال دائماً بين الباعثين قائم ، والحرب بينهما أبداً سجل (٢) ، وقلب العبد معركته ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله ، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله ، فإن ثبت باعث الدين بامداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته ، غلب حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تحاول وضعف حتى غلب باعث الهوى بامداد الشياطين ولم يصبر على

(١) النازعات ، الآية : ٤٠ - ٤١ .

(٢) « الحرب بينهم سجل » : مثل مشهور ، أى تاوة لهم وتارة عليهم .

دفعه ، التحق باتباع الشياطين . وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة ، أي اليقين بكون الهوى عدواً قاطعاً لطريق الوصول الى الله مضاداً لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . ثم باعث الدين إما يقهر داعي الهوى بالحكمة ، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ، فيدوم الصبر ، وتستقر النفس في مقام الاطمينان ، وتنادى من وراء سرادقات الجمال بخطاب : (يا أيتها النفس المطمئنة ! ارجعي الى ربك راضية مرضية) ، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين ، وتندسلك في سلك عباده الصالحين . أو يغلب داعي الهوى وينقهر باعث الدين ، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ، ويأس عن المجاهدة والمقاومة ، فتسلم نفسه الشريفة المملوكة التي هي سره الله ووديعته إلى حزب الشيطان . ومثله مثل من أخذ أعز اولاده المتصف بجميع السمكالات ، ويسلمه الى الكفار من أعدائه ، فيقتلونه لديه ، ويحرقونه بين يديه ، بل هو أسوء حالاً منه بمراتب - كما لا يخفى - . إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة ، بل يكون بينهما تنازع وتجادب ، فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب ذاك ، فتكون النفس في مقام المجاهدة الى أن يغلب أحد الباعثين ، فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان . ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته أو بعضها ، وتخرج من القسمين ثلاثة احوال :

الأولى - أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الأوقات .

الثانية - أن يغلب عليه الجميع في الجميع .

الثالثة - أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع ، أو يغلب عليها

كلاً أو بعضاً دون بعض .

وقد أشير الى أهل الحالة الأولى في الكتاب الإلهي بقوله - تعالى - :

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ » (١).

وإلى الثانية بقوله : « وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (٢).

وإلى الثالثة بقوله : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » (٣).

فصل

(مراتب الصبر)

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات ، إن كان ييسر وسهولة فهو الصبر حقيقة ، وإن كان بتكلف وتعَب فهو التصبر مجازاً . وإذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى ، تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة ، كما قال الله - سبحانه - :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ،

فَسَنِّيئِهِ لِلْيُسْرَى » (٤).

ومتى تيسر الصبر وصار مملكة راسخة أورث مقام الرضا ، وإذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة . وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا ، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » .

(٣) التوبة ، الآية : ١٠٣ .

(١) الفجر ، الآية : ٢٧ - ٢٨ .

(٤) الليل ، الآية : ٥ - ٧ .

(٢) السجدة ، الآية : ١٣ .

قال بعض العارفين : « أهل الصبر على ثلاث مقامات : الأول : ترك الشكوى ، وهذه درجة التائبين . الثاني : الرضا بالمقدر ، وهذه درجة الزاهدين . الثالث : المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين ، . وكان هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والمحن . ثم باعث الصبر إما إظهار الثبات وطماً نية القلب عند الناس ، ليكون عندهم مرضياً ، كما نقل عن معاوية : أنه أظهر البشاشة ، وترك الشكوى في مرض موته ، وقال :

وتجلدى للشامتين أريهم إني لريب الدهر لا أتزعزع
وهذا صبر العوام ، وهم الذين يعملون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة ، وهذا صبر الزهاد والمتقين ، واليه الإشارة بقوله - تعالى - :
« إِنَّمَا يَوْفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (١) .
أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله - سبحانه - . إذ كل ما يرد من المحبوب محبوب ، والمحب يشفق الى التفات محبوبه ، ويرتاح به ، وإن كان ما يؤذيه ابتلاءً وامتحاناً له ، وهذا صبر العارفين ، واليه الإشارة بقوله - تعالى - :

« وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ » (٢) .

(١) الرمز ، الآية : ١٠٠ . (٢) البقرة ، الآية : ١٥٠ - ١٥٧ .

وقد ورد : أن الإمام محمد بن علي الباقر - عليهما السلام - قال لجابر ابن عبد الله الأنصاري - وقد اكتنفته علل وأسقام ، وغلبه ضعف الهرم :-
 « كيف تجد حالك ؟ » ، قال : أنا في حال الفقر أحب إلي من الغنى ، والمرض أحب إلي من الصحة ، والموت أحب إلي من الحياة . فقال الإمام عليه السلام :
 « أما نحن أهل البيت ، فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة ، فهو أحب إلينا . فقام جابر ، وقبل بين عينيه ، وقال :
 صدق رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال لي : « يا جابر ! ستدرك واحداً من أولادى اسمه اسمي ، يبقر العلوم بقراءه . »

تنزيب

(أقسام الصبر)

الصبر باعتبار حكمه ينقسم الى الأقسام الخمسة ، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض ، وعلى بعض المكروه وأداء المندوبات نفل ، وعلى الأذى التي يحرم تحملها حرام ، كالصبر على قطع يده ، أو يد ولده ، أو قصد حرمة بشهوة محظورة ، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع . وبذلك يظهر أن كل صبر ليس محموداً ، بل بعض أنواعه ممدوح ، وبعض أنواعه مذموم ، والشرع محكم ، فما حسنه حسن ، وما قبيحه قبيح .

فصل

(فضيلة الصبر)

الصبر منزل من منازل السالكين ، ومقام من مقامات الموحدين . وبه ينسلك العبد في سلك المقربين ، ويصل الى جوار رب العالمين . وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات اليه ، وذكره في نيف وسبعين موضعاً

من القرآن . ووصف الله الصابرين باوصاف ، فقال - عز من قائل - :
 « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا » (١) .
 وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا
 صَبَرُوا » (٢) . وقال : « وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ
 بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٣) . وقال : « أُولَٰئِكَ
 يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » (٤) . فإما من فضيلة الا
 واجرها بتقدير وحساب الا الصبر ، ولذا قال : « إِنَّمَا يُوَفَّىٰ
 الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٥) . ووعده الصابرين بأنه
 معهم ، فقال : « وَاصْبِرُوا لَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (٦) .
 وعلق النصره على الصبر ، فقال : « بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا
 وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ
 بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » (٧) . وجمع للصابرين
 الصلوات والرحمة والهدى ، فقال : « أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ
 مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » (٨) .

(٥) الانفال ، الآية : ٤٧ .

(١) السجدة ، الآية : ٢٤ .

(٦) آل عمران ، الآية : ١٢٥ .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٣٦ .

(٧) البقرة ، الآية : ١٥٧ .

(٣) النحل ، الآية : ٩٦ .

(٨) الزمر ، الآية : ١٠ .

(٤) القصص ، الآية : ٥٤ .

والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء، والأخبار المادحة له أكثر من أن تحصى . قال رسول الله ﷺ : « الصبر نصف الإيمان » . وقال ﷺ : « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمته الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبالي ما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ، وإن تصبروا على مثل ما أتم عليه أحب إلي من أن يوافقني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكامل ثوابه . . . ثم قرأ قوله - تعالى - :

« مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » (١)

وقال ﷺ : « الصبر كنز من كنوز الجنة » . وقال ﷺ : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » . ولا ريب في أن الصبر مما تكرهه النفوس ، ولذا قيل : (الصبر صبر) . وقال ﷺ : « في الصبر على تكبره خير كثير » . وقال ﷺ : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له » . وسئل ﷺ عن الإيمان ، فقال : « الصبر والسماحة » . وقال ﷺ : « ما تجرع عبد قط جرعتين ، أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ، ولا قطرت بقطرة أحب إلى الله - تعالى - من قطرة دم أهريقته في سبيل الله ، وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله - تعالى - من خطوة إلى الصلاة الفريضة ، وخطوة إلى صلة الرحم » . وروى : « أنه - تعالى - أوحى إلى داود ﷺ : يا داود ! تخلق باخلاقى ، وإن من اخلاقى أنى أنا الصبور » . وروى : « أن المسيح قال

(١) النحل ، الآية : ٩٦ .

للحواريين : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون ، (١) .
 وقال عليه السلام : « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال - كما أمره الله - : إنا لله
 وإنا إليه راجعون ، اللهم اجرني في مصيبتى واعقبني خيراً منها ، إلا وفعل
 الله ذلك ، . وقال عليه السلام : « قال الله - عز وجل - : إذا وجهت إلى عبد من
 عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ،
 استخيمت منه أن انصب له ميزاناً وانشر له ديواناً ، (٢) . وقال عليه السلام :
 « الصبر ثلاثة : صبر عند المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية .
 فمن صبر على المصيبة حتى يرددها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ،
 ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب
 الله له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى
 العرش ، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ، ما بين الدرجة
 إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش ، . وقال عليه السلام : « سيأتى على
 الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالانصب
 والبخل ، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك
 الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدر
 على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً
 ممن صدق بي ، (٣) . وقال عليه السلام : « إن الله - تعالى - قال لجبرئيل : ما جزاء
 من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانه ! لا علم لنا إلا ما علمتنا . قال : جزاؤه

(١) صححنا النبويات على (أحياء الموم) : ٤ / ٥٣ ، كتاب الصبر .

(٢) صححنا الرواية على (البحار) : مج ١٥ : ٢ / ١٤٨ ، باب الصبر واليسر

بعد اليسر .

(٣) صححنا الرواية ، وكذا ما قبلها ، على (أصول الكافي) : ج ٢ ، باب

الصبر . وعلى (الوافي) : ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣ ، باب الصبر .

الخلود في داري ، والنظر إلى وجهي . وقال عليه السلام لرجل قال له : ذهب مالي وسقم جسمي : « لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، ان الله اذا احب عبداً ابتلاه ، واذا ابتلاه صبره . » وقال عليه السلام : « ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله - تعالى - لا يبلغها بعمل حتى يتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك . » وقال عليه السلام : « اذا اراد الله بعبد خيراً ، و اراد أن يصابه ، صب عليه البلاء صباً وثج عليه ثجا ، فاذا دعاه ، قانت الملائكة : صوت معروف ، واذا دعاه ثانياً ، فقال : يارب ! قال الله - تعالى - : لبيك عبي وسعديك ! ألا تسألني شيئاً إلا أعطيتك ، أو رفعت لك ما هو خير ، وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه . فاذا كان يوم القيامة جىء باهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان ، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى باهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا ، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب ، فذلك قوله - تعالى - : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . » وقال عليه السلام : « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب ، وهو مقبم على معصيته ، فاعلموا أن ذلك استدراج . . . ثم قرأ قوله - تعالى - :

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ

كُلِّ شَيْءٍ » (١) :

يعنى : لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا - أى بما اعطوا من الخير - اخذناهم بغتة . وروى : « أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه ، فقال : يارب ، العبد المؤمن يطيعك

ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء ، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويحتري على معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ! فإوحى الله - تعالى - إليه : أن العباد إلي والبلاء لي ، وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب ، فازوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء ، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني ، فأجزيه بحسناته ، ويكون الكافر له من الحسنات فابسط له في الرزق وأزوى عنه البلاء ، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسينئاته ، (١) . وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله - عز وجل - : إني جعلت الدنيا بين عبادي قرصاً ، فمن أقرضني منها قرصاً أعطيته بكل واحدة منهن عشرأ الى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك ، ومن لم يقرضني منها قرصاً فأخذت منه شيئاً قسراً ، أعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني . قال : ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام قوله - عز وجل - (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم) ، فهذه واحدة من ثلاث خصال (ورحمة) اثنتان ، (وأولئك هم المهتدون) ثلاث . ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « بني الإيمان على أربع دعائم : اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل . وقال أمير المؤمنين عليه السلام « الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن جميل ، وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرم الله - عز وجل - عليك . وقال علي عليه السلام : « الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من أخلاق الأنبياء . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات ، فهو شهيد ، وإن ضربه فمات ، فهو

(١) صحننا الأحاديث الأربع على (أحياء العلوم) : ٤ / ١١٤ ، باب الصبر .

شهيد ، (١) . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « من اجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجمعك ، ولا تذكر مصيبتك » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله ؟ » قالوا : بلى فقرا عليهم :

« وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » (٢) .

فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار ، فإذا عافاه الله في الدنيا فآله أكرم من أن يعذبه ثانياً ، وان عفى عنه في الدنيا فآله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة . . وقال الباقر عليه السلام : « الجنة محفوفة بالمكاره والصبر ، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة . وجهنم محفوفة بالمذات والشهوات ، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار » . وقال عليه السلام : « مروءة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى ، أكثر من مروءة الاعطاء » (٣) . وقال عليه السلام : « لما حضرت ابى على بن الحسين - عليهما السلام - الوفاة ، ضمنى الى صدره ، ثم قال : يا بنى ! أوصيك بما أوصانى به أبى حين حضرته الوفاة ، وبما ذكر أن أباه أوصاه به ، قال : يا بنى اصبر على الحق وإن كان مرأاً . وقال الصادق عليه السلام : « إذا دخل المؤمن قبره ، كانت الصلاة عن يمينه ، والزكاة عن يساره ، والبر مطل عليه ، ويتنجى الصبر ناحيته . فإذا دخل عليه الملائكة اللذان يليان مساءلته ، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر :

(١) صحننا الروايات الثلاث على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب الصبر . وعلى

(الوافي) : ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣ ، باب الصبر .

(٢) الشورى ، الآية : ٣٠ .

(٣) قال العلامة (المجلسى) - قدس سره - في (بحار الانوار) : مج ١٥ ، ج ٢ ،

في باب الصبر على المصيبة ، في ذيل هذا الخبر : « بيان المروءة : هي الصفات التي بها تكمل انسانية الانسان » .

دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فانا دونه». وقال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة، يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة، فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله - تعالى - : صدقوا! أدخلوهم الجنة. وهو قول الله - تعالى - : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب». وقال عليه السلام: «من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد». وقال عليه السلام: «إن الله - عز وجل - أنعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا، فصارت عليهم نعمة». وقال عليه السلام: «من لا يعد الصبر لنواب الدهر يعجز». وقال عليه السلام: «إن من صبر صبر قليلاً، وإن من جزع جزع قليلاً... ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله - عز وجل - بعث محمداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرفق، فقال:

« وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » (١).

وقال ابو الحسن عليه السلام لبعض اصحابه: «إن تصبر تعتبط، وإلا تصبر يقدر الله مقاديره، راضياً كنت أم كارهاً، (٢). والاختيار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه واجره أكثر من أن تحصى. ولذلك كان الاتقياء والآكابر محبين طالبين له، حتى نقل: «أن واحداً منهم دخل على ابن مريض له، فقال: يا بني! لئن تسكن في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك».

(١) الزمل، الآية: ١٠.

(٢) صحیحنا الاحادیث الواردة عن أهل البيت - عليهم السلام - في باب الصبر، على

الجزء الثاني من (أصول الكافي) باب الصبر، وعلى (الوافي): ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣،

كتاب الصبر.

فقال : يا أبة ! لئن يكن ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب . . وقال بعضهم : « ذهب عيني منذ ثلاثين سنة ، ما علم به أحد ، . »

فصل

(الصبر على السراء)

كل ما يلقي العبد في الدنيا ، وما يوافق هواه ، أو لا يوافق ، بل يكرهه ، وهو في كل منها محتاج إلى الصبر . إذا ما يوافق هواه ، كالصحة الجسمية ، واتساع الأسباب الدنيوية ، ونيل الجاه والمال ، وكثرة الأولاد والاتباع ، لو لم يصبر عليه ، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاعتزاز به ، أدركه الطغيان والبطر . (فإن الانسان ليطنغي أن رآه استغنى) . وقال بعض الأكابر : « البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعواني لا يصبر عليها إلا الصديق » . وقال بعض العرفاء : « الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء » . ولذا لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش ، قالوا : « ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلا نقدر على الصبر عليها » . ومن هنا قال الله - سبحانه - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا

أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » (١) . وقال : « إِنَّ مِنْ

أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » (٢) .

ومعنى الصبر على متاع الدنيا : ألا يركن اليه ، ويعلم أنه مستودع عنده ، وعن قريب يسترجع عنه ، فلا ينهمك في التمتع والتلذذ ، ولا يتفاخر

(٢) التغابن ، الآية : ١٤ .

(١) المنافقون ، الآية : ٩ .

به على فاقده من اخوانه المؤمنين ، ويرعى حقوق الله في ماله بالانفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي منصبه باعانة المظلومين ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه .

والسر في كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء : أنه ليس مجبوراً على ترك ملاذ الدنيا ، بل له القدرة والتمسك على التمتع بها ، بخلاف البلاء ، فإنه مجبور عليه ، ولا يقدر على دفعه ، فالصبر عليه أسهل . ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه .
وأما ما لا يوافق هواه وطبعه ، فله ثلاثة اقسام :

الأول — ما يكون مقدوراً للعبد ، كالطاعات والمعاصي . أما الطاعة ، فالصبر عليها شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عنها ، وتشتهي التمتع والربوينة ، كما يأتي وجهه . ومع ذلك يشغل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل ، وبعضها باعتبار البخل ، وبعضها باعتبارهما ، كالحج والجهاد ، فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس أن تصبر عليه ، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها إلى الصبر في حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة ، إذ يحتاج إليها قبل العمل في تصحيح النية والإخلاص ، وتطهيرها عن شوائب الرياء ، وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في اثباته ، ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه ، ويستمر على ذلك إلى الفراغ وبعد الفراغ عنه ، لئلا يتطرق إليه العجب ، ولا يظهر رياء وسوسة . والنهي عن إبطال العمل وعن إبطال الصدقات بالمن والاذى أمر بهذا القسم من الصبر . وأما المعاصي ، فليكون جميعها مما تشتهيها النفس . فصبرها عليها شديد ، وعلى المألوفة المعتادة أشد ، إذ العادة كالطبيعة الخامسة ، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها ، فإن الاستبعاد في مثل لبس الحرير أكثر من الاستبعاد في اطلاق اللسان طول النهار في أعراض الناس ، مع أن الغيبة أشد من الزنا ، كما نطقت به الأخبار . فاذا انضافت

العادة الى الشهوة، ظهر جنندان من جنود الشيطان على جند الله، فيصعب تركها. ثم المعصية إن كانت مما يسهل فعلها ، كان الصبر عنها اشد ، كمعاصي اللسان من الغيبة والكذب ، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه جبلة النفس من الاستهلاء والربوبية ، كالكلمات التي توجب نفى الغير ، والقدح فيه ، والثناء على ذاتها تصريحاً أو تعريضاً ، كان الصبر عنها اشد . اذ مثل ذلك — مع كونه مما تيسر فعله وصار مألوفاً معتاداً — انضافت اليه شهوتان للنفس فيه : احدهما نفى السكالم من غيرها ، واخرهما اثباته لذاتها . وميل النفس الى مثل تلك المعصية في غاية السكالم ، اذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلو ، فصبرها عنها في غاية الصعوبة . وقد ظهر مما ذكر : أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصي إنما يصدر من اللسان . فينبغي لسكالم أحد أن يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروى على كلام يريد أن يتكلم به ، فان لم يكن معصية تكلم به ، وإلا تركه . ولو لم يقدر على ذلك ، وكان لسانه خارجاً عن اطاعته في المحاورات، وجبت عليه العزلة والانفراد، وتركه التكلم مع الناس ، حتى تحصل له ملكة الاقتدار على حفظه . ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعاصي قوة وضعفاً، فينبغي لسكالم طالب السعادة أن يعلم أن داعية نفسه الى أى معصية اشد ، فيكون سعيه في تركها اكثر . ثم حركة الخواطر باختلاج الوسوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقبائح السكالمات ، فلا يمكن الصبر عنها اصلاً ، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرفه ، كمن اصبح وهمومه هم واحد . وأكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدور . وكيف كان ، فهو تصور باطل ، وتضييع وقت . إذ آلة استكمال

العبد قلبه ، فاذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به أنسأ بالله ، أو فكر يستفيد به معرفة بالله ، ويستفيد بالمعرفة حب الله ، فهو مغبون .

الثاني — ما ليس حصوله مقدوراً للعبد ، ولكنه يقدر على دفعه بالتشفي ، كالمؤذي بفعل أو قول ، أو جنى عليه في نفسه أو ماله ، فإن حصول الأذية والجنابة وإن لم يرتبط باختياره . إلا أنه يقدر على التشفي من المؤذي أو الجاني بالانتقام منه ، والصبر على ذلك بترك المكافات . وهو قد يكون واجباً ، وقد يكون فضيلة ، وهو أعلى مراتب الصبر . ولأجل ذلك خاطب الله نبيه ﷺ بقوله :

« وَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » (١) .

وبقوله : « فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا

جَمِيلًا » (٢) . وبقوله : « وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ

اللَّهِ » (٣) . وقال : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ

مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ

تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (٤) . وقال :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنَّ صَبْرَكُمْ

لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ » (٥) .

(٤) آل عمران ، الآية : ١٨٦ .

(٥) النحل ، الآية : ١٢٦ .

(١) الاحقاف ، الآية : ٣٥ .

(٢) الزمل ، الآية : ١٠ .

(٣) الأحزاب ، الآية : ٤٨ .

وقال رسول الله ﷺ : « صل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعف
 عن ظلمك » . وروى : « أنه ﷺ قسم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب
 من المسلمين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! فآخبر به رسول الله ،
 فأحمرت وجنتاه ، ثم قال : رحم الله أخى موسى ، قد أودى بأكثر من
 هذا فصبر » .

الثالث - ما ليس مقدوراً للعبد مطلقاً ، كالمصائب والنوائب . والصبر
 عليه شديد في غاية الصعوبة ، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين ، والوصول
 اليه يتوقف على اليقين التام . ولذا قال النبي ﷺ : « أسألك من اليقين
 ما يهون على مصائب الدنيا » . وقد تقدم بعض الأخبار الواردة في فضيلة
 هذا القسم من الصبر . وقال ﷺ : « قال الله : إذا ابتليت عبدي ببلاءي
 فصبر ، ولم يشكني الى عواده ، أبدلته لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من
 دمه ، فإن أبرأته أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فالى رحمتي » . وقال
 ﷺ : « من اجلال الله ومعرفة حقه : ألا تشكروا وجمعك ، ولا تذكر
 مصيبتك » . وقال ﷺ : « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، ووظم ففقر ،
 اولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . وقال ﷺ : « إن الله - تعالى - قال
 لجبرئيل : ما جزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبجانك ! لا علم لنا إلا
 ما علمتنا . قال : جزاؤه الخلود في داري ، والنظر الى وجهي » . وقال
 داود عليه السلام : « يا رب ! ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟
 قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان ، لا انزعه عنه أبداً » . وقال لابنه
 سليمان - عليهما السلام - : « يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن
 التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر في ما قد فات » .
 وروى : « أن من ابتلى بموت ثلاثة أولاد ، لم يرد على النار أصلاً » .

تنزيب

(اختلاف مراتب الصبر في الثواب)

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها، فهو راجع إلى الصبر عن المصيبة. وعلى هذا، فاقسام الصبر ثلاثة: الصبر على المصائب والنوائب، والصبر على الطاعة، والصبر عن المصيبة. ثم ما تقدم من الخبر النبوي صريح في كون الأول أقل ثواباً، والآخر أكثر ثواباً، والوسط وسطاً بينهما. وربما ظهر من بعض الاخبار: كون الأول أكثر ثواباً. وأبو حامد الغزالي رجح الأول أولاً، وبه صرح بعض المتأخرين من اصحابنا للخبر النبوي، ثم رجح الثاني ثانياً محتجاً بما روى عن ابن عباس أنه قال: «الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله - تعالى -، فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله - تعالى -، وله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، فله تسعمائة درجة». وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا بيضاء الصديقين، لكونه شديداً على النفس. وعندى: أن القول بكون أحدهما أكثر ثواباً على الإطلاق غير صحيح، إذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة، أكثر ثواباً من الصبر على موت كثير من أعز الأولاد بعيداً، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثواباً من كف النفس عن كبائر المعاصي، وفضامها عن لذات الذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد، فالصواب: التفصيل بأن كل صبر من أى قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد وأشق فثوابه أكثر، مما كان أسهل وأيسر، كائناً ما كان، لما ثبت وتقرر أن أفضل الأعمال أحسنها، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الاخبار.

فصل

(طريق تحصيل الصبر)

الطريق إلى تحصيل الصبر: تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الهوى.
والأول: إنما يكون بأمر:

الأول - أن يكثّر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة، وأن يعلم أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة في الدنيا، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية. ومن أسلم خسيساً في نفيس، فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال. الثاني - أن يتذكر قلة قدر الشدة الدنيوية ووقتها، واستخلافه عنها عن قريب، مع بقاء الأجر على الصبر عليها.

الثالث - أن يعلم أن الجزع قبيح مضرّ بالدين والدنيا، ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مازور».

الرابع - أن يعود مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجاً، حتى يدرك لذّة الظفر بها، فيتجرى عليها، ويقوى متنه في مصارعتها. فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال. ولذا تزيد قوة الممارسين للأعمال الشاقة - كالحمالين والفلاحين - على قوة التاركين لها. فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء وأراد.

وأما الثاني: أعني تضعيف الهوى، إنما يكون بالمجاهدة والرياضة

من الصوم والجوع وقطع الأسباب المهيجة للشهوة من النظر الى مظانها وتخيّلها ، وبالتسليّة بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط ألا يخرج عن القدر المشروع .

تسميم

إن قيل : الصبر في المصائب إن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهة المعصية ، فذلك غير داخل تحت الاختيار ، إذ لا نسان مضطر إلى الكراهة ، فماذا ينال درجة الصبر في المصائب ؟

قلت : من كان عارفاً بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره ، بأن يعلم يقيناً بأن كل أمر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق أو سعة ، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات ، وما عرض من ذلك مما يعدّ شراً ، فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه ، وأن ذلك إذا كان متيقناً له ، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن ، وطابت بقضائه وقدره ، وتوسع صدره بمواقع حكمه ، وأيقن بأن قضاءه لم يجر إلا بالخير . وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين ، ومن بلغ بهذه الدرجة ، يتلذذ بكل ما يرد عليه . ومثله يتمتع بثروة لا تنفد ، ويتأيد بعز لا يفقد ، فيسرح في ملك الأبد ، ويعرج إلى قضاء السرمد . هذا مع أن العبد إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة في الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها ، وهذه الأمور داخله تحت اختياره ، فينبغي أن يحتنب عنها ، ويظهر الرضا بالقضاء ، ويبقى مستمراً على عادته ، ويعتقد أن ذلك

كان وديعة فاسترجعت ، ولا يخرجها عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع ، لأن ذلك مقتضى البشرية . ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه بالدمع ، فقيل له : أما نهيتنا عن هذا ؟ قال : « هذه رحمة ، إنما يرحم الله من عباده الرحماء » . وقال أيضاً ﷺ : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا يقول ما يسخط الرب » . بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضاً ، فإن المقدم على الفصد والحجامة راض به ، مع أنه متألم بسببه لا محالة . نعم ، من كمال الصبر كتمان المصائب ، لما ورد من أن كتمان المصائب والأوجاع والصدقة من كنوز البر . وقد ورد المدح في كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الامراض والمصائب . وقال الباقر عليه السلام : « الصبر الجميل ، صبر ليس فيه شكوى الى الناس » . وفي بعض الأخبار : « أن الشكاية أن تقول : ابتليت بما لم يبتل به أحد ، واصابني ما لم يصب أحداً ، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة ، وحميت اليوم ، ونحو ذلك » . وقال الصادق عليه السلام : « من اشتكى ليلة ، فقبلها بقبولها ، وأدى إلى الله شكرها ، كانت عبادة ستين سنة » ، قيل له : ما قبولها ؟ قال : « يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها ، فإذا أصبح حمد الله على ما كان » .

تقديم

(التلازم بين الصبر والشكر)

اعلم أنه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر ، فرجح كلاهما منهما على الآخر طائفة . والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر ، لأنهما متلازمان لا يتفك أحدهما عن الآخر . إذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر ، لسكون أداء الطاعة وترك المعصية شكراً ، كما مر في باب الشكر . والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر ، لما مر من

أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعماً، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم ، ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله - سبحانه - . وهذا هو الشكر بعينه ، لأنه تعظيم لله يمنع عن العصيان ، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس إليه ، وهذا هو عين الصبر عن المعصية . وأيضاً ، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر ، فكل صبر يستلزم الشكر ، وبالعكس .

وبالجملة : لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر ، فإن اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية ، بل اتحادهما فيهما ، أمر ظاهر ، كما تقدم . وفي البلاء المقيد الدنيوي ، إذا حصل فيه الصبر ، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له ، من الثواب الآخروي ، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة إلى الآخرة ، فيشكر على ذلك . فهو لا ينفك عن الشكر ، لأنه يعرف هذه النعم من الله ، كما يعرف البلاء أيضاً من الله ، فيفرح بالنعم ، ويعمل بمقتضى فرجه من التحميد وغيره . وفي النعمة المقيدة ، مثل المال ، إذا توسل به إلى تحصيل الدين ، فلا ريب في أنه كما تحقق فيه الشكر تحقق فيه الصبر أيضاً . إذ في انفاق المال وبذله في تحصيل الدين حبس النفس عما تحبه وتميل إليه ، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى . وفي البلاء المطلق ، كالكفر والجهل ، لا معنى لتحقيق الشكر أو الصبر فيه ، وفي النعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم وحسن الأخلاق ، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر أيضاً . إذ تحصيل السعادة ، والعلم ، والأخلاق الفاضلة ، والإبقاء عليها ، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل إليه . مع أن الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران ، وهو الصبر على المعصية . حتى أن شكر العينين بالنظر إلى عجائب صنع الله يستلزم

الصبر عن الغفلة والنوم ، والنظر الى ما تميل اليه النفس من النظر الى غير المحارم وأمثال ذلك .

فإن قيل : استلزام كل من الصبر والشكر للآخر مما لا ريب فيه ، إلا أن الكلام في أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل ، كما في فعل الطاعة وترك المعصية اكونهما متحدين فيهما ، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقيق جهتين ، فأى الجهتين أفضل ؟ مثل أن يبتي أحد بصيبة دنيوية ، نصبر عليها ، بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب ، وشكر عليها أيضاً ، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الأخرى وغيرها من الله ، وفرح بها ، وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة اخرى ، فهل الأفضل حينئذ جهة الصبر ، أو جهة الشكر ؟

قلنا : التأمل يعطى : أن كل صبر هو شكر بعينه ، وبالعكس . فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما . فإن الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله . وهذا هو عين الشكر ، إذ كل طاعة لله - سبحانه - شكر ، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران ، وهو عين الصبر عن المعصية .

فإن قلت : فعلى هذا ، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة ، وقد تقدم أنهما متضادان ، إذ الصبر يستدعى ألماً ، والشكر يستدعى فرحاً ، وقد ذكرت ان اجتماع الصبر والشكر في محل واحد إنما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة .

قلنا : امتناع الاتحاد فيهما إنما هو في الصبر والشكر على ما هو كان نعمة وبلاء بعينه ، فإنه لا يمكن أن يكون الصبر على فوت ولد - اعنى حبس النفس عن الجزع - هو عين الشكر على النعمة . إذ موت الولد بعينه ليس

نعمة ، بل هو مستلزم للنعمة . فالشكر على اللازم ، والصبر على الملزوم .
 فاختلفت جهتا الصبر والشكر ، فلا اتحاد . وما ذكرناه من الاتحاد إنما هو
 الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية ، أو على البلاء والطاعة . وندعى
 أن من وصلت إليه نعمة ، فشكر عليها بعرفانها من الله ، وفرح بها ،
 وعمل بمقتضى الفرح ، من التحميد أو طاعة اخرى ، كان هذا الشكر عين
 الصبر عن معصية هي الكفران ، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره .
 كذا من ابتلى ببلية ، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع ، فهذا الصبر عين
 الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع ، أو عن
 المعصية التي هي الجزع والاضطراب . وهذا الاتحاد والعينية يطرد في كل
 صبر وشكر ، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه ،
 وبالعكس . وليس بينهما تضاد وتغاير اصلاً ، والاستلزام واختلاف
 الجهة إنما هو في الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم ، ولا يمكن
 هنا اتحادهما لتضادهما . وفي هذه الصورة ، يكون كل من الصبر والشكر
 المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر ، من حيث ملاحظة
 الاعتبار السابق ، فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضاً .
 فإن قيل : عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر ، وليس داخلاً
 في الصبر ، فينبغي أن يكون الشكر لذلك أفضل من الصبر .

قلنا : في الشق الأول من صورة العينية والاتحاد ، يكون عرفان
 النعمة داخلاً في الصبر ، وفي الشق الثاني منهما ، وفي صورة الاستلزام ،
 يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر . فكما أن الشاكر يرى نعمة العيين من
 الله ، فكذا الصابر يرى العمى من الله ، فهما في المعرفة متساويان . ثم جميع
 ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا كانت حقيقة الصبر بحبس النفس

عن الشكوى فى البلاء مع الكراهة والتألم (١)، وعلى هذا يكون الرضا فوقه ، لو قطع النظر عن كون الصبر شكراً أيضاً ، ويكون الشكر فوق الرضا ، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به ، ولو لم يعتبر فى مفهوم الصبر الكراهة والتألم ، لصار الرضا والشكر فى بعض درجاته ، إذ يمكن أن يصل حال العبد فى الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به ، لأنه يراه من محبوبه .
وحيثئذ ، فترك الشكوى فى البلاء مع الكراهة صبراً ، وبدونها رضا ، ومع الفرح به شكر .

تفصيح

(القانون السكلى فى معرفة الفضائل)

إعلم أن المعيار والقانون السكلى فى معرفة فضائل الأعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند أرباب القلوب : أن العمل كلما كان أكثر تأثيراً فى إصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وأشد إعداداً له لمعرفة الله وانكشاف جلاله فى ذاته وصفاته وأفعاله ، كان أفضل . وعلى هذا القانون ، لولا الاتحاد والعميقة والتلازم بينهما ، لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما ، إذ لكل منهما درجات مختلفة فى تنوير القلب وتصفيته ، وسبب الاختلاف أسباب :
منها - الاختلاف بين أقسام النعم وأقسام البلاء .

ومنها - اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذ من الشكر ،

(١) قال استاذ البشر المحقق (الطوسى) - قدس سره - فى تعريف الصبر : « الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه ، وهو بمنع الباطن عن الاضطراب ، واللسان عن الشكابة ، والاعضاء عن الحركات غير المتأدبة . . . » .

واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة . فربما كان بعض درجات الصبر أشد تنويراً وأكثر اصلاحاً للقلب من بعض درجات الشكر ، وربما كان الأمر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما . فإن الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة ، وباختلافها - كثرة وقلة - تختلف درجاتهما . فمن الأمور والأحوال التي تندرج تحت الشكر : حياة العبد من تتابع نعم الله عليه ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر ، واعتذاره من قلة الشكر ، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله - تعالى - من غير استحقاقه لها ، وعليه بأن الشكر أيضاً نعمة من نعمه ومواهبه ، وحسن تواضعه بالنعم ، والتذلل ، وقلة اعتراضه ، وحسن أدبه بين يدي المنعم وتلقى النعم بحسن القبول ، واستعظام صغيرها ، وشكر الوسائط ، لقوله ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » . وقال السجاد عليه السلام : « أشكركم الله أشكركم للناس » . وقال عليه السلام : « يقول الله - تعالى - لعبد من عبده يوم القيامة : أشكرت فلانا ؟ فيقول : بل شكرتك يا رب ! فيقول : لم تشكرني إذ لم تشكره » . وقال الصادق عليه السلام : « أشكر من أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك » . ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الأحوال في الشكر ، وطال زمانه ، ازداد فضله . وقد نقل : « أن رجلاً (كان) يهوى ابنة عم له ، وهي أيضاً تهواه ، فانفق مزاوجتهما ، فقال الرجل ليلة الزفاف لها : تعالي حتى نحى هذه الليلة شكرياً لله على ما جمعنا ، فقالت : نعم ! فصليا تلك الليلة بأسرها ، ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه . فلما كانت الليلة الثانية ، قال مثل ذلك ، فصليا طول الليل . . . فهكذا يفعلان في ثمانين سنة ، وبقيتا على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة ، من دون رجوع لأحدهما إلى الآخر ، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما ، فضلاً عن شيء آخر » . ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل مما أتت به مراتب من

صبرهما على بلاء العزوبة ، لو لم يحصل بينهما الجمع والوصل .

تعميم

(تفضيل الصبر على الشكر)

اعلم أن الظاهر من بعض الأخبار : أن الصبر أفضل وأكثر ثواباً من الشكر . كما روى : « أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض ، فيجزيه الله جزاء الشاكرين . ويؤتى بأصبر أهل الأرض ، فيقال له : أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ؟ فيقول : نعم يا رب ! فيقول الله - تعالى - : كلا ! أنعمت عليه فشكر ، وابتليتك فصبرت ، لا ضعفن عليك الأجر عليه ! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » . وكقوله عليه السلام : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » . وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر ، لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه . وكقول الباقر عليه السلام : « مروءة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى ، أكثر من مروءة الإعطاء » . ويؤيد ذلك قوله - تعالى - : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) : وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الأخبار تقييدان :

أحدهما - التقييد ببعض المراتب ، بأن يقال : المراد أن بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر . وهذا مما لا ريب فيه ، فإن من سلب اعز أولاده وابتلى بالفقر والمرض ، ومع ذلك صبر ولم يجزع ، فهو أفضل البتة ممن أعطى مالا كثيراً فقال : شكر الله ، الحمد لله ، من دون إبداء عمل آخر من الطاعات . وليس المراد أن كل ما يسمى صبراً أفضل من كل درجة من درجات الشكر . إذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاستشغال بالطاعة والعبادات ، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية ، من

دون فتور ، أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه .

وثانيتها — التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر . فإن الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببلية إلا الصبر ، ولا يلتفتون الى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيماً لله ، وهو عين الشكر . وكذا لا يفهمون من اظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر ، ولا يلتفتون الى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران ، وهو الشكر بعينه .
ومنها :

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته . وضده الطاعة ، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له بآداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة . وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي : الطهارة ، والصلاة ، والذكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن ، والصوم ، والحج ، وزيارة النبي - صلى الله عليه وآله - والأئمة - عليهم السلام - ، والجهاد في سبيل الله ، وآداء المعروف ، الشامل للزكاة ، والخمس ، والصدقة المندوبة ، وغيرها . والأخير — اعني آداء المعروف باقسامه — قد تقدم . والجهاد في هذا الزمان ساقط . فنشير الى بعض الأسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقي ، في مقاصد وعامة . وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة ، فهي مذكورة في الفقهيات .

المقصر الأول

الطهارة - حقيقة الطهارة - ما ينبغي للمؤمن في الطهارة - ازالة
الايوساخ - آداب الحمام - السر في ازالة الاوساخ .

* * *

اعلم ان الطهارة والنظافة أهم الأمور للعباد . إذ الطهارة الظاهرة وسيلة
الى حصول الطهارة الباطنة ، وما لم تحصل الاولى لم تحصل الثانية . ولذا ورد
في مدحها ما ورد ، قال الله - سبحانه - :

« فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ » (١) . وقال : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ
مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ » (٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « بنى الدين على النظافة » . وقال ﷺ :
« الطهور نصف الايمان » . وقال ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور » . وقال ﷺ :
« بنس للعبد القاذورة » . وقال ﷺ : « من اتخذ ثوبا فلينظفه » . وقال
أمير المؤمنين - عليه السلام - : « التنظيف من الثياب يذهب الهم والحزن ،
وهو طهور للصلاة » .

ثم للطهارة أربع مراتب :

الأولى - تطهير الظاهر من الاحداث والاخبث والفضلات .
الثانية - تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات .

(١) التوبة ، الآية : ١٠٩ . (٢) المائدة ، الآية : ٦ .

الثالثة - تطهير القلب من مساوى الأخلاق ورذائلها .

الرابعة - تطهير السرِّ عما سوى الله - تعالى - ، وهى تطهير الأنبياء والصدّيقين . والطهارة فى كل مرتبة نصف العمل الذى فيها ، إذ الغاية القصوى فى عمل السرِّ أن ينكشف له جلال الله وعظمته ، وتحصل له المعرفة التامة ، والحب والانس . ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عنه ما سوى الله ، ولذلك قال الله - تعالى - :

« قُلِ اللَّهُ تُمْ ذَرْمُهُمْ » (١) . فان الله وغيره لا

يجتمعان فى قلب واحد : « وما جعلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » (٢) .

فتطهير السرِّ عما سوى الله نصف عمله ، والنصف الآخر شروق نور الحق فيه . والغاية القصوى فى عمل القلب عمارته بالأخلاق الحمودة ، والعقائد الحقّة المشروعة . ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائصها ، من الأخلاق المذمومة ، والعقائد الفاسدة . فتطهيرها عن أحد الشطرين ، والشر الآخر تحلّيته بالفضائل والعقائد الحقّة .

وأما عمل الجوارح ، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات . ولا يمكن ذلك ما لم يطهر عن المعاصى والمناهى . فهذا التطهير نصف عملها ، ونصفه الآخر عمارتها بالطاعات . وقس على ذلك الحال فى المرتبة الأولى . والى ذلك الإشارة بقول النبي ﷺ : « الطهور نصف الإيمان » . فإن المراد : أن تطهير الظاهر ، والجوارح ، والقلب ، والسر ، من النجاسات والمعاصى

(١) الانعام ، الآية : ٩١ . (٢) الأحزاب ، الآية : ٤ .

ورذائل الأخلاق وما سوى الله نصف الإيمان ، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعمالي الأخلاق ، والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله . ولا تظن أن مراده ﷺ أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بإفاضة الماء نصف الإيمان ، مع تلوث الجوارح باخبات المعاصي ، وتنجس القلب باقذار مساوي الأخلاق ، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله . فالمراد التطهير في المراتب الأربع ، التي هي من مقامات الدين ، وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض ، ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق ، ما لم يتجاوز ما دونه ، فلا يصل إلى طهارة السر بما سوى الله ، وعمارته بمعرفة الله ، وانكشاف جلاله وعظمته ، ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الأخلاق المذمومة ، وتحليته بالملكات الحمودة . ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات . ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن إزالة الخبث والحدث عن الظاهر ، وعمارته بالنظافة والنزاهة .

فصل

(حقيقة الطهارة)

طهارة الظاهر ، إما عن الخبث ، أو عن الحدث ، أو عن فضلات البدن ، وما يتعلق بها من الأحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة ، مستقصاة في كتب الفقه .

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التخلي لقضاء الحاجة ، أن يتذكر عنده نقصه وحاجته ، وخبث باطنه ، وخسة حاله ، وما يشتمل عليه من الأقدار ، وكونه حامل النجاسات ، ويتذكر باستراحة نفسه عند إخراجها ، وسكون قلبه عن دنسها ، وفراغه للعبادات والمناجات ، وأن

الأخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنية ، واقذار كامنة ، لتستريح نفسها عند اخراجها ، ويطمئن قلبه من ازالة دنسها ، وعند اخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة ، ويتأهل للقرب والوصول الى حريم العزة . فكما يسعى في اخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا ، فينبغي أن يجتهد أيضاً في اخراج الاقذار الباطنية ، والنجاسات الداخلة الغائضة (١) في الأعماق ، المفسدة على الاطلاق ، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد . قال الصادق عليه السلام : « إنما سعى المستراح مستراحاً لا استراحة النفس من أنقال النجاسات ، واستفراغ الاقذار والكسافات فيها . والمؤمن يعتبر عندها إن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته ، فيستريح بالعدول عنها وتركها ، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها ، ويستنكف عن جمعها واخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ، ويتفكر في نفسه المكرومة في حال كيف تصير ذليلة في حال ، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين . فإن الراحة في هوان الدنيا ، والفراغ من التمتع بها ، وفي ازالة النجاسة من الحرام والشبهة . فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها ، ويفرغ من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والتدم والحياء ، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه ، طلباً لحسن المسآب ، وطيب الزلفي . ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكيف عن الشهوات ، الى أن يتصل بامان الله - تعالى - في دار القرار ، ويدوق طعم رضاه ، فإن المعول على ذلك ، وما عداه فلا شيء . » (٢) .

(١) الغائضة : الغائرة . غيض الدمع : حبه وأخفاه .

(٢) الحديث المذكور في (مصباح الشريعة) ، الباب التاسع وفي (مستدرك الوسائل) : ١ / ٣٧ - ٣٨ ، كتاب الطهارة . وفي الموضوعين اختلاف كثير عما ذكر هنا ، فصحناهما كما كان في الموضوعين .

وينبغي أن يتأمل في أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهيهِ ،
ويحترص في طلبه من لذائذ الأطعمة ، وكلما كانت أذ عفوتها أشد ،
فما كانت عاقبته ذلك ، فليحذر من أن يأخذه من غير حله ، فيعذب أبد
الآباد لأجله .

فصل

(ما ينبغي للمؤمن في الطهارة)

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث :
أن تكليفه بها للدخول في العبادات والمناجاة مع خالق البريات إنما هو
لكون أعضائه التي أمر بغسلها مباشرة الأمور الدنيوية ، منهمكة في الكدورات
الطبيعية ، نخرجت عن أهلية القيام بين يدي الله - سبحانه - ، والاشتغال
بعبادته . فالأمر بغسلها ، لتتطهر عن هذه الكدورات ، فيتأهل للمناجاة .
ولا ريب في أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الأدناس الدنيوية والكدورات
الجسمانية ، ما لم يطهر قلبه عن الأخلاق الذميمة ، والعلائق الدنيوية ،
وما لم يعزم على الرجوع إلى الله ، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها . فينبغي
أن يكون قلبه عند الطهارة مطهراً عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات ،
جازماً على فطام الأعضاء التي هي اتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا ، لتسرى
نوريته وطهارته إلى تلك الأعضاء ، ثم أمر في الوضوء أولاً : بغسل الوجه ،
الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة ، التي هي أعظم الأسباب الباعثة على
مطالب الدنيا ، ليتوجه ويقبل بوجه القلب على الله ، وهو خال من تلك
الأدناس ، وثانياً : بغسل اليدين ، لمباشرتهما أكثر الأمور الدنيوية
والمشتهيات الطبيعية المانعة من الإقبال على الآخرة ، وثالثاً : بمسح
الرجلين ، للتوصل بهما إلى أكثر المطالب الدنيوية ، والمقاصد الطبيعية .

فأمر بتطهير جميعها ليسوغ له الدخول بها في العبادات والإقبال عليها . وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة ، لأن أدنى حالات الانسان وأشدّها تعلقاً بالمسكات الشهوية حالة الوقاع ، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة . ولهذا قال رسول الله ﷺ : تحت كل شعرة جنابة ، . فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العلية ، منغمساً في الذات الدنية ، كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة ، والدخول في العبادة المنيفة . وأمر في التيمم بمسح الأعضاء بالتراب ، عند تعذر غسلها بالماء ، وضماً لتلك الأعضاء الرئيسة ، وهضماً لها بملاقاتها أثر التربة الخسيسة .

ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والأعضاء ، والمستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنابه - تعالى - ، وهو الموضع لنظر الله - سبحانه - ، كما قال ﷺ : « إن الله لا ينظر الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » ، فله من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكل . فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل . وإذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة ، وتحليته بالأوصاف الجميلة ، لرسوخه على حب الدنيا الدنية ، فليقمه في مقام الهضم والأزراء ، ويسقه بسياط الذل والإغضاء . كما أنه عند تعذر غسل الأعضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب ، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره ، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع ، فإنه عند المنكسرة قلوبهم ، كما ورد في الأثر ، فترق من هذه الاشارات ونحوها الى ما يوجب لك الإقبال ، ويتدارك سالف الإهمال .

ثم ما ذكر من السرّ في الطهارة ، يمكن استنباطه - مع الزيادة - من كلام مولانا الصادق عليه السلام في (مصباح الشريعة) ، حيث قال : « إذا أردت

الطهارة والوضوء ، فتقدم الى الماء تقدمك الى رحمة الله ، فإن الله - تعالى - قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ، ودليلاً إلى بساط خدمته ، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غيره ، قال الله - تعالى - :

« وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » (١) . وقال الله

- تعالى - : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا

يُؤْمِنُونَ » (٢) .

فكما أحى به كل شيء من نعيم الدنيا ، كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب بالطاعات . وتفكر في صفاء الماء ورقته ، وطهره وبركته ، ولطيف امتزاجه بكل شيء . واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها ، وتعبدك بأدائها في فرائضه وسنته . فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة ، فاذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب . ثم عاشر خلق الله - تعالى - كما امتزاج الماء بالأشياء ، يؤدي كل شيء حقه ، ولا يتغير عن معناه ، معتبراً لقول الرسول ﷺ : (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء) . ولتسكن صفوتك مع الله - تعالى - في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهوراً ، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء ، (٣) .

(١) الفرقان ، الآية : ٤٨ . (٢) الأنبياء ، الآية : ٣٠ .

(٣) صحننا الحديث على (مصباح الصبرية) ، الباب العاشر . وعلى (المستدرک) :

ومن الأسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الأعضاء بالتطهير في الوضوء ، ما أشار إليه مولانا الرضا عليه السلام بقوله : « إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه ، مطيعاً له فيما أمره ، نقياً من الأدناس والنجاسة ، مع ما فيه من ذهاب الكسل ، وطرده النعاس ، وتركبة الفؤاد للقيام بين يدي الجبار . وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين ، لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار ، فانما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يجب فيه الوضوء ، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع ، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتمتل ، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده ، وبرجليه يقوم ويقعد . وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء ، لأن الجنابة من نفس الانسان ، وهو شيء يخرج من جميع جسده ، والخلاء ليس هو من نفس الانسان ، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب ، (١) .

فصل

(ازالة الاوساخ)

ينبغي لكل مؤمن أن يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه ، كشعر

(١) هذه الرواية نقلها العلامة (المجلسي) - قدس سره - في (البحار) : ١٨ / ٥٦ ، باب علل الوضوء ونوابه وعقابه تركه ، وعن (العيون والملل) لمشيخ المحدثين مولانا (الصدوق) - رضوان الله عليه - ، ولم أعثر عليها إلا في الموضع المذكور من (بحار الانوار) .

ولا ينبغي أن ما نقله العلامة (المجلسي) - قدس الله روحه - في الموضع المذكور فيه اختلاف كثير مما ذكر في نسخ (جامع السماعات) الخطية والمطبوعة ، بحيث لا يمكن تصحيح الرواية إلا بنقلها من (البحار) وذكرها في هامش الكتاب . وذلك غير ممكن ، لضيق المقام ، فلا تجله تركنا تصحيحها ، لعل القارئ الكريم يقف على مصدر آخر لها . فن أراء الاطلاع على الرواية ، فعليه بمراجعة (البحار) في الموضع المذكور .

الرأس بالحلق ، وشعر الأنف والشارب وما طال من اللحية بالقبض ،
 وشعر الإبط والعانة وسائر الأعضاء بالنورة ، وكأظفار اليدين والرجلين
 بالقلم ، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل
 والتسريح بالمشط ، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذنين بالمسح ومثله ،
 وما يجتمع منه على الاسنان وأطراف اللسان بالسواك والمضمضة ، وما
 يجتمع في الأنف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق ، وما يجتمع من
 الوسخ تحت الأظفار بالقلم والغسل ، وما يجتمع منه في رؤس الأنامل وفي
 معاطف ظهورها عقيب أكل الطعام بالغسل ، وما يجتمع من الدرن على
 جميع بدنه ، وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام .

تفصيل

(آداب الحمام)

ينبغي لمن يدخل الحمام ، أن يتذكر بجرارته حر النار ، ويقدر
 نفسه محبوساً في البيت ساعة ، ويقبسه الى جهنم ، ويستعيد بالله منها .
 قال الصادق عليه السلام : « فاذا دخلت البيت الثالث ، فقل : نعوذ بالله من النار
 ونسأله الجنة . وتردها الى وقت خروجك من البيت الحار » . وقال
 أمير المؤمنين عليه السلام : « نعم البيت الحمام ، يذهب بالدرن ، وتذكر فيه
 النار » . وفيه اشارة الى أنه ينبغي للماقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في
 لحظة ، فإنها مقره ومستقره . فيكون له في كل ما يراه ، من ماء أو نار أو
 غيرهما ، عبرة وموعظة . فإن المرأ ينظر في كل شيء بحسب همته . فالبنار
 إذا دخل داراً معمورة مفروشة ينظر الى الفرش ويتأمل في قيمتها .
 والحائك إذا دخلها ينظر الى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها ، والنجار إذا
 دخلها ينظر الى أبوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرتها وتركيبها ، والبنّاء

إذا دخلها ينظر الى الحيطان والسقف وكيفية بنائها وإحكامها واستقامتها .
فكذلك سالك طريق الآخرة، لا ينظر الى شئ إلاّ وتكون له موعظة وعبرة
من الآخرة، فإن نظر الى ظلمة تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر الى نار تذكر نار
جهنم، وإن نظر الى حية تذكر أفاعى جهنم، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة
الصور ، وإن نظر الى صورة قبيحة تذكر صورة النساكين والزبانية ، وإن
رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة ، وإن سمع كلمة رد أو قبول
تذكر ما ينكشف له فى آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول ، وإن
رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة . . . إلى غير ذلك .

تعميم

(السر فى إزالة الأوساخ)

السر فى إزالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر ، فإنها توجب
تنوير القلب ، وانسراح الصدر ، وطررد الشيطان . إذ هى كسافات مانعة
عن النورية والتجرد ، فتشتمز منها الملائكة ، ويرغب اليها الشياطين .
ومن تأمل فى الأحكام والآداب التى جاء بها رسول الله ﷺ، وكانت له بصيرة
ناقدة ، يعلم أن شيئاً منها لا يخلو عن حكمة ، حتى أن ما صدر عنه فى الآداب
والحركات والأفعال والأقوال ، من ترتيب خاص ، أو تخصيص بعدد
معين ، أو ابتداء من موضع خاص ، أو بواحد معين من الأشياء المتماثلة ،
يتضمن حكماً أو حكمة البتة . مثال ذلك : أنه ﷺ كان يكتحل فى عينه
اليمنى ثلاثاً وفى عينه اليسرى اثنتين ، والسر فى هذا الترتيب وهذا التخصيص :
أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها ، وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وتراً ،
فإن للوتر فضلاً على الزوج ، لأن الله وتر يحب الوتر ، فلا ينبغى أن يخلو

فعل العبد عن مناسبة لو صف من أوصاف الرب، وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر، لأن اليسرى حينئذ لا تخصها إلا واحدة، والغالب أن الواحدة لا تستوعب اصول الأجناف بالكحل، وإنما خصص اليمين بالزيادة لأن التفضيل لا بد منه للإيثار، واليمين أفضل، فهو بالزيادة أحق، وإنما اقتصر على الاثنین لليسرى مع كونه زوجاً، إذ الزوجية في احدهما لازمة ضرورية، اذ لو جعل لكل واحدة وترأ لكان المجموع زوجاً، إذ الوتر مع الوتر زوج، ورعاية الإيثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد. مثال آخر. روى الجمهور في تقليم الأظفار: « أن رسول الله ﷺ كان يبدأ عند تقليم أظفاره الشريفة بمسبحة اليمنى، ويختم بابهام اليمنى، بأن يبتدىء من مسبحتها الى خنصرها، ثم يبتدىء من خنصر اليسرى الى ابهام اليمنى». وفي طريقنا روايتان: احدهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى، واخرهما بعكس ذلك، وهي أشهر. فالسر على رواية الجمهور - كما قيل - أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدىء بها، ثم على اليمنى خمسة اصابع والمسبحة أشرفها فيبتدأ بها، ثم ينبغى أن يبتدىء بما على يمينها لكون اليمنى أشرف، ولذا استحب في الشرع وضع الظهور وغيره على اليمنى. ولا ريب في أنه اذا وضعت الكف على الأرض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى، ووضع ظهر اليد على الأرض وان اقتضى كون الابهام هو اليمين، إلا أن الاعتبار الأول أولى، إذ اليد اذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة الى جهة الأرض، لأن جهة حركة اليد اليمنى الى جهة اليسار، واليسرى الى جهة اليمين، واستتمام حركة كل منهما في جهة يجعل الكف على الأرض وظهرها عالياً، واذا كانت الكف مائلة الى جهة الأرض فاعتبار ما يقتضيه الطبع أولى، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى. ثم اذا وضعت

الكف على الكف ، صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة الى أن يعود الى المسبحة ، فتقع البداية بخنصر اليسرى والختم بابهامها ، ويبقى ابهام اليمنى ، وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الاصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها ، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف ، فإن ذلك لا يقتضيه الطبع . هذا ، وأما السرّ على الرواية الأولى من طريقنا ، فكأنه اعتبار الاصابع العشرة في حكم صف واحد ثابت على الأرض ، والابتداء باليمين ، فاكنتي بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها . وأما الرواية الثانية ، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل اصبع بعد الأولى مع الترتيب فيها ، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع . هذا ، وأما اصابع الرجل ، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها . فينبغي اعتبار أحد الطريقتين المرويين عندنا فيها ، ولعل اعتبار الأولى لأظهرية سرها أولى ، وينبغي أن يكون تقليم اظفارها بعد تقليم اظفار اليدين إن وقعا في وقت واحد ، إذ اليد أشرف من الرجل . وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات ، فإنه لا يخلو شيء منها على سر حكيم ، وإن كانت عقولنا قاصرة عن ادراك أكثرها .

المقصر الثاني

الصلاة - حقيقة الصلاة - حضور القلب - دفع اشكال - شرائط الصلاة - طريق تحصيل المعاني الباطنة - اسرار الصلاة - الوقت - آداب الصلاة - آداب المصلي - الاستقبال - القيام - التكبيرات - النية - تكبيرة الاحرام - دعاء الاستفتاح - الاستعاذة - الركوع - السجود - التشهد - التسليم - افاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه - ما ينبغى في إمام الجماعة - ما ينبغى في صلاة الجمعة والعيدين - ما ينبغى للمؤمن عند ظهور الآيات .

إعلم أن الصلاة معجون سماوى ، وتركيب إلهى ، ركبت من اجزاء كثيرة مختلفة ، متفاوتة فى الفضل والاهتمام بها . فبعضها بمنزلة الروح ، وبعضها بمثابة الأعضاء الرئيسة ، وبعضها بمنزلة سائر الأعضاء .

وتوضيح ذلك : أن الانسان — مثلا — لما كان حقيقة مركبة من اجزاء معينة ، فهو لا يكون انسانا موجوداً كاملاً إلا بمعنى باطن هو الروح ، وأعضاء محسوسة بعضها فى جوفه وبعضها فى ظاهره . وهذه الأعضاء متفاوتة المراتب ، إذ بعضها مما ينعدم الانسان بعده وتزول الحياة بزواله ، كالقلب والدماع والسكبد والمعدة وأمثالها ، وبعضها وإن لم ينعدم بعده أصل الحياة ، إلا أنه ترتفع به تمامية الانسان ويصير ناقصاً ، كاليد والرجل والعين وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته الحسن ، كالحاجبين واللحية والاهداب وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا أصله، كاستة واس الحاجبين ، وتناسب الخلقعة ، وسواد شعر اللحية ، وامتزاج البياض بالخررة ، وأمثال ذلك . وكذلك الصلاة حقيقة مركبة ، وصورة صورها الشرع من امور متفاوتة ، وتعبدنا باكتسابها . فروحها : النية ، والقربة ، وحضور القلب ، والاخلاص . واعمالها الاركانية : من تكبيرة الاحرام ، والركوع ، والسجود ، والقيام ، بمنزلة الاعضاء الرئيسة ، فتفوت بفواتها الصلاة على الاطلاق ، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها . وسائر الاعمال الواجبة : من الفاتحة ، والسورة ، واذكار الركوع ، والسجدتين ، والطمانينة فيهما ، وفى رفع الرأس عنهما ، والتشهد ، والتسليم ، وغير ذلك من الاعمال الواجبة التى تبطل الصلاة بتركها عمداً لا سهواً ، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك ، مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت به ، والاعمال المسنونة ، والهيات المنذوبة ، والآداب

المستحبة : من القنوت ، ودعاء الافتتاح ، وغير تمكسيرة الاحرام من التكبيرات ، والتعوذ ، والزائد عن قدر الواجب في التشهد والتسليم من الاذكار ، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمداً أو سهواً ، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب ، فهي بمنزلة الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب وتناسب الخلقة ، وغير ذلك مما يفوت بفوات بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها ، ويصير الشخص بسببه مشوه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه .

وإذا عرفت ذلك : فاعلم - يا حبيبي - أن صلاتك قرينة وتحفة تتقرب بها الى حضرة ملك الملوك ، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين اليهم . وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد اليك في يوم العرض الأكبر ، فاليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقييحها ، فمن أدأها على النحو المأمور به ، باعمالها الواجبة والمندوبة ، وشرائطها الظاهرة والباطنة ، مع الاخلاص وحضور القلب ، كان كمن أهدى عبداً صحيحاً سوياً شاباً جميلاً عاقلاً كاملاً الى ملك من الملوك . ومن اقتصر على اعمالها الظاهرة ، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص ، كان كمن أهدى عبداً ميتاً بلا روح الى ملك من الملوك . ومن ترك عمداً شيئاً من واجباته ، كان كمن أهدى عبداً مقتولاً اليه . ومن اقتصر على أقل ما يجزى كان كمن أهدى اليه عبد حى أعمى ، أو أصم ، أو أبكم ، أو مقطوع الأطراف ، أو هرماً ، أو قبيح المنظر ، أو مجروح الأعضاء ، أو أمثال ذلك . فتنبه أيها الغافل ، وتأمل في أنك اذا اهديت تحفة الى ملك من ملوك الدنيا ، بل الى من دونه بمراتب كثيرة ، من الأمراء والحكام ، كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها ، فما بالك أيها المغرور تغفل وتساهل من تحسين هديتك وتحفتك الى ملك الملوك الذي منه

بدؤك واليه عودك ؟ وقد ورد : أن كل صلاة لا يتم الانسان ركوعها وسجودها فهي الخضم الأول على صاحبها يوم العرض الأكبر ، وتقول :
« ضيعة الله كما ضيعتني ! » .

فصل

(حقيقة الصلاة)

لا بحث لنا عما يتعلق بظواهرها من الأجزاء والشرائط والأحكام ،
إذ بيانها على عهد الفقه . فلنشر الى المعاني الباطنة التي بها تتم حياتها ، والى
الأسرار والآداب الخفية الباطنة المتعلقة بأجزائها وشرائطها الظاهرة ،
لتكون ملحوظة للعبد عند فعلها .

فنقول : المعاني الباطنة ، التي هي روح الصلاة وحقيقتها ، سبعة :
الأول — الاخلاص والقربة ، وخلوها عن شوائب الرياء . وقد
تقدم تفصيل القول في ذلك .

الثاني — حضور القلب : وهو أن يفرغ القلب عن غير ما هو
ملا بس له ومتكلم به ، حتى يكون العلم مقرونا بما يفعله وما يقوله ، من
غير جريان الفكر في غيرهما . فهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه ،
وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه ، فقد حصل حضور القلب .
ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه ، وقد يعبر عنه
بالخشوع بالقلب ، فإن الخشوع في الصلاة خشوعان : خشوع بالقلب :
وهو أن يتفرغ لجمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها ، بحيث لا يكون
في قلبه غير المعبود . وخبوع بالجوارح : وهو أن يفيض بصره ، ولا
يلتفت ، ولا يعبث ، ولا يتشاءب ، ولا يتمطى ، ولا يفرقع أصابعه ،

وبالجملة : لا يتحرك لغير الصلاة ، ولا يفعل شيئاً من المكروهات ، وربما عبر ذلك بالخضوع .

الثالث — التفهم لمعنى الكلام : وهو أمر وراء حضور القلب . فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ، ولا يكون حاضراً مع معناه . فالمراد بالتفهم هو اشتغال القلب على العلم بمعنى اللفظ . وهذا مقام يتفاوت فيه الناس ، إذ ليس يشترك الناس في تفهم معاني القرآن والتسبيحات ، فكلم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره . ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمتكر ، فإنها تفهم أموراً تمتع تلك الأمور عن الفحشاء والمتكر لا محالة .

الرابع — التعظيم : وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم . إذ الرجل ربما يخاطب غيره ، وهو حاضر القلب فيه ، ومتفهم لمعناه ، ولا يكون معظماً له .

الخامس — الهيبة : وهي زائدة على التعظيم ، لأنها عبارة عن خوف منشأه التعظيم ، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً . ثم كل خوف لا يسمى مهابة ، بل الهيبة خوف مصدره الإجلال .

السادس — الرجاء : ولا ريب في كونه زائداً عما ذكر . فكلم من رجل يعظم ملكاً من الملوك ، ويهابه ويخاف سطوته ، ولا يرجو بره واحسانه . والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله ، كما أنه خائف بتقصيره عقابه .

السابع — الحياء : ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء ، لتصورها من غير حياء ، حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

فصل

(حضور القلب)

إعلم أن كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها ، والمقصود الاصلى منها ، أمر ظاهر . إذ الغرض الاصلى من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيلمها ، فكل عمل يكون اشد تأثيراً فيهما يكون أفضل . ولا ريب في أن المقتضى لصفاء النفس وتجردها وتصقيلمها عن الكدورات من الصلاة ليس إلا الأمور المذكورة ، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلية فيها ، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه ، مع أن المصلي في صلاته ودعائه مناج ربه ؟ ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وأيضاً الكلام إعراب عما في الضمير ، ولا يتأتى الإعراب عما في الضمير إلا بحضور القلب ، فإى سؤال في قوله : « إهدنا الصراط المستقيم » ، إذا كان القلب غافلاً ؟ ولا شك أيضاً أن المقصود من القراءة والاذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله - تعالى - ، فإذا كان قلب العبد محجوباً عنه بحجاب الغفلة ، ولا يراه ولا يشاهده ، بل كان غافلاً عن المخاطب ، ويحرك لسانه بحكم العادة ، فما أبعدها عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيلم القلب ، وتجديد ذكر الله ، ورسوخ عقد الايمان بها . هذا حكم القراءة والذكر . وأما الركوع والسجود ، فالمقصود منهما التعظيم قطعاً ، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ، وإذا خرج عن كونه تعظيماً ، لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس ، وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، كما في أفعال الحج ، واعطاء المال في الزكاة ، وامسك النفس عن الشهوات في الصوم . فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين ، والفاصل

بين الكفر والاسلام ، وتقدم على سائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص ، ولا يكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة ، تظاهرت الآيات والأخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح أهلها ، وعلى ذم الغفلة والتفكير في أمور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة ، وقد تظاهرت الأخبار أيضاً بأن الأنبياء والأوصياء واکابر الأولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الإقبال والخشوع والخوف . قال الله - سبحانه - :

« الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » (١) . وقال : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » (٢) . والغفلة تضاد الذكر ، فمن كان غافلاً في صلاته لا يكون مقياً للصلاة لذكره . وقال : « وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ » (٣) . وقال : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » (٤) ، ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين ، لا لأنهم سهوا عنها وتركوها . وقال : « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » (٥) . قيل المراد : سكارى من كثرة الهم ، وقيل : من حب الدنيا ، ولو حمل على ظاهره ففيه تشبيه على سكر الدنيا ، إذ بين فيه العلة . وقال : حتى تعلموا ما تقولون . وكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول في

(١) المؤمنون ، الآية : ٢ .
 (٢) طه ، الآية : ١٤ .
 (٣) الأعراف ، الآية : ٢٠٤ .
 (٤) الماعون ، الآية : ٤ - ٥ .
 (٥) النساء ، الآية : ٤٢ .

صلاته . وقال رسول الله ﷺ : « من صلى ركعتين ، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » . وقال ﷺ : « إذا صليت صلاة فريضة ، فصل لوقتها صلاة مودع يخاف ألا يعود فيها » . وقال ﷺ : « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه » . وقال ﷺ : « إنما فرضت الصلاة ، وأمر بالحج والطواف ، وأشعرت المناسك ، لإقامة ذكر الله ، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة ، فما قيمة ذكرك ؟ » .

وعن ابى عبدالله عليه السلام قال : « قال الله - تبارك وتعالى - : إنما أقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ، ويكف نفسه عن الشهوات من أجل ، ويقطع نهاره بذكرى ، ولا يتعاطم على خلقي ، ويطعم الجائع ، ويكسو العارى ، ويرحم المصاب ، ويؤوى الغريب ، فذلك يشرق نوره مثل الشمس ، أجعل له في الظلمات نوراً ، وفي الجهالة علماً ، أكلأه بعزتي ، واستحفظه بملائكتي ، يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه . فمثل ذلك عندى كمثل جنات الفردوس ، لا تيبس ثمارها ، ولا تتغير عن حالها ، (١) . وفي أخبار موسى : « يا موسى ، إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تبغض أعضاءك ، وكن عند ذكرى خاشعاً مطمئناً . وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك . وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل ، وناجني بقلب وجل ، ولسان صادق » . وأوحى إليه عليه السلام : « قل لعصاة أمتك : لا تذكروني ، فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته ، وإذا ذكروني ذكرتهم باللعة » . وفي بعض الأحاديث القدسية : « ليس كل مهمل أتقبل صلاته ، إنما أقبل صلاة من تواضع

(١) الحديث مروي في (بحار الأنوار) : ١٨ / ١٩٦ ، باب آداب الصلاة

عن (المحاسن) ، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) ، فصحة عن علي الموضع المذكور من (بحار الأنوار) .

لعظمتي ، ولم يتكبر على عبادي ، وأطعم الفقير الجائع لوجهي ، . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ، ولم يشتغل قلبه بما تراه عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه ، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره ، . وقال الصادق عليه السلام : « لا تجتمع الرغبة والرغبة في قلب إلا وجبت له الجنة ، فإذا صليت ، فاقبل بقلبك على الله - عز وجل - ، فإنه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله - عز وجل - في صلاته ودعائه ، إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين ، وأيده مع مودتهم إياه بالجنة ، . وقال الباقر عليه السلام : « إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعمها وخمسها ، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه ، وإنما امرؤ بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة ، . وروى : « أن إبراهيم الخليل كان يسمع تأوّهه على حد ميل ، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل (١) ، . وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك . وقال بعض أزواجه : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا ونحدثه ، فإذا حضرت الصلاة ، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ، . وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا أخذ في الوضوء ، يتغير وجهه من خيفة الله . وكان عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون ، ف قيل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : « جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، . وروى : « أنه وقع نصل في رجله عليه السلام ، فلم يمكن أحداً من إخراجها . فقالت فاطمة - عليها السلام - : أخرجوه في حال صلاته ، فإنه لا يحس حينئذ بما يجري عليه . فأخرج وهو في صلاته ، فلم يحس به أصلاً ، . وكانت

(١) الأزيز : صوت غليان القدر . والمرجل - وزان منبر - : القدر من الحجارة .

الصديقة فاطمة - عليها السلام - تنهج (١) في الصلاة من خيفة الله . وكان الحسن بن علي - عليهما السلام - اذا فرغ من وضوئه ، تغير لونه ، فقبل له في ذلك ، فقال : « حق علي من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه » . وكان الإمام علي بن الحسين - عليهما السلام - اذا توضأ اصفر لونه ، فيقال له : ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : « إني أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم » . وقال أبو حمزة الثمالي : « رأيتَه يصلي ، فسقط رداؤه عن منكبه ، فتركه حتى فرغ من صلاته ، فسألته عن ذلك ، فقال : ويحك ! أتدرى بين يدي من كنت ؟ شغلني والله ذلك عن هذا ! أنعم أنه لا يقبل من صلاة العبد الا ما أقبل عليه ؟ . فقلت له : يا بن رسول الله ، هلكننا اذاً . قال : كلا ! ان الله يتم ذلك بالنوافل » . وروى : « أنه ﷺ اذا قام الى الصلاة تغير لونه ، واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً » . وروى : « أنه ﷺ كان اذا قام الى الصلاة كأنه ساق شجرة ، لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه » . وسئل مولانا الصادق ﷺ عن حالة لحقته في الصلاة حتى خره مغشياً عليه ، فقال : « ما زلت اكرر آيات القرآن ، حتى بلغت الى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها » (٢) . قيل : وكان لسان الإمام ﷺ في تلك الحال كشجرة طور حين قالت : « انى أنا الله » . وسئل بعض الأكاير عن صلاته ، فقال : « اذا جاءت الصلاة ، أسبغت الوضوء ، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه ، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ، ثم أقوم الى الصلاة ، فأجعل الكعبية بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت ورأى ، وأظنها آخر

(١) النهج - بالتحريك - : تنابع النفس واللاهات .

(٢) صححنا الأحاديث الواردة في الصلاة على (بحار الأنوار) : ١٨ / ١٦٩ - ٢٠٢ ،

صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، واكبر تكبيراً بتحن ، وأقرأ القرآن بتزئيل ، وأركع ركوعاً بتواضع ، وأسجد سجوداً بتخشع ، وأقعد على الورك اليسرى ، وأفرش ظهر قدمها ، وانصب القدم اليمنى على الابهام وأتبهما الاخلاص ، ثم لا أدري أقبلت منى أم لا ! .

ثم ، على ما عرفت من كيفية صلاة الأنبياء والأولياء ، مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس ، تعلم : ان الناس ينقسمون في صلاتهم : الى غافل يتم صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة . والى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها ، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتهم ، وزيادة احدهما على الآخر ، فله مراتب غير متناهية . والى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة ، بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته ، وربما كان مستوعب الهم بها ، بحيث لا يحس بما يجري بين يديه ، كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين عليه السلام باخراج النصل من رجله الشريفة . وبعضهم حضر الجماعة مدة ، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره . وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين . وكان جماعة تصفر وجوههم ، وترتعد فرائصهم عند الصلاة . وكل ذلك غير مستبعد ، فان اضعافه مشاهدة في هم الدنيا وخوف ملوك الدنيا ، مع ضعفهم وعجزهم ، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم . حتى يدخل الرجل على ملك أو وزير ، ويحدثه بهمهم ويخرج ، ولو سئل عن من كان على حواليه ، وعن ثوب الملك ، لكان غير قادر على الإخبار عنه ، لا شغل همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله :

« وَلَكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا » (١)

فخط كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه. فان موضع

(١) الأنعام ، الآية : ١٣٢ . الأحقاف ، الآية : ١٩ .

نظر الله القلوب ، دون ظاهر الحركات . ولذا قال بعض الصحابة :
 « يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيتهم في الصلاة ، من الطمأنينة والهدوء ،
 ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها ، فالملحوظ حال القلب لا حال الشخص .
 ولذا قيل : « من صفات القلوب تصاعغ الصور في دار الآخرة ، ولا ينجو :
 » إلا من أتى الله بقلب سليم . « (١) » .

تفسير

(دفع اشكال)

إن قيل : المستفاد من الظواهر المذكورة ، أن صلاة الغافل ليست
 مقبولة إلا بقدر ما أقبل عليه منها ، والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب
 عند النية والتكبير ، فكيف التوفيق ؟

قلنا : فرق بين القبول والإجزاء ، فإن المقبول من العبادة ما يقرب
 العبد إلى الله ، ويترتب عليه الثواب في الآخرة ، والمجزى منها ما يسقط
 التكليف عن العبد ، وإن لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه إلى الله . والناس
 مختلفون في تحمل التكليف ، فإن التكليف إنما هو بقدر الوسع والطاقة ،
 فلا يمكن أن يكلف الجميع باحضار القلب في جميع الصلاة ، إذ لا يقدر على
 ذلك إلا الأقلون . وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة ، فلا مرد
 له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم ، ولو في اللحظة الواحدة ، وأولى
 اللحظات به لحظة التكبير والتوجه ، فاقصر على التكليف بذلك . ونحن
 — مع ذلك — نرجوا ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال
 التارك بالسكينة ، فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً ، واحضر القلب

لحظة ، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله ، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ؟ والحاصل : أن الاقبال والحضور هو روح الصلاة ، وأن أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك ، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في اجزاء الصلاة ، وكل من حى لا حراك فيه قريب من الميت ، فصلاة الغافل في جميعها ، إلا عند التكبير ، حى لا حراك فيه .

فصل

(شرائط الصلاة)

اعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة اسباباً لا تتحقق بدونها .

أما حضور القلب : فسيبه الاهتمام .

فإن قلت : كل احد تابع لهما ، فلا يحضر إلا فيما يهمله ، ومهما أهمله أمر حضر فيه قلبه ، شاء أو لم يشأ ، فهو مجبول عليه مسخر فيه ، والقلب اذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً ، بل كان حاضراً فيما يهمله من امور الدنيا . فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهمة اليها ، والهمة لا تنصرف اليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى ، وأن الصلاة وسيلة اليها . واذا اضيف الى هذا العلم بحقارة الدنيا ومهانتها ، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة . ولكون الباعث والسبب لإحضار القلب في أمر إنما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه ، ترى قلبك يحضر اذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، بل بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعاك وضرك . فاذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت ، والنفع والضرر ، فلا تظن أن له سبباً سوى ضعف الايمان واليقين . فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والايمان .

وأما التفهم : فسببه - بعد حضور القلب - ادمان الفكر ، وصرف
الذهن الى ادراك المعنى . وعلاجه ما هو علاج احضار القلب ، مع الاقبال
على الفكر ، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها ، أعنى النزوع
عن الأسباب التي تنجذب الخواطر اليها . وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف
عنها الخواطر . فإن من أحب شيئاً أو أبغض شيئاً أو خاف من شيء ، أكثر
ذكره . فذكر المحبوب والمبغوض والخوف يهجم على القلب بالضرورة .
ولذا ترى أن من أحب غير الله أو كان قلبه مشغولاً بعداوة أحد أو بالخوف
عنه ، لا تصفو له صلاة عن الخواطر .

وأما التعظيم : فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين : إحداهما :
معرفة جلال الله وعظمته ، فإن من لا يمتقد عظمته لا تدعن النفس
لتعظيمه ، وهذه المعرفة من اصول الايمان . الثانية : معرفة حقارة النفس
وخستها وذلتها ، وكونها عبداً مسخراً مربوباً لا يقدر شيئاً من النفع
والضرر . وتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله ، فيعبر
عنه بالتعظيم ، وما لم تمزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا
تنظم حالة التعظيم والخشوع ، فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه ،
يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال ، ونعوت القدرة والكمال ،
ولا يكون خاشعاً معظماً له ، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن اليه .
وأما الهيبة والخوف : حالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله
- تعالى - وسطوته ونفوذ مشيئته فيه ، مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك
الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة ، مع تذكر ما جرى على
الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع . وكلما
زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة .

وأما الرجاء : فسببه معرفة لطف الله - تعالى - وكرمه وعميم إنعامه
ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة . فإذا حصل
اليقين بوعدده والمعرفة بلطفه ، انبعث منها الرجاء .

وأما الحياء : فسببه إستشهار التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز
عن القيام بمعظم حق الله ، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتنا ،
وقلة اخلاصها وخبث باطنها ، وميلها الى الحظ العاجل في جميع أفعالها ،
مع العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته ، والعلم بأنه مطلع على السرائر
وخطرات القلب ، وإن دقت وخفيت . وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً ،
انبعثت منها - بالضرورة - حالة تسمى بالحياء .

فصل

(طريق تحصيل المعاني الباطنة)

اعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة ، اعنى الحضور
والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء ، هو تحصيل أسباب هذه المعاني ،
وقد عرفت أسبابها . وطريق العلاج في تحصيل هذه الأسباب انما يتم بأمرين :
الأول - معرفة الله ، ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل اليه ،
ومعرفة كونه عالماً بذرات العالم وبسرائر العباد . ويلزم أن تكون هذه
المعرفة يقينية ، ليترتب عليها الأثر . اذ ما لم يحصل اليقين بأمر ، لا يحصل
التشمر في طلبه والهرب عنه . وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالايان .
ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة واسبابها . اذ المؤمن
يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته ، ومتفهماً لما يسأله عنه ،
معظماً له ، وخائفاً منه ، وراجياً منه ، ومستحيماً من تقصيره .

الثاني - فراغ القلب ، وخلوه من مشاغل الدنيا . فإن انفكك

المؤمن العارف ، المتيقن بالله وبجلاله وعظمته ، وباطلاعه عليه من المعاني المذكورة في صلواته ، لا سبب له إلا تفرق الفكر ، وتقسم الخاطر ، وغيبة القلب عن المناجاة ، والغفلة عن الصلاة ، ولا تلهي عن الصلاة إلا الخواطر الردية الشاغلة. فالدواء في احضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر ، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه .

وسبب توارد الخواطر ، إما أن يكون أمراً خارجاً ، أو أمراً في ذاته باطناً .

والأول : ما يظهر للبصر ، او يقرع على السمع . فإن ذلك قد يختطف الهمم حتى يتبعه ، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر الى غيره ، ويتسلسل فيكون الإبصار او الاستماع سبباً للافتكار ، ثم يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض . ومن قويت رتبته وعلت همته ، لم يلهه ما يجري على حواسه . ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق فيه فكره . فعلاجه : قطع هذه الأسباب ، بأن يغض بصره ، أو يصل في بيت مظلم ، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلواته ، حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويتحرز من الصلاة على الشوارع ، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة ، والمهارات العالية المرتفعة . ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير ، سعته بقدر السجود ، ليسكون أجمع اللهم . والاقوياء كانوا يحضرون المساجد ، ويغضون البصر ، ولا يجاوزونه موضع السجود ، كما ورد الأمر به ، ويرون كمال الصلاة في ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم .

وأما الثاني : اعنى الأسباب الباطنة ، فهي أشد . فإن من تفرقت همومه ، وتشعبت خواطره في أودية الدنيا ، لم ينحصر فكره في فن

واحد ، بل لا يزال يطير من جانب الى جانب . وغض البصر لا يغييه ، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل . فهذا علاجه : أن يرد نفسه قهراً الى فهم ما يقرؤه ، ويشغلها به عن غيره ، ويمينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم ، بأن يحدد على نفسه ذكر الآخرة ، وخطر المقام بين يدي الله - تعالى - ، وهول المطلع ، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه من أمر الدنيا ، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت اليه خاطره ، فهذا طريق تسكين الأفكار . فإن لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن ، فلا ينجيه إلا المسهل الذي يجمع مادة الداء من اعماق العروق ، وهو أن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن احضار القلب . ولا ريب في أنها تعود الى مهماته ، وهي إنما صارت مهمة لأجل شهواته ، فليعاقب نفسه بالزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق . فكل ما يشغله عن صلواته فهو ضد دينه ، وجند ابليس عدوه ، فإمساكه أضر عليه من اخراجه ، فيتخلص عنه باخراجه . وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ، ولا يغني غيره . فإن ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد الى فهم الذكر ، إنما ينفع في الشهوات الضعيفة ، والهيم الذي لا يشغل إلا حواشي القلب . وأما الشهوة القوية المرهقة ، فلا ينفع معها التسكين ، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ، ثم تغلبك وتتقضى جميع صلواتك في شغل المجاذبة . ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره ، وكانت أصوات المصافير تشوش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود الى فكره ، فتعود المصافير ، فيعود الى السفير بالخشبة ، فقييل له : إن هذا سير الواني ولا يتقطع ، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة . فكذلك شجرة الشهوة ، إذا استعملت وتفرعت اغصانها ، انجذبت اليها الأفكار انجذاب المصافير الى الأشجار ، وانجذاب الذباب الى

الأفذار ، والشغل يطول في دفعها . فإن الذباب كلما ذب آب ، ولأجله سمي ذباباً ، وكذلك الخواطر . وهذه الشهوات كثيرة قلبها يخلو العبد منها ، ويجمعها أصل واحد ، وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة ، وأساس كل نقصان ، ومنبع كل فساد . ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال الى شيء منها لا يتروّد منها ويستعين بها على الآخرة ، فلا يطعمن في أن تصفو له لذّة المناجاة في الصلاة . فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته ، وهمة الرجل مع قرّة عينه ، فإن كانت قرّة عينه في الدنيا انصرف همه لاحالة اليها . وليكن — مع هذا — لا ينبغي أن تترك المجاهدة ، ورد القلب الى الصلاة ، وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء ، ولمراته استبشعته الطباع ، وبقيت العلة مزمنة ، وصار الداء عضالاً . حتى أن الأكبر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيها بأمور الدنيا ، فمجزوا عنه . فإذا لا مطعم فيه لأمثالنا ، وباليات سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوسواس ، لنسكون بمن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وعلى الجملة : فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل ، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة ، ولا يجتمعان . ثم جميع ما ذكر إنما هو في الخواطر المتعلقة بالأمور المهمة من الدنيا ، حتى إذا خرجت هذه الأمور من القلب ، خرجت منه هذه الخواطر أيضاً . وقد تكون الخواطر من مجرد الوسواس الباطنة والخيالات الفاسدة ، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوي يكون لها ، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها . والأمر فيها أصعب ، وإن كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلة عظيمة في زوالها أيضاً ، إذ مادة هذه الوسواس أيضاً ، إما حب المال وحب الجاه ، أو حب غيرهما من الأمور الشهوية الدنيوية . وقد تقدم

تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوسواس .

فصل

(أسرار الصلاة)

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبهات ، فينبغي للمؤمن المرید للآخرة ألا يغفل عنها ، فها هي نذكرها :
 أما الأذان : فاذا سمعت نداء المؤذن ، فأخطر في قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمر بباطنك وظاهرک للجأبة والمسارعة ، فإن المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر ، فأعرض قلبك على هذا النداء ، فإن وجدته مملواً بالفرح والاستبشار ، مشحوناً بالرغبة الى الابتدار ، فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ، ولذلك قال سيد الأنبياء : « أرحنا يا بلال ا » ، أى أرحنا بها وبالنداء اليها ، إذ كانت قرّة عينه فيها . واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله ، واعتبر بذلك أن الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير ، واستحقر الدنيا وما فيها لتلا تسكون كاذبا في تكبيرك ، وانف عن خاطرک كل معبود سواه بسماع التهليل . وأحضر النبي ﷺ ، وتأدب بين يديه ، واشهد له بالرسالة مخلصاً ، وصل عليه وآله ، وحرك نفسك ، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء الى الصلاة ، وما يوجب الفلاح ، وما هو خير الأعمال وأفضلها . وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه ، واختمه بذلك كما افتتحت به . واجعل مبدئك منه ، وعودك اليه ، وقوامك به ، واعتماذك على حوله وقوته . فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فصل

(الوقت)

وإذا دخل الوقت ، استحضر أنه ميقات جعله الله لك ، لتقوم فيه بخدمته ، وتتأمل للمشول في حضرته ، والفوز بطاعته ، وليظهر على قلبك السرور ، وعلى وجهك البهجة عند دخوله ، لسكونه سبباً لقربك ووسيلة الى فوزك . فاستعد له بالطهارة والنظافة ، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة ، كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا ، وتلقاه بالسكينة والوقار ، والخوف والرجاء ، واستحضر عظمة الله وجلاله ، وعدم تناهي قدرته وكاله ، ونقصان قدرك ومرتبك ، وعدم قابليتك للقيام بخدمته ، وقصورك عن أداء وظائف طاعته .

فصل

(آداب الصلاة)

إذا أتيت بالطهارة في مكانك ، وهو ظرفك الأبعد ، ثم في ثيابك ، وهو غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك ، وهي قشرك الأدنى ، فلا تغفل عن لبيك وذاتك ، وهو قلبك ، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط ، وتصميم العزم على الترك في المستقبل ، فطهر بها باطنك ، فإنه موضع نظر ربك . ثم إذا سترت مقامج بدنك عن أبصار الخلق باللباس ، فاخطر ببالك فضائح شرك التي لا يطلع عليها إلا ربك ، وطالب نفسك بسترها ، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر ، وإنما يكفرها الخوف والندم والحياء ، فتستفيد بإظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكائدها ، فتذل به نفسك ، ويستكين تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدي الله - تعالى -

قيام العبد المجرم المسيء الأبق ، الذي ندم فرجع الى مولاه ، ناكساً رأسه من الخوف والحياء . قال الصادق عليه السلام : « أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى ، وأنعمه الايمان ، قال الله - تعالى - :

« وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَ لِكَ خَيْرٌ » (١)

وأما اللباس الظاهر ، فنعمة من الله - تعالى - تستر بها عورات بنى آدم ، وهي كرامة اكرم الله بها ذرية آدم ما لم يكرم بها غيرهم ، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم . وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله - عز وجل - ، بل يقرّبك من ذكره وشكره وطاعته ، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والتفاخر والخيلاء ، فانها من آفات الدين ، ومورثة للقسوة في القلب . فاذا لبست ثوبك ، فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته ، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهره بثوبك ، وليكن باطنك من الصدق في ستر الهيبة ، وظاهره في ستر الطاعة . واعتبر بفضل الله - عز وجل - ، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة ، وفتح أبواب التوبة والانابة والاعاثة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء . ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك ما اعظم منه . واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعنيك حاله وأمره . واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك ، ويتجر برأس مالك غيرك ، وتهلك نفسك ، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل ، واوفر أسباب العقوبة في الآجل . وما دام العبد مشتغلاً بطاعة الله - تعالى - ، ومعرفة عيوب نفسه ، وترك ما يشين في دين الله - عز وجل - ، فهو بمعزل عن الآفات ، خائض في بحر رحمة الله - عز وجل - ، يفوز بجواهر

الغوائد من الحكمة والبيان . وما دام ناسياً لذنوبه ، جاهلاً بعبوبه ،
راجعاً الى حوله وقوته ، لا يفلح إذا أبدأ ، (١) .

فصل

(آداب المصلي)

إذا أتيت مصلاً ، فاستحضر فيه أنك كأن بين يدي ملك الملوك ،
تريد مناجاته ، والتضرع اليه ، والتماس رضاه ، ونظرة اليك بعين الرحمة .
فاختر مكاناً يصلح ، كالمسجد الشريف ، والمشاهد المطهرة ، مع الإمكان .
فانه - تعالى - جعل تلك المواضع محلاً لاجابته ، وموضع نزول فيوضاته
ورحمته ، على مثال حضرة الملوك ، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد
والمطالب . فادخلها بالسكينة والوقار ، ومراقباً للخشوع والانكسار .
قال الصادق عليه السلام : « إذا بلغت باب المسجد ، فاعلم أنك قد قصدت باب
ملك عظيم ، لا يطاء بساطه إلا المطهرون ، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون ،
فهب القدوم إلى بساط هيبة الملك ، فانك على خطر عظيم إن غفلت ، فاعلم
أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك . فان عطف عليك
برحمته وفضله ، قبل منك يسير الطاعة ، وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً .
وإن طالبك باستحقاقه الصدق والاخلاص عدلاً بك ، حجبتك ورد طاعتك
وإن كثرت . وهو فعال لما يريد . واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك
وفقرك بين يديه ، فإنك قد توجهت للعبادة له ، والمؤانسة به . واعرض
أسرارك عليه ، ولتعلم أنه لا تخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلايتهم .
وكن كأفقر عباده بين يديه . واخزل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك ،
فانه لا يقبل إلا الأظهر والأخلص . وأنظر من أي ديوان يخرج اسمك ،

(١) صحنا الحديث على (مصباح القريظة) : الباب ٧ / ١٢٧ - ١٢٨ .

فإن ذقت حلاوة مناجاته ، ولذيد مخاطباته ، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن اقباله عليك واجابته ، فقد صلحت لخدمته ، فادخل فلك الأذن والامان ، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل ، وقصر عنه الأمل ، وقضى عليه الأجل . فان علم الله - عز وجل - من قلبك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ووفقك لما تحب وترضى ، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه ، المقيمين على بابه لطلب مرضاته . قال الله - تعالى - :

« أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ

السَّوَاءَ » (١) « (٢) .

فصل

(الاستقبال)

وأما الاستقبال ، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله . وهذا إشارة الى أنه ينبغي أن يصرف وجه القلب عن سائر الأشياء الى الله ، فان الأعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها ، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة ، لأجل ألا تبقى على القلب ، لأنها إذا توجهت الى جهات متعددة يتبعها القلب في التوجه الى أشياء متعددة ، فأمر الله بصرفها الى شطر بيته ، ليمتدكر القلب صاحبه ، ويتوجه اليه ، ويثبت على ذلك كما تثبت الأعضاء على جهة واحدة . قال رسول الله ﷺ : « إن الله - تعالى - مقبل على المصلي ما لم يلتفت ، وهذا

(١) النمل ، الآية : ٦٢ .

(٢) صحنا الحديث على (مصباح الصريمة) : الباب ١٢ / ١٤٠ - ١٤١ .

الإلتفات يشمل التفات القلب ايضاً، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الإلتفات الى الجهات ، فكذلك يجب حراسة السمع عن الإلتفات الى غير الله وغير الصلاة ، فان التفات إلى غير الله وغير الصلاة ، فذكره باطلاع الله عليه ، وقبح غفلة المناجى عن يناجيه وعمما يقول له حين المناجاة ، لا سيما إذا كان من يناجيه ملك الملوك . والزم قلبك الخشوع ، فان الخلاص عن الإلتفات ظاهراً وباطناً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر ، ولذا قال رسول الله ﷺ - وقد رأى مصلياً يعبث بلحيته - : « أما هذا لو خشع قلبه خشعت جوارحه ، فان الرعية بحكم الراعى ، . وفي الدعاء : « اللهم اصلح الراعى والرعية ، ، وهو القلب والجوارح .

وبالجملة : ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه الى بيت الله للصلاة ، أن يصرف وجه قلبه الى صاحب البيت ، وكما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها ، فكذلك لا ينصرف وجه القلب الى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا قام العبد الى صلاته ، وكان هواه وقلبه الى الله ، انصرف كيوم ولدته أمه ، » وقال ﷺ : « أما يخاف الذى يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه حمار ؟ » ، قيل : هذا نهى عن الإلتفات عن الله ، وملاحظة عظمتة في حال الصلاة ، فان الملتفت يميناً وشمالاً غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه ، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه ، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمر العلوية وعدم فهمه للمعارف . وقال الصادق عليه السلام : « إذا استقبلت القبلة ، فأيس من الدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله - تعالى - ، وعين بسرك عظمة الله - عز وجل - ، واذكر وقوفك بين يديه ، قال الله - تعالى - :

« هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا
إِلَى اللَّهِ مَبْلُوحًا حَقًّا » (١) .
وقف على قدم الخوف والرجاء ، (٢) .

فصل

(القيام)

وأما القيام ، فهو مشول بالشخص والقلب بين يدي الله - سبحانه - .
فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطوقاً متطاطاً متنكساً ، تنبيهاً للقلب
على لزوم التواضع والتذلل والانكسار ، والتبري عن التكبر والتؤس .
وينبغي أن تتذكرها هنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض
للسؤال ، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك ، فليكن
قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله ، وإن كنت تمجز عن معرفة
كنهه جلالة ، فلا تجعل مالك الملك والملوك أنزل من بعض ملوك عصرك ، فقم
بين يديه قيامك بين يدي ملك زمانك ، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك
أنك ملحوظ بعين كائنة من رجل صالح من أهلك ، أو ممن ترغب أن يعرفك
بالصلاح ، فانه تهد عند ذلك أطرافك ، وتخضع جوارحك ، ويسكن
جميع أجزائك ، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلة الخشوع .
وبالجملة : الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال ، يقتضيها الطبع بين
يدي من يعظم من ابناء الدنيا ، فكيف لا يقتضيها بين يدي ملك الملوك
عند من يعرفه ؟ فمن يكون بين يدي غير الله خاشعاً ، ولا يكون بين يدي الله

(١) يونس ، الآية : ٣٠ .

(٢) صحيحنا الحديث على (مصباح الصريفة) : الباب ١٣ / ١٤١ .

كذلك ، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره
وضميره ، وعدم تدبره في قوله - تعالى - :

« الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ، وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ » (١)

فتباً لمن يدعى معرفة الله والعلم بمظمته وجلاله وحبه والخشية منه ،
ومع ذلك يستحي من أحد عباده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضرر ،
ولا يستحي من الله ، ويخشى الناس ، ولا يخشاه !

فصل

(التكميرات)

وأما التوجه بالتكبيرات ، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله
وجلاله ، وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته ، وقصورك عن القيام
بوظائف خدمته . وإذا قلت : (اللهم إني أنت الملك الحق) ، فتذكر
عظيم مالك ، وعموم قدرته ، واستيلاءه على جميع العوالم ، ثم ارجع
على نفسك بالذل والانكسار . وإذا قلت : (لبيك وسعديك ! والخير
في يديك ، والشر ليس إليك) ، مثل نفسك بين يديه ، وتيقن أنه أقرب
منك من نفسك ، يسمع نداءك ، ويجيب دعائك ، وأن خير الدنيا
والآخرة بيده لا بيد غيره ، وأنه خير محض منزه عن الشر . وإذا
قلت : (عبدك وابن عبدك ، منك وبك ولك واليك) ، فقد اعترفت له
بالعبودية ، وبأنه ربك وخالقك ومالكك ، وموجدك ومخترعك ، وانت
اثره وفعله ، ومنه وجودك ، وبه قوامك ، وله مالكك ، واليه معادك ،
فانت منه . فلا يتركك ويرحمك ، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين

يديه ، وكل امورك في الدنيا والآخرة اليه ، ولا تعتمد في مقاصدك إلا عليه ، فاحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق ، وترق منها الى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق ، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوسوس والهوى ، فتلق الفيض من العالم الأعلى .

فصل

(النية)

وأما النية ، فحقيقتها القصد الى الفعل ، امتثالاً لأمر الله ، وطلباً لتقريبه ، ورجاء لثوابه ، وخوفاً من عقابه . فينبغي أن تجتهد في خلوصها ألا يشوبها غرض دنيوي فتنفسد ، وحقيقة الاخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في محلها . وينبغي أن تتذكرها هنا عظيم لطفه ومنته عليك ، حيث اذنك في المناجاة مع سوء أدبك ، وكثرة جنائيتك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته . وانظر من تناجي ، وكيف تناجي ، وبماذا تناجي ، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة ، وترعد فرائصك من الهيبة ، ويصفر وجهك من الخوف والخشية .

فصل

(تكبيرة الاحرام)

واذا كبرت تكبيرة الاحرام ، تذكر أن معناها : أنه - تعالى - أكبر من أن يوصف ، أو أكبر من كل شيء ، أو أكبر من أن يدرك بالحواس ، أو يقاس بالناس . فانتقل منه الى غاية عظيمته وجلاله ، واستناد ما سواه اليه ، بالايجاد والاختراع والاخراج من كتم العدم . وينبغي أن تكون

على يقين بذلك ، حتى لا يكذب لسانك قلبك ، فان كان في قلبك شيء هو اكبر من الله - تعالى - عندك ، فانه يشهد أنك كاذب ، وان كان الكلام صدقا ، كما شهد على المنافقين في قولهم : إن النبي رسول الله . وإن كان هو اكبر عليك من امر الله - تعالى - ، وانت اطوع له منك لله ولأمره ، فقد اتخذته إلهك وكبرته ، فيرثك أن يكون قولك (الله اكبر) كلاماً باللسان المجرد ، وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما اعظم الخطر في ذلك ، لو لا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه - تعالى - وعفوه . قال الصادق عليه السلام : فاذا كبرت ، فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبرياته ، فان الله - تعالى - اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر ، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره ، قال : يا كذاب أتخدعني ؟ اعزتي وجلالي ! لأحرمك حلاوة ذكرى ، ولأحجبك عن قربى والمسرة بمناجاتي ، (١) . فاعتبر أذن قلبك حين صلاتك ، فان كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك مسرور بمناجاته ، وملتذ بمخاطباته ، فاعلم أنه - تعالى - قد صدقك في تكبيرك ، وإن سلبت لذة المناجاة ، وحرمت حلاوة العبادة ، فاعلم أنه - تعالى - كذبتك في تكبيرك ، وطرده عن بابه ، وابعده عن جنابه ، فابك على نفسك بكاء الشكلى ، وبادر الى العلاج قبل ان تدركك الحسرة العظمى .

فصل

(دعاء الاستفتاح)

وأما دعاء الاستفتاح ، فأول كلماته : (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض) ، ومعلوم أن المراد بالوجه هنا هو وجه القلب دون

(١) صحنا الحديث على (مصباح الفريفة) : الباب ١٣ / ١٤١ .

الوجه الظاهر ، لأن الله سبحانه منزّه عن الأمكنة والجهات حتى توجه إليه الوجه الظاهر . فانت تدعى في هذا الكلام أن قلبك متوجه الى فاطر السماوات والأرض ، فإياك أن يكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ، إذ لو كان قلبك متوجهاً الى أمانيه ، وهمه في البيت والسوق ، أو واقفاً في أودية الوسوس ، أو كان غافلاً ، لم يكن مقبلاً على الله متوجهاً إليه ، وكنت كاذباً في أول مخاطبتك مع ربك . فاجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه ، وتقبل عليه في هذا الوقت ، وإن عجزت عنه على الدوام ، لئلا تكون كاذباً في أول كلامك . وإذا قلت : (حنيفاً مسلماً) ، فاخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه ، فإن لم تكن موصوفاً بهذا الوصف ، كنت كاذباً ، فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال ، وأن تندم على ما سبق من الأحوال . وإذا قلت : (وما أنا من المشركين) ، فاخطر ببالك الشرك الخفي ، وكونه داخلاً في الشرك ، لاطلاق الشرك على القليل والكثير . فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله ، من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم ، كنت مشركاً كاذباً في هذا الكلام . فانف هذا الشرك عن نفسك ، واستشعر الخجلة في قلبك ، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع . وإذا قلت : (محيى وماتى لله رب العالمين) ، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه ، موجود لسيدته ، فان عن ذاته ، باق بربه ، بحيث لا يرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة ، بل يعلم حياته وبقائه من الله - تعالى - ، ولا تكون حركاته وسكناته إلا لله تعالى . فاقابل بهذا الكلام ، إذا رأى لنفسه من حيث هي قدرة وأثراً ، أو صدر عنه فعل : من الرضا ، أو الغضب ، أو القيام ، أو القعود ، أو الرغبة في الحياة ، أو الرهبة من الموت لامور الدنيا ، كان كاذباً .

فصل

(الاستعاذة)

فاذا قلت : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ، ينبغي أن تعلم أن الشيطان اعدى عدوك ، مترصد لصرف قلبك عن الله ، حسداً لك على مناجاتك مع الله وسجودك له ، مع أنه لعن وطرده عن مقام القرب بترك السجدة . وينبغي ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول ، لتكون مثل من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله ، فقال : اعوذ منك بهذا الحصن الحصين ، وهو ثابت على مكانه ، فإن ذلك لا يفيد ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن . فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان ، وما لم يأت بما يحبه الله . فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن ، لا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعموذ بحسن الله عن شر الشيطان ، وحسنه (لا إله إلا الله) ، إذ قال : « لا إله إلا الله حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي » . والدخول في حصن (لا إله إلا الله) ليس أيضاً بمجرد التكلم به ، بل الاذعان القلبي واليقين القطعي بأن كل معبود سواه باطل ، وكل شيء منه وله وبه واليه ، ولا مؤثر في الوجود إلا هو . فالمتحصن بالتوحيد من لا معبود له سوى الله ، وأما من اتخذ إلهه هواه ، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله . ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة ، وتدير فعل الخيرات ، تمنع من الحضور وفهم ما تقرأ ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن الاقبال الى الله وعن فهم معاني القرآن والاذكار ، فهو وسواس ، إذ حركة اللسان غير مقصودة ، بل المقصود المعاني . واذا قلت : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فانوبه التبرك لا بتدائك بقراءة كلام الله ، والمراد بالاسم هنا

المسمى ، فعناه : أن كل الأشياء والأمور بالله ، فيترتب عليه انحصار
(الحمد لله) ، إذ المراد بالحمد الشكر ، والشكر إنما يكون على النعم ، فإذا
كانت النعم بأسرها من الله فيكون منحصرأ به ، فمن يرى نعمة من غير الله ،
أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله ، ففي تسميته
وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله سبحانه . واذا قلت : (الرحمن
الرحيم) ، فاحضر في قلبك أنواع لطفه ، وضروب احسانه ، لتتضح
لك رحمته ، فينبعث بها رجاؤك . واذا قلت : (ما لك يوم الدين) ، فاستشعر
من قلبك التعظيم والخوف ، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا هو ، وأما
الخوف فلمهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالسه . ثم جدد الاخلاص
بقولك : (إياك نعبد) . وجدد العجز والافتقار والتبري من الحول والقوة
بقولك : (وإياك نستعين) ، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا باعانه ،
وأن له المنه ، إذ وفقك لطاعته ، واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلا لمناجاته ،
ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم ، واستحضر
أن الاعانة لا تكون إلا منه ، ولا يقدر غيره أن يعين أحداً ، فاخرج
عن قلبك الوسائل والاسباب إلا من حيث إنها مسخرة منه تعالى . واذا
قلت : (إهدنا الصراط المستقيم) ، فاعلم أنه طلب لأهم حاجاتك ، وهي
الهداية الى النهج الحق الذي يسوقك الى جوار الله ، ويفضي بك الى مرضاته ،
ويوصلك الى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الأنبياء والصديقين
والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين
من اليهود والنصارى والصابئين . واذا تلوت (الفاتحة) كذلك ، فيشبه أن
تكون ممن قال الله فيهم بما اخبر عنه النبي ﷺ : « قسمت الصلاة بيني وبين
عبيدي نصفين ، نصفها لي ، ونصفها لعبدي . يقول العبد : الحمد لله رب

العالمين ، فيقول الله - عز وجل - : حمدني عبدي وأثنى علي . وهو معنى قوله :
سمع الله لمن حمده الى آخر الحديث . فان لم يكن لك من صلواتك حظ
سوى التذاذك بذكر الله في جلاله وعظمته ، فناهيك به غنيمة ، فكيف ما
ترجوه من ثوابه وفضله . وكذلك ينبغي أن تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه
من السورة ، فلا تغفل عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه
وأخبار أنبيائه ، وذكر مننه واحسانه ، فلسلك واحد حق : فحق الأمر
والتنهى العزم ، وحق الوعد الرجاء ، وحق الوعيد الخوف . وحق الموعدة الاتعاض ،
وحق أخبار الأنبياء الاعتبار ، وحق ذكر المنة الشكر ، وتكون هذه المعاني
بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب ،
و درجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف أسرار
الكلمات . فهذا حق القراءة ، وهو أيضاً حق الأذكار والتسيجات . واعلم
أن الناس في القراءة ثلاثة : بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل . وبعضهم
يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان ، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره ،
وهو درجة اصحاب اليمين . وبعضهم يسبق قلبه الى المعاني أولاً ، ثم يخدم
اللسان قلبه فيترجمه ، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون
معلم القلب ، والمقربون السنتهم ترجمان تتبع القلب . ثم ينبغي أن تراعى
الهيئة في القراءة ، فترتل ، ولا تسرد ولا تعجل ، فإن ذلك أيسر للتأمل ،
وتفرق بين نعماته في آية الرحمة والعذاب ، والوعد والوعيد ، والتعظيم
والتعظيم ، كان بعضهم اذا مر بمثل قوله :

« مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ » (١) .

يغضّ صوته ، كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء . وروى : « أنه

(١) للأمنون ، الآية : ٩٢ .

يقال يوم القيامة لصاحب القرآن: اقرأ وارق، فكلما قرأ آية صعد درجة.

فصل

(الركوع)

وأما الركوع، فينبغي أن تجدد عنده ذكر كبرياء الله، وترفع بذلك معظماً له منبهاً على غاية عظمته وارتفاعه، وكونه أرفع من أن تصل إليه أيدي العقول والأوهام، ومستجيراً بعفوه من عقابه، وتستأنف بهوتك للركوع ذلاً وتواضعاً، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك وعزه، وضعفك وقوته، وعجزك وقدرته، واتضاعك وعلوه، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبحه وتشهد له بالعظمة، وأنه أعظم من كل عظيم، وتذكر ذلك على قلبك لتترسخ فيه عظمته وجلاله، ثم ترفع عن ركوعك راجياً أنه راحم ذلك، وتؤكد الرجاء في نفسك بقولك: (سمع الله لمن حمده): أي اجاب الله لمن شكره، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد، فتقول: (الحمد لله رب العالمين)، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله، فتقول: (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت). روى (الصدوق) - رضوان الله عليه - عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع، فقال عليه السلام: تأويله: آمنت بك ولو ضربت عنقي». وقال الصادق عليه السلام: «لا يركع عبد الله ركوعاً على الحقيقة، إلا زينته الله بنور بهائه، وأظله في ظل كبريائه، وكساه كسوة أصفياه». والركوع أول، والسجود ثان. فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني. وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب. فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلل وجل

تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين ، (١) . وحكى : « أن ربيع بن خثيم ، كان يسهر بالليل الى الفجر في ركعة واحدة ، فاذا هو اصبح ، تزفر وقال : آه ! سبق المخلصون وقطع بنا . واستوف ركوعك باستواء ظهرك ، وانحط عن همتك في القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه ، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخدماته ومكائده ، فإن الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له ، ويهديهم الى اصول التواضع والخشوع بقدر اطلاع عظمتهم على سرائرهم .

فصل

(السجود)

وإذا هويت الى السجود ، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والإنكسار ، إذ السجود أعلى درجات الاستكانة ، فمكن أعز أعضائك ، وهو الوجه ، لأذل الأشياء ، وهو التراب ، ولا تجعل بينهما حاجزاً ، بل اسجد على الأرض ، لأنه أجلب للخضوع ، وأدل على الذل . فإذا وضعت نفسك موضع الذل ، والقيتها على التراب ، فاعلم أنك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع الى أصله ، فانك من التراب خلقت ، واليه رددت . فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله ، وقل : (سبحان ربى الأعلى وبحمده) ، وأكده بالتكرار ، إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار ، فإن رق قلبك ، وطهر لبك ، فليصدق رجائك في رحمة ربك ، فإن رحمته تتسارع الى موضع الذل والضعف ، لا الى محل التكبر والبطر . فارفع رأسك مكبراً

(١) صححنا الحديث على الباب ١٥ من (مصباح الصريمة) . وعلى (بحار الأنوار) :

٣٥٦ / ١٨ ، باب الركوع وآدابه من كتاب الصلاة . وعلى (المستدرک) : ١ / ٣٢٥ ،

باب نوادر ما يتعلق بالركوع من كتاب الصلاة أيضاً .

ومستغفراً من ذنوبك ، وسائلاً حاجتك ، ثم أكد التواضع بالتكرار ،
وعاد الى السجود ثانياً كذلك . وسئل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى
السجدة الأولى ، قال : « تأويلها : اللهم إنك منها خلقتنا ، : يعنى من
الأرض ، وتأويل رفع رأسك : « ومنها أخرجتنا ، والسجدة الثانية :
« واليها تعيدنا ، ورفع رأسك : « ومنها تخرجنا تارة اخرى ، . وقال
مولانا الصادق عليه السلام : « ما خسر والله - تعالى - قط من أتى بحقيقة السجود ،
ولو كان في العمر مرة واحدة ، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال
شبيهاً بمخادع نفسه ، غافل لاه عما أعد الله تعالى للساجدين من انس
العاجل وراحة الآجل ، ولا بعد عن الله تعالى أبداً من أحسن تقربه في
السجود ، ولا قرب اليه أبداً من أساء أدبه ، وضيع حرمة بتعليق قلبه
بسواه في حال سجوده . فاسجد سجود متواضع لله ذليل ، علم أنه خلق
من تراب يظأه الخلق ، وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد ، وكون
ولم يكن ، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب اليه بالقلب والسر
والروح ، فمن قرب منه بعد من غيره ، ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوى
حال السجود إلا بالتوازي عن جميع الأشياء ، والاحتجاب عن كل ما تراه
العيون ؟ كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن . فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته
بشيء دون الله تعالى ، فهو قريب من ذلك الشيء ، بعيد عن حقيقة ما
أراد الله منه في صلاته . قال الله تعالى : ما جعل الله لرجل من قلبين في
جوفه ، . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قال الله عز وجل : ما اطلع على قلب عبد
فاعلم فيه حب الاخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي ، إلا توليت
تقويمه وسياسته ، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ،

واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين ، (١) .

فصل

(التشهد)

إذا جلست للتشهد — بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة، المشتملة على الأخطار الجسيمة — فاستشعر الخوف التام والرغبة والوجل والحياء ، أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ، ولا محصلاً بوظائفه وشرائطه ، ولا مكتوباً في ديوان القبول . فاجعل يدك صفراً من فوائدها ، وارجع الى مبدأ الأمر ، وأصل الدين ، اعني كلمة التوحيد ، وحصن الله الذي من دخله كان آمناً ، فاستمسك به إن لم تكن لك وسيلة غيره ، فاشهد لربك بالوحدانية ، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم بيالك ، واشهد له بالعبودية والرسالة ، وصل عليه وعلى آله ، مجدداً عهد الله باعادة كلمتي الشهادة ، متعرضاً بهما لتأسيس مراتب العبادة ، فإنهما أول الوسائل وأساس الفواضل ، ومتوسلاً إلى رسول الله بالصلاة عليه ، مترقباً بذلك عشراً من صلواته ﷺ عليك — كما ورد في الخبر — ، ولو وصل اليك منها واحدة افلحت أبداً . قال الصادق عليه السلام : «التشهد ثناء على الله . فكن عبداً له في السرّ ، خاضعاً له في الفعل ، كما أنك عبد له في القول والدعوى . وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرّك ، فإنه خلقك عبداً ، وأمرك أن تعبد به بقلبك ولسانك وجوارحك ، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك ، وتعلم أن نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيتة ، وهم عاجزون عن اتيان أقل شيء في مملكته إلا باذنه

(١) صححنا الحديث على : الباب ١٦ من (مصباح المريضة) . وعلى (بحار الأنوار) :

وارادته . قال الله عز وجل :

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ

الْخَيْرَةُ مُسَبِّحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » (١) .

فكن لله عبداً شاكراً بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء
سرك ، فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق
إرادته ومشيته ، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته ، وبالعبادة في أداء أوامره ،
وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد ﷺ ، فواصل صلاته بصلاته ، وطاعته
بطاعته ، وشهادته بشهادته ، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمة فتحرم
عن فائدة صلاته ، وأمره بالاستغفار لك ، والشفاعة فيك ، إن أتيت
بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب ، وتعلم جليل مرتبته عند
الله عز وجل ، (٢) .

فصل

(التسليم)

وإذا فرغت عن التشهد ، فاحضر بحضرة سيد المرسلين ، والملائكة
المقربين ، وبقية أنبياء الله وأئمة - عليهم السلام - والحفظة لك من الملائكة
المحصنين لأعمالك ، وأحضرهم جميعاً في بالك . فسلم أولاً على نبيك الذي
هو أفضل الكل ، وواسطة هدايتك وإيمانك ، بقولك : (السلام عليك
أيها النبي ورحمة الله وبركاته) . ثم توجه إلى الجميع ، وسلم عليهم بقولك :

(١) القصص ، الآية : ٦٨ .

(٢) صحيح الحديث على (مصباح الترمذية) : الباب ١٧ . وعلى (بحار الأنوار) :

٤٠٣ / ١٨ ، باب التشهد وأحكامه .

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) . ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك ، فتكون من العابثين واللاعبيين ، وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد ، لو لا فضل الله في اجزائه بذلك عن أصل الواجب ، وإن كان بعيداً عن درجات القبول ، منحطاً عن اوج القرب والوصول . وإن كنت إماماً لقوم ، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين ، وليقصدوا هم الرد عليك ايضاً ، وإذا فعلتم ذلك فقد أدبتم وظيفة السلام ، واستحققتم من الله مزيد الاكرام . قال الصادق عليه السلام : معنى التسليم في دبر كل صلاة : الأمان ، أى من أتى أمر الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله خاضعاً له خاشعاً منه ، فله الأمان من بلاء الدنيا ، والبراءة من عذاب الآخرة . والسلام اسم من اسماء الله تعالى أودعه خلقه ، ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإنصافات ، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم ، وصحة معاشرتهم . فإن أردت أن تضع السلام موضعه ، وتؤدى معناه ، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ، ألا تدنسها بظلمة المعاصي ، ولتسلم منك حفظتك ألا تبرمهم وتعلمهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ، ثم مع صديقك ، ثم مع عدوك . فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى ، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم ، وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق ، (١) .

فصل

(افاضة الأنوار على المصلى على قدر صفائه)

اعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات ، واخلاصها لوجه الله ، وادائها بالشروط الباطنة المذكورة ، من الحضور ، والخشوع ، والتعظيم ، والهيبة ،

(١) صححنا الحديث على (مصباح التريفة) : الباب ١٨ / ١٤٤ .

والحياء : سبب لحصول أنوار في القلب ، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة ، وإنما يفيض منها على كل مصل على قدر صفائه من كدورات الدنيا ، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة ، والقوة والضعف ، والجلال والخفاء ، ويختلف أيضاً بما ينكشف من العلوم ، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله ، وبعضهم من عجائب أفعاله ، وبعضهم من دقائق علوم المعاملة ، وبعضهم غير ذلك ، وأولى بالظهور والافاضة لكل شخص ما يهيمه ويكون في طلبه. والى ما ذكرنا من ترتب الافاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة ، أشار النبي ﷺ بقوله : « إن العبد إذا قام في الصلاة ، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبَيْه إلى الهواء ، يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه ، وإن المصلي لينشر عليه البر من أعنان السماء إلى مفروق رأسه ، ويناديه مناد : لو علم المصلي من يناجي ما التفت . وأن أبواب السماء تفتح للمصلين ، وإن الله يباهي ملائكته بصديق المصلي . فإن رفع الحجاب وفتح أبواب السماء كناية عن افاضة العلوم الباطنة عليه . وورد في التوراة : « يا ابن آدم ، لا تعجز أن تقوم بين يدي مصلياً باكبياً ، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نوري . » وورد : « أن العبد إذا صلى ركعتين ، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة ، كل صف منهم عشرة آلاف ، وباهى الله به مائة ألف . وذلك لأن العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود ، والركوع والسجود ، والذكر باللسان ، وغير ذلك . وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين السجود ، بل هذه الأفعال موزعة عليهم ، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة ، وبعضهم ساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فإن ما أعطى الملائكة

من القرب والرتبة لازم لهم ، مستمر على حالة واحدة ، لا تزيد ولا تنقص ،
وليس لهم مرتبة الترقى من درجة الى اخرى ، وباب المزيد مسدود عليهم ،
ولذلك قالوا : « وما منا إلا له مقام معلوم » ، بخلاف الانسان ، فإن له الترقى
في الدرجات ، والتقلب في أطوار السمكيات ، ومفتاح مزيد الدرجات
هي الصلاة ، قال الله سبحانه : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم
خاشعون » ، فمدحهم بعد الايمان بصلاة مخصوصة ، وهي المقرونة بالخشوع ،
ثم حتم اوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً ، فقال في آخرها :

« وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » ، ثم قال في ثمرة
تلك الصفات : « أُوَلِّعَكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفَرْدَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (١) .

فوصفهم بالفلاح أولاً ، وبوراثة الفردوس آخراً . فالمصلون هم
ورثة الفردوس ، وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه
بالقلب . وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح ، مع غفلة القلب ،
لا تنتهي درجته الى هذا الحد .

فصل

(ما ينبغي في إمام الجماعة)

ينبغي لإمام الجماعة : أن يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب ،
واقباله الى الله ، والخشوع والتعظيم ، وغير ذلك من الشرائط الباطنة ،
لأنه القدوة والجاذب لنفوس الجماعة الى الله ، فما أقبح به أن يكون قلبه

(١) للمؤمنون ، الآية : ٩ - ١١ .

غافلاً عن الله ، أو واقعاً في أودية الوسوس الباطلة في الصلاة ، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعاً حاضر القلب معظماً لله سبحانه ، وما أشنع به أن يكون التفات قلبه الى من وراه من الناس الذين لا يقدرّون على شيء من النفع والضرر أكثر من التفات قلبه الى مالك الملك المحيطة بالكل ، الذي حدث بمجرد ارادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملكوت ، أولاً يستحي من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لامة سيد الرسل ﷺ ، ويحل محل رسول الله ﷺ وأوصيائه الراشدين - عليهم السلام - ، وينوب عنهم ، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله؟! أو لا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقتلتهم؟ فينبغي لكل إمام قوم أن يمتحن نفسه ، فان لم تكن له هذه الصفات الخبيثة ، فليؤم ، وإلا فليترك ولا يهلك نفسه ، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بإمامة نفسه كفرحه بإمامة غيره من أمثاله وأقرانه ، بل إن كان قصده وفرحه بمجرد إقامة السنة ، واحياء رسوم الملة ، فينبغي أن يكون فرحه بإمامة غيره ممن هو مرضى ، والاهتمام به ، أكثر من إمامة نفسه ، لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة ، وينبغي أيضاً - ألا يكون باعثه ومحركه الى المسجد لإمامة القوم إلا القرية ورجاء الثواب ، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من حب الشهرة والمنزلة في القلوب ، أو الوصول الى ما ينتظم به معاشه ، فله الويل والشبور ، ويكون بمن ضل وأضل وهلك وأهلك!

فصل

(ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيد)

ينبغي للحاضر الى صلاة الجمعة والعيد : أن يستحضر أن هذه الأيام

أيام شريفة عظيمة ، وأعياد مباركة كريمة ، قد خص الله بها هذه الأمة ، وجعلها أوقانا شريفة لعباده ، ليقر بهم فيها من جواره ، ويمدحهم من عذابه وناره ، وحثهم فيها على الاقبال بصالح الأعمال ، وتلافي ما فرط منهم في بقية الأيام والشهور من الاهمال . فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات ، من التهيؤ والاستعداد للقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والمثول في حضرته ، والفوز بمخاطبته . فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة ، من التنظيف والتطيب ، والتعمم ، وحلق الرأس ، وقص الشارب والأظفار ، وغير ذلك من السنن ، في تخلص النية ، واحضار القلب ، واكثار الخشوع ، والابتغال الى الله تعالى في صلاته . وينبغي أن يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز . وتفرقه الرحمة ، وافاضة المواهب فيهما على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما ، فليكبر في صلاتهما وقبلهما وبعدها في قبول اعماله والعفو عن تقصيراته ، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد ، وخذلان الطرد ، فتخسر صفقته ، وتظهر بعد ذلك حسرته ، فيفوز الفائزون ، ويسبق السابقون ، وينجو المخلصون ، وهو يكون من الخائبين الخاسرين .

فصل

(ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات)

إذا ظهرت الآيات ، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها ، ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها ، وتكور الشمس والقمر ، وظلمة القيامة ، ووجل الخلائق ، وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال ، فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتغال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبية والخوف ، في النجاة من تلك الشدائد ورد

النور بعد الظلمة والمساحة على الهفوة ، وينبغي أن يكون منكسر النفس ،
 مطرق الرأس ، مستحيياً من التقصير ، مستشعراً بقلبه عظمة الله وجلاله .
 وبالجملة : حصول الخوف والخشية ، والمبادرة الى التضرع والابتهاال ، واداء
 الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات ، من شعار أهل الايمان . قال
 سيد الساجدين عليه السلام : « لا يفرح للآيتين ولا يرهب ، إلا من كان من
 شيعتنا ، فان كان ذلك منهما ، فافزعوا الى الله وراجعوه . » وقال الرضا
عليه السلام : « إنما جعلت للكسوف صلاة ، لأنه من آيات الله تعالى ، لا يدري
 الرحمة ظهرت أم لعذاب ، فاحب النبي صلى الله عليه وآله أن يفرع أمته الى خالقه
 وراجعه عند ذلك ، ليصرف عنهم شرها ، ويقيهم مكروها ، كما صرف
 عن قوم يونس عليه السلام حين تضرعوا الى الله تعالى . »

المقصر الثالث

الذكر - فضيلة الاذكار - الدعاء

* * *

اعلم أنه ينبغي لكل مؤمن أن يكثّر من الذكر والدعاء ، لا سيما عقيب
 الصلاة المقرّوضة . وقد ورد في فضائلها من الآيات والأخبار ما لا يمكن
 احصاؤه ، ولا شتمهاها لا حاجة الى ذكرها هنا .

فصل

(الذكر)

أما الذكر ، فالنافع منه هو الذكر على الدوام ، أو في أكثر
 الأوقات ، مع حضور القلب ، و فراغ البال ، والتوجه السكلى الى الخالق
 المتعال ، حتى يتمكن المذكور في القلب ، وتتجلى عظمته الباهرة عليه ،

وينشرح الصدر بشروق نوره عليه ، وهو غاية ثمرة العبادات . والذكر أول وآخر ، فاوله يوجب الأنس والحب ، وآخره يوجب الأنس والحب ، والمطلوب منه ذلك الحب والأنس . فان العبد في بداءة الأمر يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس والفضول الى ذكر الله ، فان وفق لل مداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور . ومن أحب شيئاً أكثر ذكره ، ومن أكثر ذكر شيء ، وإن كان تكلفاً ، أحبه . ومن هنا قال بعضهم : «كأدت القرآن عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة . ولا تصدر النعم إلا من الأنس والحب ، ولا يصدر الأنس والحب إلا من المداومة على المسكأة والتكلف مدة طويلة ، حتى يصير التكلف طبعاً . وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الانسان تناول طعام يستبشعه أولاً ، ويكأنه اكله ، ويواظب عليه ، فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه ؟ فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكلفت : «هي النفس ما عودتها تتعود» .

ثم اذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله ، وما سوى الله يفارقه عند الموت ، ولا يبقى إلا ذكر الله ، فإن كان قد انس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه ، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن ذكر الله ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه ، فعظمت غيبته ، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه عما به انسه ، وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته الى أن ينزل في جوار الله ، ويترقى من الذكر الى اللقاء ، قال الصادق عليه السلام : « من كان ذا كراً لله على الحقيقة فهو مطيع ، ومن كان غافلاً عنه فهو عاص ، والطاعة علامة الهداية ، والمعصية علامة الضلالة ، واصلمها من الذكر والغفلة ، فاجعل قلبك قبلة لسانك ، ولا تحركه إلا بإشارة القلب ، وموافقة العقل ، ورضا الايمان ، فإن الله

تعالى عالم بسرك وجهرك ، وكن كالنازع روحه ، أو كالواقف في العرض الأكبر ، غير شاغل نفسك عما عنك بما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعده ووعيده ، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك ، واغسل قلبك بماء الحزن ، واجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى إياك ، فإنه ذكرك وهو غنى عنك ، فذكره لك أجل واشهى واثنى واتم من ذكرك له واسبق ، ومعرفة لك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار ، ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق ، وتصغر عند ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منته ، وتخلص لوجهه ، ورؤيتك ذكرك له ، يورثك الرياء والعجب والسفاهة والغلظة في خلقه ، واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه ، ولا تزداد بذلك من الله تعالى إلا بعداً ، ولا تستجلب به على مضي الأيام إلا وحشة . والذكر ذكران : ذكر خالص بموافقة القلب ، وذكر صارف لك ينفي ذكر غيره ، كما قال رسول الله ﷺ : (أنا لا احصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) . فرسول الله ﷺ لم يجعل لذكره الله عز وجل مقداراً عند عليه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره ، ومن دونه أولى ، فمن أراد أن يذكر الله تعالى ، فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره ، لا يقدر العبد على ذكره ، (١) .

تتميم

(فضيلة الأذكار)

الأذكار كثيرة ، كالتهليل ، والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ،

(١) الحديث المذكور في (مصباح الصريمة) : الباب ٥ / ١٣٦ . وفي (المستدرک) :

١ / ٤٠١ ، كتاب الصلاة ، أبواب الذكر . وفي اللوامين اختلاف يسير ، فصحة على

(مصباح الصريمة) ، الموضع المذكور .

والحوقلة ، والتسبيحات الأربع ، وأسماء الله الحسنى ، وغير ذلك . وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة ، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وانسراح الصدر ، وكلها كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والسكال ، فهي أفضل . ولذا صرحوا بأن أفضل الأذكار التهليل ، لدلالته على توحيده في الألوهية ، واستناد السكك الى الله يعلم : أنه قد ينبعث في القلب تعالى في مرتبته أدل ، والعارف السالك الى الله يعلم : أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه باسم .

فصل

(الدعاء)

وأما الدعاء ، فهو منح العباد ، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والأخبار ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . والأدعية الماثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات ، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية ، فمن أراد شيئاً منها فليأخذ من مواضعها .
ومما ينبغي لسكك داع ، أن يراعى شرائط وآدابا في الدعاء ، حتى يستجاب له ، ويصل الى فائده ، وتحصل لنفسه نورانية ، وهي أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، والأحوال الشريفة ، والأماكن المتبركة المشرفة ، وأن يدعو متطهراً ، مستقبلاً القبلة ، رافعاً يديه بحيث يرى باطن ابطنه ، وأن يخفض صوته بين الجهر والإخفات ، ولا يتكلف السجع في الدعاء ، ويكون في غاية التضرع والخشوع والرغبة ، وأن يجزم ويتيقن اجابة دعائه ، ويصدق رجاءه فيه ، وأن يلح في الدعاء ، ويكرره ثلاثاً ، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده ، ولا يبتدىء بالسؤال ، وأن يتوب ، ويرد مظالم العباد ، ويقبل على الله بكنهه الهمة ، وهو السبب القريب للاجابة ، وأن

يكون مطعمه وملبسه من الحلال ، وهو أيضاً من عمدة الشرائط ، وأن
يسمى حاجته ، ويعم في الدعاء ، ويبكى عنده ، وهو أيضاً سيد الآداب ،
وأن يتقدم في الدعاء قبل الحاجة إليه ، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله
تعالى ، قال الصادق عليه السلام : « احفظ ادب الدعاء ، وانظر من تدعو ، وكيف
تدعو ، ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبريائه ، وعين بقلبك علمه بما
في ضميرك ، واطلاعه على شرك وما تكن فيه من الحق والباطل ، واعرف
طرق نجاتك وهلاكك ، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن
أن فيه نجاتك ، قال الله تعالى :

(وَيَدْعُوْا الْاِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاؤَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ

الْاِنْسَانُ مَجْمُوْلًا) (١) .

وتفكر ماذا تسأل ، ولماذا تسأل . والدعاء استجابة السؤل منك للحق ،
وتذويب المهجة في مشاهدة الرب ، وترك الاختيار جميعاً ، وتسليم الأمور
كلها — ظاهرها وباطنها — الى الله تعالى ، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا
تنتظر الاجابة ، فانه يعلم السر واخفى ، فاعلمك تدعوه بشيء قد علم من شرك
خلاف ذلك . واعلم أنه لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء ، لكننا اذا اخلصنا
الدعاء ، تفضل علينا بالاجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن اتى بشرائط
الدعاء ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم ، فقال : (كل اسم من
اسماء الله اعظم) . ففرغ قلبك عن كل ما سواه ، وادعه باى اسم شئت ،
فليس في الحقيقة لله اسم دون ، بل هو الله الواحد القهار . وقال النبي صلى الله عليه وسلم :
(إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه) . فاذا اتيت بما ذكرت لك من

شرائط الدعاء ، واخلصت شرك لوجهه ، فابشر باحدى ثلاث : إما أن يعجل لك بما سألت ، وإما أن يدخلك بما هو أفضل منه ، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك هلكت ، (١) . وسئل من الصادق عليه السلام : ما لنا ندعوا ولا يستجيب لنا؟ فقال : « لأنكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسالون من لا تفهمونه ، فالاضطرار عين الدين ، وكثرة الدعاء مع العبي عن الله من علامة الخذلان ، لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت قدرة الله ، حكم على الله بالسؤال ، وظن أن سؤاله دعاء ، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى . »

المقصد الرابع

(تلاوة القرآن)

اعلم أنه لا حد لثواب تلاوة القرآن ، والأخبار الواردة في عظم أجره ووفور ثوابه لا تحصى كثرة ، وكيف لا يعظم أجره وهو كلام الله ، حامله روح الأمين الى سيد المرسلين ، فتأمل أن الكلام الصادر من الله بلا واسطة ، إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته ، ومن حيث المعنى متضمناً لاصول حقائق المعارف والمواعظ والاحكام ، ونخبراً عن دقائق صنع الله ، وعن مغيبات الأحوال والقصص الواقعة في سوانف القرون والأعوام ، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس ؟ . وبالجملة : العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن ، والأخبار الواردة فيه مشهورة ، فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة .

(١) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة) : الباب ١٩ / ١٤٥ - ١٤٦ . وفيه

اختلاف كثير عما هنا ، فحسناه على (المصباح) ، الموضع المذكور .

أما الآداب الظاهرة ، فالوضوء ، والوقوف على هيئة الأدب ، والطمأنينة ، إما قائماً أو جالساً ، مستقبل القبلة ، مطرقاً رأسه ، غير متربع ولا متكبر ، والترتيل والبكاء ، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء . وإلا فالسر أفضل ، وتحسين القراءة وتزيينها ، ومراعاة حق الآيات ، فإذا مر بآية السجود سجد ، وإذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله ، وإذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى أن يرزقه ، وإذا مر بآية تسبيح أو تكبير سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء أو استغفار دعا واستغفر ، وافتتاح القراءة بقوله : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) ، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة : (صدق الله العلي العظيم وبلغ رسوله الكريم ، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه ، والحمد لله رب العالمين) .

وأما الآداب والأعمال الباطنة :

فمنها — فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه ، في نزوله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه : فلينظر كيف لطف بخلقه في ائصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاته الى افهام خلقه ، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر ، إذ يعجز البشر عن الوصول الى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات نفسه ، ولو لا استتار كنهه جمال كلامه بكسوة الحروف ، لما ثبت لسماع كلامه عرش ولا ثرى ، ولا شيء ما بينهما ، من عظمة سلطانه وسبحات نوره ، ولو لا تثبيت الله موسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه ، كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه حيث صار دكاً ، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق ، ولهذا عبر عنه بعض العارفين ، فقال : « إن كل حرف من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف ، وإن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن ينقلوه ما اطاقوه ،

حتى يأتي اسرافيل ، وهو ملك اللوح ، فيرفعه . فنقله باذن الله ورحمته ، لا بقوته وطاقته ، . وايصال معاني الكلام مع علو درجته الى فهم الانسان مع قصور رتبته ، تشابه من درجة تصويت الانسان البهائم والطيور . فإن الانسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من اقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها ، وكان تمييزها قاصراً عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه ، فينزل الى درجة تمييز البهائم ، ويوصل مقاصده اليها بأصوات لائقة بها ، من النفير والصفير والأصوات القريبة من أصواتها ، يطيقون حملها . وكذلك الناس ، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بسكنته وكمال صفاته ، فتنزل من عرش العظمة والجلال الى درجة أفهامهم ، فتجلى في مظاهر الأصوات والحروف ، وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه . فكما أن بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح ، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها . والكلام على المنزلة ، رفيع الدرجة ، قاهر السلطان ، نافذ الحكم في الحق والباطل ، وهو القاضى العادل ، يأمر وينهى ، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة ، كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة ، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولو سكتهم ينالون منها ما تقدر به ابصارهم ويستدلون به على حوائجهم . فالكلام كالمك المحجوب ، الغائب وجهه ، المشاهد أمره ، فهو مفتاح الخزائن النفيسة ، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت ، ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسقم .

ومنها — تعظيم المتكلم : فينبغي للقارىء عند الابتداء بالتلاوة ، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أنه ليس من كلام البشر ، بل هو كلام

خالق الشمس والقمر ، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر ، إذ كما لا ينبغي أن
تمس جلده وورقه وحر وفه البشرة المستقدرة ببحث أو حدث ، فكذلك لا
ينبغي أن تقرؤه الألسنة المستخبثة بقبايح الكلمات ، وألا تحوم حول معناه
القلوب المسكندرة برذائل الأخلاق والصفات ، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر
خطه كل يد ، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس ، إلا إذا كان
متطهرأ ، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ، ولا لنيل معانيه كل
قلب ، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب ، إلا إذا
كانت منقطعة عن كل رجس ، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير . وبالجملة : ينبغي
ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له ، ليتحقق تعظيم الكلام أيضاً ، إذ
تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم ، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه ،
فليرجع إلى التفكير في صفاته وأفعاله ، ويستحضر أن المتكلم هو الذي
أوجد وأظهر بمجرد إرادته كل ما يشاهده ويسمعه ، من العرش والكرسي
والسماوات والأرضين ، وما فيها وما تحتها وما فوقها ، وأنه الخالق والرازق
للجميع ، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير ، ومردد بين فضله ورحمته ،
وبين نعمته وسطوته ، وجميع ذلك لا نسبة له إلى عوالم المجرادات . فالتفكير
في أمثال ذلك يوجب استشعار القاب لعظمة المتكلم والكلام . ومثل هذا
التعظيم كان بعضهم إذا نشر المصحف للتلاوة غشى عليه ، ويقول : (هو
كلام ربي ، هو كلام ربي) .

ومنها — الخضوع والرقعة : قال الصادق عليه السلام : « من قرأ القرآن ، ولم
يخضع ولم يرق قلبه ، ولا ينشئ حزناً ووجلاً في سره ، فقد استهان
بمعظم شأن الله تعالى ، وخسر خسراناً مبيناً ، فقارىء القرآن محتاج إلى ثلاثة
أشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خال . فإذا خشع لله قلبه فر منه

الشیطان الرجیم ، قال الله تعالى :

« فَأَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (١) .

فاذا تفرغ نفسه من الأسباب ، تجرد قلبه للقراءة ، فلا يعرضه
عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده . فاذا اتخذ مجلساً خالياً ، واعتزل
عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين : خضوع القلب وفراغ البدن ، استأنس
روحه وسره بالله عز وجل ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده
الصالحين ، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم ، بفنون كراماته ، وبدائع
اشاراته ، فإن شرب كأساً من هذا المشرب حينئذ ، لا يختار على ذلك الحال
حالاً ، ولا على ذلك الوقت وقتاً ، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة ، لأن
فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة . فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور
ولايتك ، وكيف تجيب أوامره ونواهيها ، وكيف تمتثل حدوده :

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (٢) .
فرتله ترتيلاً ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر في أمثاله ومواعظه ،
واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده ، (٣) .

ومنها — حضور القلب ، وترك حديث النفس : وهو يترتب على
التعظيم ، فإن من يعظم شيئاً ، كلاماً كان أو غيره ، يستبشر ويستأنس

(١) النحل ، الآية : ٩٨ .

(٢) فصلت ، الآية : ٤١ - ٤٢ .

(٣) صحيفتنا الحديث على (مصباح الصريفة) : الباب ١٤ / ١٤٢ .

به ، ولا يغفل عنه . ولا ريب في أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب ، وتفرح به النفس ، ان كان التالى أهلاً له .

ومنها — التدبر : وهو زائد على حضور القلب ، اذ التالى ربما لم يتفكر في غير القرآن ، ولكنه اقتصر على سماعه من نفسه ، من دون تدبر فيه . والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن ، قال الله سبحانه :

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

أَقْفَالٌهَا » (١) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها » . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد ، فليردد . ولذلك كان الأكابر كثيراً ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها ، وربما يقفون عند آية مدة مديدة ، وقال بعضهم : « لى فى كل جمعة ختمة ، وفى كل شهر ختمة ، وفى كل سنة ختمة ، ولى ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد » ، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه .

ومنها — التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى ، وذكر أفعاله ، وذكر الجنة والنار ، وأحوال الذنابة الآخرة ، وذكر أحوال انبيائه ، وأحوال المسكينين ، وأنهم كيف أهلکوا ، وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك . فإن مرّ بآيات صفاته تعالى ، كقوله :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (٢) .

(١) محمد - صلى الله عليه وآله - ، الآية : ٢٤ .

(٢) العورى ، الآية : ١١ .

وكقوله تعالى : « الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ... » الى
آخر الآية (١) ، وغير ذلك .

فليتأمل في معاني هذه الأسماء والصفات ، لتتكشف له أسرارها
المكتنونة تحتها ، ولا تنكشف هذه الأسرار إلا للمؤمنين في فهم كتاب
الله . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « ما أسره الي رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً كتبه
عن الناس ، إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه ، . وإن مر
بآيات الأفعال ، أى الآيات الخاكية عن خلقه السماوات والأرض ،
وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات ، وما بينهما
من السحب والغيوم والرياح والأمطار وغير ذلك ، فليفهم التالى منها عظمة
الله وجلاله . إذ الفعل يدل على الفاعل ، فعظمته تدل على عظمته . وينبغى
أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، إذ من عرف الحق رآه في كل شيء ،
إذ كل شيء منه وبه واليه وله ، فهو الكل في وحده ، ومن لا يراه في كل ما يراه
فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل ، وأن كل شيء
هالك إلا وجهه ، وإن اعتبر من حيث هو ، إذ مع قطع النظر عن الواجب
وايجاده ، لا ذات ولا وجود ، بل محض العدم وعدم المحض . فذات كل شيء
ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلى العظيم . فإذا قرأ التالى آية تدل على شيء
من عجائب صنعه وغرائب فعله ، فليتأمل في تلك العجائب ، ثم يترقى منها
الى أعجب العجائب ، وهى الصفة التى صدرت منها هذه الأعاجيب . وإذا
سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة ، فليتذكر أن ما فى هذا
العالم من النعم والنقم لا نسبة له الى ما فى عالم الآخرة ، فلينتقل من ذلك

الى عظمة الله تعالى ، وينقطع اليه باطناً ، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة ،
ويوصله الى نعيمها ولذاتها . وإذا سمع أحوال الأنبياء - عليهم السلام - ، من
تكذيبهم وضريرهم وقتلهم ، فليفهم منه صفة الاستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل
اليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لا يؤثر في ملكه ، وإذا سمع نصرتهم في
الامر ، فليفهم قدرة الله و ارادته لنصرة الحق . وأما أحوال المكذبين ،
وما جرى عليهم من العقوبات وضرور النكال ، فليستشعر الخوف من
سطوته ونقمته ، ويعتبر في نفسه ، ويعلم أنه غفل وأساء الأدب ، واغتر
بما أمهل ، فربما تدركه النقمة . وكذلك إذا سمع الوعد والوعيد والامر
والتهديد ، فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن ، لأنه لا نهاية له ، إذ
(لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ
الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفِكَ كَلِمَاتُ رَبِّي » (١) .

ولسلك عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه .

ومنها - التخلي عن موانع الفهم : وهي التقليد والتعصب لمذهب ،
فإن ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنها عن انعكاس غير معتقدها فيها ،
والجمود على تفسير ظاهر ، ظاناً ان غيره تفسير بالرأى لا يجوز ارتكابه ،
وصرف الهمة والفهم الى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الأمور المتداولة
بين القراء ، فإن قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعاني ،
والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة ، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب
الموجبة للحرمان عن انكشاف الاسرار والحقائق فيه ، وإشراق
المعارف الحققة عليه . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - :

(١) الكهف ، الآية : ١١٠ .

« إذا عظمت امتي الدينار والدرهم ، تنزع منها هيبة الاسلام ، وإذا تركوا الامر بالمعروف ، حرموا بركة الوحي » . وقد شرط الله تعالى الإجابة في الفهم والتذكر ، قال الله تعالى :

« تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » (١) . وقال

تعالى : « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » (٢) . وقال تعالى :

« إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » (٣) .

ومنها — التخصيص : وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن ، من الامر والنهي والوعد والوعيد ، حتى أنه لو سمع قصص الأولين ، يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشعر . فما من قصة في القرآن إلا وسياقها الفائدة في حق النبي وامتة ، ولذلك قال سبحانه :

« مَا مُتَّبِعْتُ بِهِ فُؤَادَكَ » (٤)

فإن القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة ، ونور وموعظة وبصائر للعالمين . فكل احد اذا قرأه ينبغي أن تكون قراءته كقراءة العبد ككتاب مولاه الذي كتب اليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . قال بعض الأكابر : « هذا القرآن رسائل اتتنا من قبل ربنا عز وجل بهموده ، فنتدبرها في الصلوات ، ونقف عليها في الخلوات ، وننفذها في الطاعات بالسنن المتبعات » .

ومنها — التأثر : وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال : من الخوف ، والحزن ، والوجل ،

(١) ق ، الآية : ٨ . (٣) الرمد ، الآية : ٢١ . الزمر ، الآية : ٩ .

(٢) المؤمن ، الآية : ١٣ . (٤) هود ، الآية : ١٢٠ .

والوجد ، والفرح ، والارتياح ، والرجاء ، والقبض ، والانبساط . فاذا سمع
الوعيد ، فليضطرب قلبه ، ويتضائل من الخوف كأنه يموت ، وإن سمع
وسعة الرحمة ووعد المغفرة ، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج ،
وإذا سمع وصف الجنة ، فلينبعث باطنه شوقاً إليها ، وإذا سمع وصف النار ،
فلترتعد فرأى خوفها ، وإذا سمع صفات الله واسماؤه ونعوت جلاله ،
فليتطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته وكبريائه ، وإذا سمع ذكر
الكفار ما يستحيل على الله من اتخاذ الولد وامثاله ، فليغض صوته وينكسر
في باطنه حياءً من قبح مقالتهم وقس على ذلك غيره من الآيات المختلفة .
ومهما تمت المعرفة ، كانت الخشية اغلب الأحوال على القلب ، إذ التضييق
غالب على آيات القرآن ، إذ لا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً
بشروط يقصر إلا كثرون عن نيلها ، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشياً
عليه عند استماع آيات الوعيد ، ومنهم من مات بمجرد استماعها . وبالجملة :
المقصود الأصلي من القرآن ، استجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل
به ، وإلا فالمؤنة بتحرريك اللسان بحروفه خفيفة . وحق تلاوة القرآن أن
يشارك فيها اللسان والعقل والقلب . فخط اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ،
وحظ العقل إدراك المعاني ، وحظ القلب الاتعاض والتأثر بالحالات
المذكورة . فاللسان واعظ القلب ، والعقل مترجم ، والقلب متمعض .
ومنها — الترقى : وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله تعالى ، لا
من نفسه . فدرجات القراءة ثلاث : الأولى : وهي ادناها ، أن يقدر العبد
أنه يقرؤه على الله تعالى واقفاً بين يديه ، وهو ناظر إليه ومستمع منه ،
فتكون حاله — على هذا التقدير — التملق والسؤال والتضرع والابتهاج .
الثانية : أن يشهد بقلبه ، كأن ربه يخاطبه بالطائفة ، ويناجيه باحسانه

وإنعامه ، فمقامه الهيبة والحياة والتعظيم والإصغاء . الثالثة : أن يرى في الكلام المتكلم ، وفي الكلمات الصفات ، فلا ينظر الى نفسه والى تلاوته ، ولا الى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه ، بل يكون مقصور الهم على التكلم ، موقوف الفكر عليه ، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره . وهذه درجة المقربين والصديقين ، وما قبله من درجات اصحاب اليمين ، وما خرج عن ذلك فهو درجات الغافلين . وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء - ارواحنا فداه - حيث قال عليه السلام : « الذي تجلى لعباده في كتابه ، بل في كل شيء ، وأراهم نفسه في خطابه ، بل في كل نور » . وأشار اليها الإمام ابو عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال : « والله لقد تجلى الله عز وجل لحلقه في كلامه ! ولكن لا يبصرون ، وروى : « أنه لحقته حالة في الصلاة ، حتى خر مغشياً عليه ، فلما سرى عنه ، قيل له في ذلك ، فقال عليه السلام : ما زلت أردد الآية على قلبي ، حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته ، . وفي مثل هذه الدرجة تشتد البهجة ، وتعظم الحلاوة واللذة . ولذلك قال بعض الحكماء : « كنت اقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ، حتى تلوته كأني أسمعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت الى مقام فوقه ، فكنت اتلوه كأني أسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فعندها وجدت لذة ونعماً لا اصبر عنه » . وقال حذيفة : « لو طهرت القلوب ، لم تشبع من قراءة القرآن ، وذلك لأنها بالطهارة تترقى الى مشاهدة المتكلم في الكلام ، بل التوحيد الخالص للعبد ، ألا يرى في كل شيء إلا الله ، إذ لو رأى غيره ، لا من حيث إنه منه وله وبه واليه ، كان مشركاً بالشرك الخفي .

ومنها - التبرى : وهو أن يتبرى من حوله وقوته ، ولا يلتفت

الى نفسه بعين الرضا والتزكية . فاذا قرأ آيات الوعد ومدح الاخيار ، فلا يشهد نفسه ولا يدخلها في زميرتهم ، بل يشهد أهل الصدق واليقين ، ويتشوق الى أن يلحقه الله بهم . وإذا قرأ آيات المقت والوعيد ، وذم العصاة والمقصرين ، شهد نفسه هناك ، وقدر أنه المخاطب خوفاً وشفاقاً . والى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ، حيث قال في وصف المتقين : « واذا مروا بآية فيها تخويف ، أصغوا اليها مسامح قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم . فاذا رأى القارئ نفسه بصورة التقصير في القراءة ، كانت رؤيته سبب قربه . فإن من شهد البعد في القرب ، لطف له بالخوف ، حتى يسوقه الى درجة اخرى في القرب وراها ، ومن شهد القرب في البعد ، مكر به بالأمن الذي يفضيه الى درجة اخرى في البعد أسفل مما هو فيه . ومنها كان مشاهداً نفسه بعين الرضا ، صار محجوباً بنفسه . فاذا جاوز حد الانتقام الى نفسه ، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته ، كشف له سر الملكوت بحسب احواله ، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء ، ويغلب على حاله الاستبشار ، وتنكشف له صورة الجنة ، فيشاهدها كأنه يراها عياناً ، وإن غلب عليه الخوف ، كوشف بالنار ، حتى يرى أنواع عذابها ، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف ، والشديد العسوف ، والمرجو والخوف ، وذلك بحسب أوصافه ، إذ منها الرحمة واللطف .

ومنها - القهر والبطش والانتقام : فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات ينقلب القلب في اختلاف الحالات ، وبحسب كل حالة منها يستمد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ، إذ يمتنع أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً ، إذ فيه كلام راض ، وكلام غضبان ، وكلام منعم ،

وكلام منتقم ، وكلام جبار متكبر لا يبالي ، وكلام منان متعطف لا يهمل .

المقصر الخامس

(الصوم)

اعلم أن الصوم اجره عظيم ، وثوابه جسيم ، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى ، وهي معروفة مشهورة ، فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى ما يتعلق به من الأمور الباطنة :

فصل

(ما ينبغي للصائم)

ينبغي للصائم أن يغيض بصره عن كل ما يحرم النظر اليه ، أو يكره ، أو يشغل القلب ويلهبه عن ذكر الله تعالى ، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة ، ويكف السمع عن كل ما يحرم أو يكره استماعه ، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات ، ويكف سائر جوارحه عن المسكاره . وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه اخبار كثيرة . وينبغي أيضاً ألا يستسكث من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء ، إذ ما من وعاء ابغض الى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال ، كيف والسر في شرع الصوم قهر عدو الله ، وكسر الشهوة والهوى ، لتتقوى النفس على التقوى ، وترتقى من حضيض حظوظ النفس البهيمية الى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية ، وكيف يحصل ذلك اذا تدارك الصائم عند الإفطار ما فاتته ضحوة نهاره ، لا سيما اذا زيد عليه في ألوان الطعام ، كما استمرت العادات في هذه الأعصار ، وربما يؤكل من الأطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور . ولا ريب في أن المعدة اذا خليت من ضحوة النهار الى العشاء ، حتى

هاجت شهوتها وقويت رغبتها ، ثم أطعمت من اللذات ، وأشبعت من ألوان
المطاعم ، وجمع ما كان يأكل ضحوة الى ما يأكل ليلا ، واكل الجميع في الليل
مرة أو مرتين أو أكثر ، زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعثت من
الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عاداتها ، فلا يحصل ما هو
المقصود من الصوم ، أعنى تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان ،
فلا بد من التقليل ، وهو ان يأكل في مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها
كل ليلة لو لم يصم ، من دون ضم مما يأكل في النهار اليه ، حتى ينتفع
بصومه . والحاصل : أن روح الصوم وسره ، والغرض الأصلي منه :
التخلق بخلق من اخلاق الله تعالى ، أعنى الصمدية ، والإقتداء بالملائكة في
الكف عن الشهوات بقدر الامكان ، وهذا إنما يحصل بتقليل الأكل عما
يأكله في غير وقت الصوم ، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين
عند العشاء ، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر ، من ادراك
الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه الى شدة حال الفقراء ، فيبعثهم ذلك على
مواساتهم بالأموال والأقوات ، فهو أيضاً لا يتم بدون التقليل في الأكل .

فصل

(ما ينبغي للصائم عند الافطار)

ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً ، معلقاً بين
الخوف والرجاء ، إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه
فهو من الممقوتين ، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها .
روى : ان الامام ابا محمد الحسن المجتبي عليه السلام مر بقوم يوم العيد ، وهم يضحكون ،
فقال عليه السلام : إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه ، يستبقون
فيه لطاعته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالعجب كل

العجب للمضحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون ، وخاب فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه ، والمسيء عن إساءته ! ، أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك .

فصل

(درجات الصوم)

للصوم ثلاث درجات :

الأولى — صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب .

الثانية — صوم الخصوص : وهو الكف المذكور ، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي ، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع .

الثالثة — صوم خصوص الخصوص : وهو الكفان المذكوران ، مع صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأخلاق الرديئة ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سواه بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله واليوم الآخر ، وحاصل هذا الصوم إقباله بكنهه الهمة على الله ، وانصراف عن غير الله ، وتلبس بمعنى قوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم » ، وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقربين ، ويترتب عليه الوصول إلى المشاهدة واللقاء ، والفوز بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب احد . وإلى هذا الصوم أشار مولانا الصادق عليه السلام حيث قال : « قال النبي صلى الله عليه وآله : الصوم جنة . أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من

عذاب الآخرة ، فإذا صمت فانو بصومك كيف النفس عن الشهوات ،
 وقطع الهمة عن خطرات الشياطين ، وأنزل نفسك منزلة المرضى ،
 ولا تشتهي طعاماً ولا شراباً ، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب ،
 وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه
 الله . قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : الصوم لي وأنا اجزي به .
 والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع ، وفيه صفاء القلب ، وطهارة
 الجوارح ، وعمارة الظاهر والباطن ، والشكر على النعم والاحسان الى
 الفقراء ، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء ، وحبل الإلتجاء الى الله ،
 وسبب انكسار الهمة ، وتخفيف الحساب ، وتضعيف الحسنات ، وفيه
 من الفوائد ما لا يحصى ولا يعد ، وكفى بما ذكرناه لمن عقله ووفق
 لاستعماله ، (١) .

تتميم

من صام شهر رمضان إخلاصاً لله وتقرباً اليه ، وطهر باطنه من ذمائم
 الأخلاق ، وكف ظاهره عن المعاصي والآثام ، واجتنب عن الحرام ،
 ولم يأكل إلا الحلال ، ولم يفطر في الأكل ، وواظب على جملة من النوافل
 والأدعية وسائر الآداب المسنونة فيه ، استحق للمغفرة والخلاص عن
 عذاب الآخرة ، بمقتضى الأخبار المتواترة . ثم إن كان من العوام ،
 حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته ، وإن كان من أهل
 المعرفة ، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه ، فينكشف له شيء من المملكات ،
 لا سيما في ليلة القدر ، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الأسرار ، وتفيض على

(١) صحننا الحديث على (مصباح الصريفة) : الباب ٢٠ . وعلى (المستدرك) :

القلوب الطاهرة الأنوار ، والمناط والعمدة في نيل ذلك تقليل الأكل بحيث يحس ألم الجوع ، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخللة من الطعام ، فهو محجوب عن عوالم الأنوار . ويستحيل أن ينكشف له شيء من الأسرار .

المقصر السادس

(الحج)

اعلم أن الحج أعظم أركان الدين ، وعمدة ما يقرب العبد الى رب العالمين ، وهو أهم التكاليف الإلهية واثقلها ، وأصعب العبادات البدنية وأفضلها ، وأعظم بعبادة ينعدم بفقدائها الدين ، ويساوى تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين . والأخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الأخبار ، والأحكام والشرائط الظاهرة له على عمدة الفقهاء ، فلنشر الى الأسرار الخفية ، والأعمال الدقيقة ، والآداب الباطنة ، التي يبحث عنها أرباب القلوب :

فصل

(الغرض من إيجاد الانسان)

إعلم أن الغرض الأصلي من إيجاد الانسان معرفة الله والوصول الى حبه والانس به ، والوصول اليه بالحب والانس يتوقف على صفاء النفس وتجردها . فكما صارت النفس أصفى وأشد تجرداً ، كان انسها وحبها بالله أشد وأكثر . وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات ، والكف عن الذات ، والإنقطاع عن الخطام الدنيوية ، وتحريك الجوارح وإيقاعها لأجله في الأعمال الشاقة ، والتجرد لذكره وتوجيه القلب اليه . ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الأمور ، إذ بعضها

إنفاق المال وبذله ، الموجب للانقطاع عن الحطام الدنيوية ، كالزكاة والخمس والصدقات ، وبعضها الكف عن الشهوات والذات ، كالصوم ، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب اليه ، وارتكاب تحريك الأعضاء وتعبها ، كالصلاة ، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الأمور مع الزيادة ، إذ فيه هجران أوطان ، وإتمام ابدان ، وإنفاق أموال ، وإنقطاع آمال ، وتحمل مشاق وتجديد ميثاق ، وحضور مشاعر ، وشهود شعائر ، ويتحقق في أعماله التجرد لذكر الله ، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات ، مع كون أعماله أموراً لا تأنس بها النفوس ، ولا تهتدى الى معانيها العقول ، كرمى الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، إذ يمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فإن سائر العبادات أعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل ، فللنفس اليها ميل ، وللطبع بها انس .

وأما بعض أعمال الحج ، كرمى الجمار وترددات السعى ، فلا حظ للنفس ولا انس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل الى معانيها ، فلا يكون الإقدام عليها إلا لمجرد الأمر وقصد الامتثال له من حيث إنه امر واجب الاتباع ، ففيها عزل العقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل انسه ، فإن كل ما ادرك العقل معناه مال الطبع اليه ميلاً ما ، فيكون ذلك الميل معيناً للامتثال ، فلا يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال النبي ﷺ في الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقاً وتعبداً ورقاً ! » ، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات . فمثل هذه العبادة - أي ما لم يهتد العقل الى معناه ووجهه - أبلغ انواع العبادات في تزكية النفوس وصرافها عن مقتضى الطبع والبغى الى الاسترقاق ، فتعجب بعض الناس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات ، وهذا هو السر في وضع الحج ،

مع دلالة كل عمل من اعماله على بعض أحوال الآخرة ، أو في بعض أسرار
 آخر — كما يأتي — ما فيه من اجتماع أهل العالم في موضع تسكرر فيه نزول
 الوحي ، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم ،
 ومن قبله على خليله المعظم — عليهما أفضل الصلاة — ، بل لا يزال مرجعاً
 ومنزلاً لجميع الأنبياء ، من آدم الى خاتم ، ومهبطاً للوحي ، ومحللاً لنزول
 طوائف الملائكة . وقد تولد فيه سيد الرسل ﷺ وتوطأت أكثر مواضعه
 قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء ، ولذلك سمي بـ (البيت العتيق) ، وقد
 شرفه الله تعالى بالاضافة الى نفسه ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما
 حواليه حرماً لبئته ، وتفخيماً لأمره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء
 حرمه ، وأكيد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره ، ووضعته على
 مثال حضرة الملوك ، فقصدته الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب
 سحيق ، شعناء غبراء ، متواضعين لرب البيت ، ومستكنين له ، خضوعاً
 لجلاله ، واستكانة امرته وعظمته ، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه
 بيت أو يكسفه بلد .

ولا ريب في أن الاجتماع في مثل هذا الموضع ، مع ما فيه من حصول
 الموالفة والمصاحبة ، ومجاورة الأبدال والأتاد والأخيار المجتمعين من
 أقطار البلاد ، وتظاهر الهمم ، وتعاون النفوس على التضرع والابتهاال
 والدعاء الموجب لسرعة الاجابة ، بذكر النبي ﷺ واجلاله ، ونزول
 الوحي عليه ، وغاية سعيه واهتمامه في إعلاء كلمة الله ونشر احكام دينه ،
 فتحصل الرقة للقلب ، والصفاء للنفس . ثم لكون الحج أعظم التكليفات
 لهذه الأمة ، جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة ، فان الامم الماضية اذا
 أرادوا العمل لأصعب التكاليف واشقها على النفس ، انفردوا عن الخلق ،

وانحازوا الى قتل الجمال ، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله ،
والتجرد له في جميع الحركات والسكنات ، فتركوا اللذات الحاضرة ، وألزموا
انفسهم الرياضات الشاقة ، طمعاً في الآخرة ، وقد اثنى الله عليهم في
كتابه ، وقال :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْنِ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ » (١). وقال تعالى : « وَرُهْبَانِيَّةً أُبْتَدِعُوهَا
مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » (٢) .

ولما اندرس ذلك ، واقبل الخلق على اتباع الشهوات ، وهجروا التجرد
لعبادة الله تعالى ، وفروا عنها ، بعث الله تعالى من سررة البطحا محمداً ﷺ ،
لاحياء طريق الآخرة ، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها ، فسأله أهل
الملل من الرهبانية والسياسة في دينه ، فقال ﷺ : « ابدلنا بالرهبانية
الجهاد ، والتكبير على كل شرف - يعني الحج - ، وابدلنا بالسياسة
الصوم . فانعم الله على هذه الأمة ، بأن جعل الحج رهبانية لهم ، فهو بازاء
اعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة .

فصل

(ما ينبغي في الحج)

ينبغي للحاج ، عند توجهه الى الحج ، مراعات امور :
الاول - أن يجرّد نيته لله ، بحيث لا يشوبها شيء من الأغراض
الدنيوية ، ولا يكون باعثه على التوجه الى الحج إلا امتثال أمر الله ، ونيل

(١) المائدة ، الآية : ٨٥ . (٢) الحديد ، الآية : ٢٧ .

ثوابه ، والإستخلاص من عذابه ، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث آخر ، مكنون في بعض زوايا قلبه ، كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيرهم لو لا يحج ، أو الخوف من الفقر وتلف أمواله لو ترك الحج ، لما اشتهر من أن (تارك الحج يتلى بالفقر والإدبار) ، أو قصد التجارة أو شغل آخر ، فإن كل ذلك يخرج العمل من الإخلاص ، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود ، وما أجهل من تحمل الأعمال الشاقة التي يمكن أن تحصل بها سعادة الأبد ، لأجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة ، فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصاً لوجه الله ، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة ، ويتيقن أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص ، وإن من أخش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمة والمقصود غيره ، فليصحح في نفسه العزم ، وتصحيحه بإخلاصه باجتنب كل ما فيه رياء وسمعة .

الثاني — أن يتوب الى الله تعالى توبة خالصة ، ويردّ المظالم ، ويقطع علاقة قلبه عن الإلتفات الى ما وراءه ، ليكون متوجهاً الى الله بوجه قلبه ، ويقدر أنه لا يعود ، وليكتب وصيته لأهله وأولاده ، ويتهيا لسفر الآخرة ، فإن ذلك بين يديه على قرب ، وما تقدمه من هذا السفر تهية لأسباب ذلك السفر ، فهو المستقر واليه المصير . فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا ، فليتذكر عند قطعه العلاقات لسفر الحج قطع العلاقات لسفر الآخرة .

الثالث — أن يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت ، ويعلم أنه ترك الأهل والأوطان ، وفارق الأحبة والبلدان ، للعزم على أمر رفيع شأنه ، خطير أمره : اعنى زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس ، فسفره هذا لا يضاهي أسفار الدنيا . فليحضر في قلبه ما ذا يريد ، وأين يتوجه ، وزيارة من

يقصد ، وأنه متوجه الى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين اليه ، الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا فاشتاقوا ، ودعوا فقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه ، تسلياً بلقاء البيت عن لقاء صاحبه ، الى أن يرزقوا منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر الى مولاهم ، فليحضر في قلبه عظم السفر ، وعظمة البيت ، وجلالة رب البيت ، ويخرج معظماً لها ، ناوياً إن لم يصل وادركته المنية في الطريق لقي الله وافداً اليه بمقتضى وعده .

الرابع — أن يخلى نفسه عن كل ما يشغل القلب ، ويفرق الهم في الطريق ، أو المقصود ، من معاملة أو مثلها ، حتى يكون الهم مجرداً لله ، والقلب مطمئناً منصرفاً الى ذكر الله وتعظيم شعائره ، متذكراً عند كل حركة وسكون أمراً اخرورياً يناسبه .

الخامس — أن يكون زاده حلالاً ، ويوسع فيه ويطيبه ، ولا يغم بيندله وإنفاقه ، بل كان طيب النفس به ، إذ إنفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله ، والدرهم منه بسبعماية درهم ، قال رسول الله ﷺ : « من شرف الرجل أن يطيب زاده إذا خرج في سفر ، وكان السجادة ﷻ إذا سافر الى الحج ، يتزود من أطيب الزاد ، من اللوز والسكر والسويق الحمض والمحلى . وقال الصادق ﷻ : « إذا سافرتم ، فاتخذوا سفرة وتعوقوا فيها . وفي رواية : « أنه يكره ذلك في زيارة الحسين ﷻ . نعم ينبغى أن يكون الإنفاق على الإقتصاد من دون تقتير ولا إسراف ، والمراد بالإسراف التنعم بأطائب الأطعمة ، والترفيه بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين ، وأما كثرة البذل على المستحقين ، فلا إسراف فيه ، إذ لا خير في السرف ، ولا سرف في الخير . وينبغي — ايضاً — أن يكون له طيب النفس فيما أصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن ، لأن ذلك من دلائل

قبول حجه ، فإن ذهب المال في طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمائة في سبيل الله ، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق الجهاد ، فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب ، فلا يضيع منه شيء عند الله .
السادس - أن يحسن خلقه ، ويطيب كلامه ، ويكثر تواضعه ، ويجتنب سوء الخلق والغلظة في الكلام ، والرفث والفسوق والجدال ، والرفث اسم جامع لكل فحش و لغو و خنى ، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله ، والجدال هو المبالغة في الخصومة والمهارة بما يورث الضغائن ، ويفرق الهم ويناقض حسن الخلق . قال رسول الله ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، فقيل : يا رسول الله ، ما بر الحج ؟ قال : « طيب الكلام وإطعام الطعام » . فلا ينبغي أن يكون كثير الإعتراض على رفيقه وجماله ، وعلى غيرهما من أصحابه ، بل يلين جانبه ، ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله ، ويلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق مجرد كلف الأذى ، بل احتمال الأذى ، وقيل : سمي السفر سفراً ، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال .

السابع - أن يكون أشعث أغبر ، غير متزين ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر ، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين ، ويمشى إن قدر ، خصوصاً بين المشاعر . وفي الخبر : « ما عبد الله بشيء أفضل من المشى » . وينبغي ألا يكون الباعث للمشى تقليل النفقة ، بل التعب والرياضة في سبيل الله ، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار ، فالركوب أفضل . وكذا الركوب أفضل لمن ضعف بالمشى ، وساء خلقه ، وقصر في العمل ، ففي الخبر : « تركبون أحب إلي ، فإن ذلك أقوى على الدعاء والعبادة » . وكان الحسن بن علي - عليهما السلام - يمشى وتساق معه المحامل والرجال .

وإذا حضرت الراحلة ليركبها ، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخير له الدواب ، لتتحمل عنه الأذى ، وتخفف عنه المشقة . وينبغي أن يرفق بها ، فلا يحملها ما لا تطيق .

فصل

(الميقات)

إذا خرج عن وطنه ، ودخل الى البادية ، متوجهاً الى الميقات ، وشاهد العقبات ، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات يوم القيامة ، وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وليتذكر من هول قطاع الطريق هول منكر ونكير ، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها ، ومن إنفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكرهته ، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر .

فصل

(ما ينبغي في الميقات)

إذا دخل الميقات ، ولبس ثوبي الإحرام ، فليتذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه ، وأنه سيلقى الله ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة ، فكما لا يلقى بيت الله إلا بهيئة وزى يخالف عاداته ، فكذلك لا يلقى الله بعد الموت إلا في زى يخالف زى الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب ، إذ ليس مخيطاً ، كما أن الكفن أيضاً ليس مخيطاً . وإذا أحرم وتلبي ، فليعلم أن الإحرام والتلبية اجابة نداء الله ، فليرج أن يكون مقبولاً ، وليخش أن يكون مردوداً ، فيقال : لا لبيك ولا سمعديك ! فليكن بين الخوف والرجاء متردداً ، وعن حوله وقوته متبرأ ، وعلى فضل الله وكرمه متكللاً . فان وقت التلبية هو

بداية الأمر ، وهو محل الخطر . وقد روى : « أن علي بن الحسين - عليهما السلام - لما أحرم ، واستوت به راحلته ، اصفر لونه وانتقص ، ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبى . فقيل له : لم لا تلبى ؟ فقال : أخشى أن يقول ربى : لا لبيك ولا سمعديك ! فلما لبى غشى عليه وسقط من راحلته ، فلم يزل يمتريه ذلك حتى قضى حجه . فليتك الملبى عند رفع الأصوات في الميقات خائفاً راجياً ، أنه إجابة لنداء الله تعالى ، إذ قال تعالى :

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكُّبَ رِجَالاً » (١)

ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور ، وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله ، ومنقسمين الى مقر بين ومباعدين ، ومقبولين ومردودين ، ومرددين في اول الأمر بين الخوف والرجاء ، مثل تردد الحاج في الميقات ، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا .

فصل

(ما ينبغي عند دخول مكة)

ينبغي أن يتذكر عند دخول مكة : أنه قد انتهى الى حرم من دخله كان آمناً ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله ، وليضطرب قلبه من ألا يكون أهلاً للقرب والقبول ، فيكون بدخول الحرم خائباً مستحقاً للوقت ، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً ، إذ شرف البيت العظيم ، ورب البيت كريم ، والرحمة واسعة ، والفيوضات نازلة ، وحق الزائر منظور ، واللائد المستجير غير مردود . وإذا وقع البصر على البيت ، فليحضر في قلبه عظمته ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه ،

وليرج أن يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته ، ويشكر الله على تبيغته إياه الى بيته ، والحاقة إياه بزمرة الوافدين اليه ، ويتذكر عند ذلك ايصاب الخلاق الى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ، ثم انقسامهم الى مأذنين في الدخول ومصروفين عنها ، إنقسام الحاج الى مقبولين ومردودين .

فصل

(ما ينبغي عند الطواف)

وينبغي عند الطواف أن يمتلىء قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ، ويعلم أنه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش ، وليعلم إن المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت ، دون مجرد طواف جسمه بالبيت ، فليبتدىء الذكر به ويختم به ، كما يبدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت . فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية ، والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر ، وهو عالم الغيب وعالم الملك الشهادة ، مدرجة الى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب . وما ورد من ان البيت المعمور في السماوات بإزاء الكعبة ، وان طواف الملائكة بها كطواف الإنس بهذا البيت ، ربما كان إشارة الى ما ذكرناه من المماثلة ، ولما قصرت رتبة الأكثرين عن مثل ذلك الطواف ، أمروا بالتشبه بهم بقدر الامكان ، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم .

فصل

(ما ينبغي عند إستلام الحجر)

ينبغي أن يتذكر عند إستلام الحجر الأسود ، أنه بمنزلة يمين الله في أرضه ، وفيه موثيق العباد . قال رسول الله ﷺ : « إستلموا الركن ، فإنه

يمين الله في خلقه ، يصفح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل ، ويشهد لمن استلمه بالموافاة ، ومراده جاءه بالركن : الحجر الأسود ، لأنه موضوع فيه ، وإنما شبه باليمين ، لأنه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتجيب والرضا ، كاليمين حين التصافح . وقال الصادق عليه السلام : « إن الله تبارك وتعالى لما أخذ موثيق العباد ، أمر الحجر فالتقمها ، فلذلك يقال : أماتني أديتها ، وميثاقي عاهدته ، لتشهد لي بالموافاة » . وقال عليه السلام : « الركن اليماني باب من أبواب الجنة ، لم يخلقه الله منذ فتحه » . وقال عليه السلام : « الركن اليماني بابنا الذي يدخل منه الجنة ، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد » ، قيل : إنما شبه بباب الجنة ، لأن إستلامه وسيلة الى وصولها ، وبالنهر ، لأنه تغسل به الذنوب . ثم لتكن النية في الاستلام والإلتصاق بالمستجار ، بل المماساة لكل جزء من البيت ، طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت ، وتمسكاً وتبركاً بالمماساة ، ورجاءاً للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت ، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان ، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه ، المتضرع اليه في عفوه عنه ، المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا اليه ، ولا مفرغ إلا عفوه وكرمه ، وأنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه ، ويعطيه الأمان في المستقبل .

فصل

(السمي)

السمي بين الصفا والمروة في فناء البيت ، يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك ، جائياً وذهاباً مرة بعد أخرى ، إظهاراً للخلوص في الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذي دخل على الملك وخرج ، وهو لا يدري ما

الذى يقضى به الملك فى حقه من قبول أو رد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد اخرى ، يرجو أن يرحمه فى الثانية إن لم يرحمه فى الأولى ، وليتذكر عند ترده التردد بين الكفتين ، ناظراً الى الرجحان والنقصان ، مردداً بين العذاب والغفران .

فصل

(ما ينبغى عند الوقوف بعرفات)

وأما الوقوف بعرفات، فليتذكر بما يرى من إزدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أمتهم فى التردد على المشاعر: عرصات يوم القيامة وأهوالها، وانتشار الخلائق فيها حيارى، واجتماع الامم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبيهم، وطمعهم فى شفاعته لهم، وتحيرهم فى ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكر ذلك، فليتضرع الى الله تعالى ويبتهل اليه، ليقبل حجه ويحشره فى زمرة الفائزين المرحومين. وينبغى أن يحقق رجاءه، إذ اليوم شريف والموقف عظيم، والنفوس من أقطار الأرض فيه مجتمعة، والقلوب الى الله سبحانه منقطعة، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة، وبواطن العباد على التضرع والابتهاال متعاونة، وايديهم الى حضرة الربوبية مرتفعة، وابصارهم الى باب فيضه شاخصة، وأعناقهم الى عظيم لطفه وبره ممتدة، ولا يمكن أن يخلو الموقف عن الأخيار والصالحين، وأرباب القلوب والملتقين، بل الظاهر حضور طبقات الأبدال وأوتاد الأرض فيه، فلا تستبعدن أن تصل الرحمة من ذى الجلال بواسطة القلوب العزيزة، والنفوس القادسة الشريفة، الى كافة الخليقة، ولا تظن أنه يخيب آمال الجميع، ويضيع سعيهم، ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم

عن الأهل والأوطان ، فإن بحر الرحمة أوسع من أن يضن به في مثل هذه الحالة ، ولذا ورد : أنه من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله لم يغفر له .

فصل

(المشعر)

وإذا فاض من عرفات ودخل المشعر ، فليبتدأ عند دخوله فيه : أن الله سبحانه قد أذن له في دخول حرمة بعد أن كان خارجاً عنه ، إذ المشعر من جملة الحرم ، وعرفات خارجة عنه ، فليتفاهل من دخول الحرم بعد خروجه عنه ، بأن الله سبحانه قربه إليه وكساه خلع القبول ، وأجاره وآمنه من العذاب والبعد ، وجعله من أهل الجنة والقرب .

فصل

(ما ينبغى عند الرمي والذبح)

وإذا ورد منى ، وتوجه إلى رمي الجمار ، فليقصد به الانقياد والامتثال ، اظهاراً للرق والعبودية ، وتشبيهاً بالخليل الجليل عليه السلام ، حيث عرض له إبليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حججه ، فأمره الله تعالى أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله . وينبغي أن يقصد أنه يرمي الحصا إلى وجه الشيطان ، ويقصم به ظهره ، ويرغم به أنفه ، إذ امتثال أمر الله تعالى تعظيماً له يقصم ظهر اللعين ويرغم أنفه . وإذا ذبح الهدى ، فليستحضر أن الذبح إشارة إلى أنه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الأمارة وقتلتهما ، وبذلك استحق الرحمة والغفران ، ولذا ورد : أنه يعتق بكل جزء من الهدى جزء منه النار . فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الأعمال

القييحة ، حتى يصير حاله أحسن من سابقه ، ليصدق عليه إذلاله الشيطان
والنفس الأمارة في الجملة ، ولا يكون في عمله من الكاذبين . ولذلك ورد :
أن علامة قبول الحج : أن يصير حاله بعد الحج : أحسن مما كان عليه قبله . وفي
الخبر : أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي ، وأن
يستبدل باخوانه الباطلين اخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة بمجالس
الذكر واليقظة .

تعميم

(أسرار الحج)

قد ورد عن مولانا الصادق عليه السلام خبر يتضمن عمدة أسرار الحج
ودقائقه ، فلنذكره تيمناً بكلماته الشريفة :

قال عليه السلام : « إذا أردت الحج ، فجرد قلبك لله عز وجل ، من قبل
عزمك ، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب ، وفوض أمورك كلها إلى
خالقك ، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلم
لقضائه وحكمه وقدره ، وودع الدنيا والراحة والخلق ، واخرج من
حقوق يلزمك من جهة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك
وقوتك وشبابك ومالك ، مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً ، فإن من
ادعى رضا الله ، واعتمد على شيء ما سواه ، صيره عليه عدواً ووبالاً ،
ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه ،
واستعد استعداداً من لا يرجو الرجوع ، وأحسن الصحبة ، وراع أوقات
فرائض الله تعالى وسنن نبيه صلى الله عليه وآله ، وما يجب عليك من الأدب ،
والاحتمال ، والصبر ، والشكر ، والشفقة ، والسخاوة ، وإيثار الزاد

على دوام الأوقات ، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة
الصدق والصفاء والخضوع والخشوع ، واحرم من كل شيء يمنحك عن
ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته ، واب بمعنى إجابة صافية خالصة
زاكية لله عز وجل في دعوتك له ، متمسكا بالعروة الوثقى ، وطف بقلبك
مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت وهرول
هرولة فرأ من هواك ، وتبرأ من جميع حولك وقوتك ، واخرج من غفلتك
وزلاتك بخروجك الى منى ، ولا تمن ما لا يحل لك ولا تستحقه ، واعترف
بالخطأ بالعرفات ، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرب اليه ،
واتقه بمزدلفه ، واصعد بروحك الى الملاء الأعلى بصمودك على الجبل ،
واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والخساسة
والدناءة والأفعال الذميمة عند رمى الجمرات ، وأحلق العيوب الظاهرة
والباطنة بخلق شعرك ، وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلائته من
متابعة مرادك بدخول الحرم ، وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفته
وجلاله ، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعاً لعظمته ، وودع ماسواه
بطواف الوداع ، وصف روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك
على الصفا ، وكن ذامرة من الله بفناء أوصافك عند المروة ، واستقم على
شروط حجتك ، ووفاء عهدك الذى عاهدت ربك ، واوجبت له الى يوم
القيامة ، واعلم بان الله لم يفترض الحج ، ولم يخصه من جميع الطاعات
بالأضافة الى نفسه بقوله تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) (١).

ولا شرع نبيه ﷺ سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه ،
إلا للاستعداد والاشارة الى الموت والقبر والبعث والقيامة ، وفضل بيان
السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها ، بمشاهدة مناسك الحج
من أولها الى آخرها ، لاولى الألباب وأولى النهى ، (١) .

خاتمة

(زيارة المشاهد)

في الاشارة الى بعض الامور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد
اعلم ان النفوس القوية القدسية ، لاسيما نفوس الأنبياء والأئمة - عليهم
السلام- ، اذا نفضوا أبدانهم الشريفة ، وتجردوا عنها ، وصعدوا الى عالم التجرد ،
وكانوا في غاية الإحاطة والاستيلاء على هذا العالم ، فامور هذا العالم عندهم
ظاهرة منكشفة ، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا
العالم ، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه ، لاسيما ومقابرهم
مشاهد أرواحهم المقدسة العلية ، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية ،
فإنهم هناك يشهدون ،

« بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ » (٢)

وبما آتاهم الله من فضله فرحون ، فلهم تمام العلم والاطلاع بزأرى
قبورهم ، وحاضرى مراقدهم ، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل
والاستشفاع والتضرع ، فتهب عليهم نسمات أظافهم ، وتفيض عليهم
من رشحات أنوارهم ، ويشفعون الى الله في قضاء حوائجهم ، وإنجاح

(١) صحنا الحديث على (مصباح الشريفة) : الباب ٢١ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٦٩ .

مقاصدهم ، وغفران ذنوبهم ، وكشف كربهم . فهذا هو السر في تأكد استحباب زيارة النبي والأئمة - عليهم السلام - ، مع ما فيه من صلتهم وبرهم واجابتهم ، وإدخال السرور عليهم ، وتجديد عهد ولايتهم . وإحياء أمرهم ، وإعلاء كلمتهم ، وتبكييت أعدائهم . وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى عظيم أجره وجزيل ثوابه . وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات ، وأشرف الطاعات ، مع أن زيارة المؤمن - من جهة كونه مؤمناً لحسب - عظيم الأجر جزيل الثواب ، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة ، ولذلك كثرت تردد الأحياء إلى قبور أمواتهم للزيارة ، وتعارف ذلك بينهم ، حتى صارت لهم سنة طبيعية ، وأيضاً قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله ، وثواب صلته وبره وإدخال السرور عليه . وإذا كان الحال في المؤمن من حيث إنه مؤمن ، فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ ، وطهره من الرجس ، وبعثه الله إلى الخلائق أجمعين ، وجعله حجة على العالمين ، وارضاءه إماماً للمؤمنين ، وقدوة للمسلمين ، ولأجله خالق السموات والأرضين ، وجعله صراطه وسبيله ، وعينه ودليله ، وبابه الذي يؤتى منه ، ونوره الذي يستضاء به ، وأمينه على بلاده ، وحبله المتصل بينه وبين عباده ، من رسل وأنبياء وأئمة وأولياء . ثم ، الأخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والأئمة - عليهم السلام - مما لا تحصى كثرة . قال رسول الله ﷺ : « من زار قبري بعد موتي ، كان كمن هاجر إلي في حياتي ، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام ، فإنه يبلغني » . وقال ﷺ : « يا أبا الحسن ، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعاً من بقاع الجنة ، وعروسة من عرصاتهما ، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه ، وصفوة من عباده ، تحن إليكم ، وتحتمل المذلة

والأذى فيكم ، فيعمرون قبوركم ، ويكثرون زيارتها ، تقربا منهم الى الله ، ومودة منهم لرسوله ، أو لثقتك يا علي المخصوصون بشفاعتي ، والواردون حوضي ، وهم زواري وجيراني غداً في الجنة . يا علي ، من عمر قبورهم وتعاهدها ، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس ، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الاسلام ، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته امه . فابشر ، وبشر أوليائك ومحبيك من النعيم وقررة العين ، بما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولكن حشالة من الناس يعمرون زوار قبوركم ، كما تعير الزانية بزناها ، أو لثقتك شرار امتي ، لا تنالهم شفاعتي ، ولا يردون حوضي ، (١) . وقال الصادق عليه السلام : لو أن احدكم حج دهره ، ثم لم يزر الحسين بن علي - عليهما السلام - ، لكان تاركا حقاً من حقوق رسول الله ﷺ ، لأن حق الحسين عليه السلام فريضة من الله واجبة على كل مسلم . وقال الرضا عليه السلام : إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته ، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الاداء زيارة قبورهم ، فمن زارهم رغبة في زيارتهم ، وتصديقاً بما رغبوا فيه ، كان أمته شفعاؤه يوم القيامة . والأخبار في فضل زيارة النبي والآئمة المعصومين ، لا سيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا - عليهم أفضل التحية والثناء - ، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد ، أكثر من أن تحصى ، وهي مذكورة في كتب المزار لأصحابنا ، فلا حاجة الى ايرادها هنا .

(١) صححنا الحديث على (مستدرك الوسائل) : ٢ / ١٩٥ - ١٩٦ ، كتاب الحج ،

١٠ ، ابواب المزار وما يناسبه .

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة)

وإذا عرفت فضل زيارتهم وسرها ، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم ، فينبغي أن تكثير التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول في بلادهم ، ومراقبهم المنورة ، ومشاهدتهم المكرمة ، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم ، وتعرف عظيم حقهم ، وغاية جدتهم وسعيتهم في إرشاد الناس وإعلاء كلمة الله .

فإذا قربت المدينة المنورة ، ووقع بصرك على حيطانها ، تذكر أنها البلدة التي إختارها الله لنبيه ﷺ ، وجعل اليها هجرته ، وأنها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه وسنته ، وجاهد عدوه ، وأظهر بها دينه ، ولم يزل قاطناً بها إلى أن توفاه الله ، وجعل تربته فيها .

ثم مثل في نفسك أقدام رسول الله ﷺ عند تردداتك فيها ، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز ، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينته ورجل ، وكن متذكراً لمشيه وتخطيه في سككها ، وتصور سكينته ووقاره ، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه ، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره ، حتى قرنه بذكر نفسه ، وأنزل عليه كلامه العزيز ، وأهبط عليه روح الأمين وسائر ملائكته المقربين ، وأحبط عمل من هتك حرمة ، ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر ما من الله به على الذين أدركوا صحبته ، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه ، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته ، وتضرع إلى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة ، ولتعظم رجاءك في ذلك ، بعد أن رزقك الله الإيمان ، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته ، محبة له ، وتشوقا إليه .

ثم اذا دخلت مسجده ، فتذكر أن أول موضع اقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة ، وأنها تضمنت أفضل خلق الله حياً وميتاً ، فارح الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك اياه خاشعاً معظماً ، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن .

ثم اذا أتيت للزيارة ، فينبغي ان تقف بين يديه خاضعاً خاشعاً خائفاً ، وتزوره ميتاً كما تزوره حياً ، ولا تقرب من قبره إلا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً ، إذ لا فرق بين ميتة وحيه ، ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمناً ، واتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك ، وأنه يبلغه سلامك وصلواتك . فمثل صورته الكريمة في خيالك ، جالساً على سرير العظمة بجذائك ، وأحضر عظيم رتبته في قلبك ، وقد ورد : أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته . وهذا في حق من لم يحضر قبره ، فكيف بمن فارق الأهل والوطن ، وقطع البوادي شوقاً الى لقائه ، واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور ، إذ فاته مشاهدة طلعتة البهية ، وغرته الكريمة . وقد قال ﷺ : « من صلى عليّ مرة ، صليت عليه عشرأ . فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه ، فكيف بالحضور لزيارته بيده ؟

وإذا فرغت من زيارته ، فأت المنبر وامسحه بيدك ، وخذ برمانيته ، وامسح بهما وجهك وعينيك ، وتضرع الى الله ، وابتهل اليه ، واسأل حاجتك . وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر ، ومثل في قلبك طلعتة البهية ، قائماً على المنبر ، وقد أحدق به المسلمون من المهاجرين والأنصار ، وهو يحمد الله بأفصح الكلمات واللغات ، ويمث الناس على طاعة الله . واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك ، ويجعلك في جواره ، ويعطيك منزلاً في قرب داره .

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكر بلاء)

وإذا دخلت أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليهما السلام ، تذكر أنها وادي السلام ، وجمع أرواح المؤمنين ، وقد شرفها الله وجعلها أشرف البقاع ، وجنة المؤمنين . فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت يأتي روحه إليها ، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين ، إلى أن يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى . وقد أكد شرافتها وعظم قدرها ، بأن جعلها مدفن وصي رسوله ، بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر ، ونوح شيخ المرسلين — عليهما السلام — . فاسأل الله أن يأتي بروحك إليها ، ويدخلك في زمرة المؤمنين ، ويجعلها محل دفنك ، لتنال شفاعته مولاك عليه السلام ، ولا يحشرك مع الكفار والمعصاة في وادي برهوت .

وإذا أتيت لزيارته ، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله ، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وإذا أردت أرض كربلاء ، لزيارة سيد الشهداء عليه السلام ، فتذكر أن هذه الأرض هي التي قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه واجناده ، وأسرت فيها أهاليه وأهل بيته ، فجدد الحزن على قلبك ، وادخلها أشعث اغبر ، منكسر الحال ، محزون القلب ، كئيباً حزيناً باكياً ، وأحضر في قلبك حرمة هذه الأرض وشرافتها ، فإنها الأرض التي في تربتها الشفاء ، ولا يرد فيها الدعاء ، وقد يجعلها الله يوم القيامة أرفع بقاع الجنة ، فتردد فيها على سكينته ووجل .

ثم إذا دخلت الحائر للزيارة ، ووقع بصرك على ضريحه المنور ، ثم

على ضريح اصحابه المستشهدين معه ، المجتمعين في موضع واحد في جواره ،
 فمثل في قلبك اشخاصهم ، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن ،
 واحضر في نفسك أبا عبد الله الحسين عليه السلام واقفاً في عرصة كربلاء ، ويأتي
 أصحابه واحداً واحداً يستأذن منه للجهاد ، قائلاً : السلام عليك
 يا أبا عبد الله ! وهو يأذن له ، ويلقى نفسه في الميدان على الجهم الغفير ،
 فيقتل في سبيله ، واذا أيس من حياته ، ينادى بأعلى صوته : ادركني
 يا أبا عبد الله ! وهو عليه السلام يسرع اليه كالصقر المنقض ، ويأخذ جثته من
 الميدان ، ويلحقه بسائر اخوانه الشهداء . فمثل في نفسك أمثال ذلك ، وجدد
 عليهم الحزن والبكاء ، وتمن كونك معهم في تلك العرصة ، وقل : ياليتني
 كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً !

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته عليه السلام ، وقس على ذلك زيارة كل واحد
 من الأئمة - عليهم السلام - ، فإنه ينبغي لك أن تستحضر ، عند حضورك
 كل واحد منهم ، جلالة شأنه ، وعظمة قدره ، وعظيم حقه ، وتذكر
 ما يناسب حاله ، وما جرى عليه ، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه ،
 من التعظيم ، والإجلال ، والخوف ، والحزن ، والفرح ، وأمثال ذلك .

* * *

هذا آخر كتاب (جامع السعادات) ، والحمد لله على إتمامه ، واسأل الله
 ان يجعلنا من العاملين به ، وينفع به جميع عباده السالكين اليه . وقد وقع
 الفراغ من جمعه وتأليفه ، في سلخ شهر ذي القعدة الحرام سنة ست وتسعين
 ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، على مهاجرها الف الف سلام وتحية .

* * *

هذا آخر ما كتبه المصنف (قدس سره)

فهرس الجزء الثالث منه (جامع السماعات)

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
ذكر الموت مقصر للأمل	٣٨	بقية المقام الرابع المتعلق بالقوى	
العجب بمن ينسى الموت	٤٠	الثلاث أو باثنتين منها ، من	
الموت اعظم الدواهي	٤١	الرزائل والفضائل . وهي ثلاثة	
مراتب الناس في ذكر الموت	٤٣	عشر نوعاً :	
المبادرة الى الحسنات	٤٤	(١) الغرور	٣
(٣) العصيان	٤٥	ذم الغرور	٤
(٤) الوقاحة	٤٥	طوائف المغرورين . وهم سبعة :	٥
(٥) الاصرار على المعصية	٤٦	١ - الكيفار	٦
التوبة وتعريفها	٤٩	٢ - العصاة والفساق من المؤمنين	١١
هل يشترط في التوبة القدرة	٥٢	٣ - أهل العلم	١٥
على الذنب السابق ؟		٤ - الوعاظ	٢٠
وجوب التوبة	٥٤	٥ - أهل العبادة والعمل	٢٣
تحقيق في وجوب التوبة	٥٦	٦ - المتصوفة	٢٥
عموم وجوب التوبة	٥٩	٧ - الأغنياء وارباب الاموال	٣٠
تذنيب	٦١	ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد	٣١
لا بد من العمل بعد التوبة	٦٢	(٢) طول الأمل	٣٢
فضيلة التوبة	٦٤	علاج طول الأمل	٢٤
قبول التوبة	٦٦	قصر الأمل	٣٥
طرق التوبة عن المعاصي	٧٠	اختلاف الناس في طول الأمل	٣٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الغفلة موجبة للحرمان	١٠٧	تكفير الصغائر ومعنى الكبائر	٧٣
ضد الغفلة : النية	١٠٧	الصغائر قد تكون كبائر	٧٤
تأثير النية على الأعمال	١٠٩	شروط كمال التوبة	٧٨
النية روح الأعمال والجزاء بحسبها	١١١	هل يصح التبعية في التوبة	٧٩
عبادة الأحرار والأجراء والعبيد	١١٥	أقسام التائبين	٨١
نية المؤمن خير من العمل	١١٨	مراتب التوبة	٨٢
النية غير اختيارية	١٢١	عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة	٨٤
الطريق في تخلص النية	١٢٢	علاج الاصرار على الذنوب	٨٧
(٧) الكراهة	١٢٣	الانابة	٨٨
الشوق	١٢٥	المحاسبة والمراقبة	٨٩
أفضل مراتب الشوق الشوق الى الله	١٢٦	المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة	٨٩
تعلق الحب بجميع القوى	١٣٢	حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا	٨٩
أقسام الحب بحسب مبادئه	١٣٤	مقامات مرابطة العقل للنفس . وهي أربع مقامات :	٩٣
لا محبوب حقيقة إلا الله	١٤١	١ - المشاركة	٩٣
الشهود التام هو نهاية درجات العشق	١٤٦	٢ - المراقبة	٩٦
سريان الحب في الموجودات	١٤٨	٣ - المحاسبة	٩٩
رد المنكرين لحب الله	١٥٠	٤ - معاتبة النفس	١٠٠
		(٦) الغفلة	١٠٥

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
(٩) الحزن	٢١٣	معرفة الله أقوى سائر اللذات	١٥٦
(١٠) عدم الاعتماد	٢١٧	تحقق رؤية الله في الآخرة	١٦١
التوكل	٢١٨	ولذة لقائه	
فضيلة التوكل	٢٢٠	الطريق الى الرؤية واللقاء	١٦٨
درجات التوكل	٢٢٣	تفاوت المؤمنين في محبة الله	١٧٠
السمي لا ينافي التوكل	٢٢٥	الواجب أظهر الموجودات	١٧٢
الأسباب التي لا ينافي السمي	٢٢٧	علام محبة الله	١٧٤
اليها التوكل		معنى حب الله لعبده	١٨٠
إعقل وتوكل	٢٢٨	الحب في الله والبغض في الله	١٨٢
درجات الناس في التوكل	٢٢٩	الوفاء في الحب	١٨٨
تفنيد زعم	٢٣٠	الانس بالله	١٩٠
طريق تحصيل التوكل	٢٣١	الانس قد يشمر الادلال	١٩١
(١١) الكفران	٢٣٣	العزلة	١٩٤
الشكر	٢٣٣	(٨) السخط	١٩٩
فضيلة الشكر	٢٣٨	الرضا	٢٠٢
الشكر نعمة يجب شكرها	٢٤١	فضيلة الرضا	٢٠٣
المدارك لتمييز محاب الله عن	٢٤٣	رضا الله	٢٠٤
مكارهه		رد إنكار تحقق الرضا	٢٠٦
أقسام النعم واللذات	٢٤٨	هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا	٢٠٨
تفنيه	٢٥٤	طريق تحصيل الرضا	٢١٢
الأكل	٢٥٥	التسليم	٢١٣

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تفضيل الصبر على الشكر	٣٠٧	لا فائدة في الغذاء ما لم يكن	٢٥٧
(١٣) الفسق	٣٠٨	بشهوة وميل	
الطهارة	٣٠٩	عجائب الماء كولات	٢٥٨
حقيقة الطهارة	٣١١	حاجة تحضير الطعام الى آلاف	٢٦١
ما ينبغي للمؤمن في الطهارة	٣١٣	الاسباب	
إزالة الاوساخ	٣١٦	تسخير الله للتجار لطلب الطعام	٢٦٣
آداب الحمام	٣١٧	نعم الله في خلق الملائكة للانسان	٢٦٣
السر في إزالة الاوساخ	٣١٨	الاسباب الصارفة للشكر	٢٦٩
الصلاة	٣٢٠	طريق تحصيل الشكر	٢٧٢
حقيقة الصلاة	٣٢٣	الصحة خير من السقم	٢٧٥
حضور القلب	٣٢٥	(١٢) الجزع	٢٧٨
دفع اشكال	٣٣١	الصبر	٢٨٠
شرائط الصلاة	٣٣٢	مراتب الصبر	٢٨٣
طريق تحصيل المعاني الباطنة	٣٣٤	أقسام الصبر	٢٨٥
أسرار الصلاة	٣٣٨	فضيلة الصبر	٢٨٥
الوقت	٣٣٩	الصبر على السراء	٢٩٣
آداب الصلاة	٣٣٩	اختلاف مراتب الصبر في الثواب	٢٩٨
آداب المصلي	٣٤١	طريق تحصيل الصبر	٢٩٩
الاستقبال	٣٤٢	تتميم	٣٠٠
القيام	٣٤٤	التلازم بين الصبر والشكر	٣٠١
التكبيرات	٣٤٥	القانون الكلي في معرفة الفضائل	٣٠٥

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
ما ينبغي للصائم عند الافطار	٣٨٠	النية	٣٤٦
درجات الصوم	٣٨١	تكبيره الاحرام	٣٤٦
الحج	٣٨٣	دعاء الاستفتاح	٣٤٧
الغرض من إيجاد الانسان	٣٨٣	الاستعاذة	٣٤٩
ما ينبغي في الحاج	٣٨٦	الركوع	٣٥٢
الميقات	٣٩٠	السيجود	٣٥٣
ما ينبغي في الميقات	٣٩٠	التشهد	٣٥٥
ما ينبغي عند دخول مكة	٣٩١	القبليم	٣٥٦
ما ينبغي عند الطواف	٣٩٢	إفاضة الأنوار على المصلي	٣٥٧
ما ينبغي عند استلام الحجر	٣٩٢	ما ينبغي في إمام الجماعة	٣٥٩
السمي	٣٩٣	ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين	٣٦٠
ما ينبغي عند الوقوف بعرفات	٣٩٤	ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات	٣٦١
المشعر	٣٩٥	الذكر	٣٦٢
ما ينبغي عند الرمي والذبح	٣٩٥	فضيلة الأذكار	٣٦٤
ما ينبغي للزائر عند دخول	٤٠١	الدعاء	٣٦٥
المدينة المنورة		تلاوة القرآن	٣٦٧
ما ينبغي للزائر عند دخول	٤٠٣	الصوم	٣٧٩
النجف وكر بلاء		ما ينبغي للصائم	٣٧٩

(مكتبة)

رقم الكتاب	اسم الكتاب	عدد النسخ	ملاحظات
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150

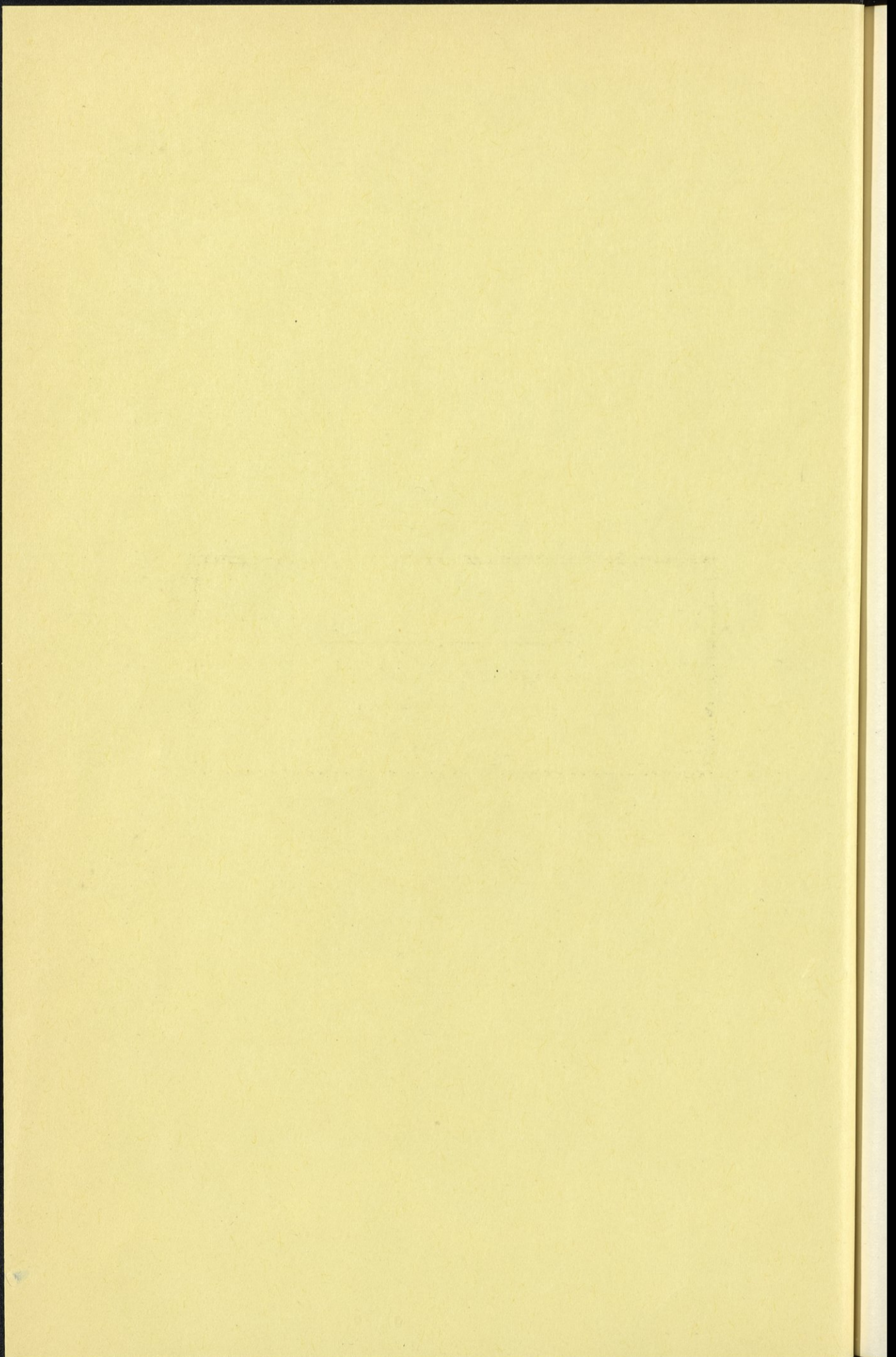
الطبعة الثالثة

* * *

مطبعة النجف - النجف الاشرف

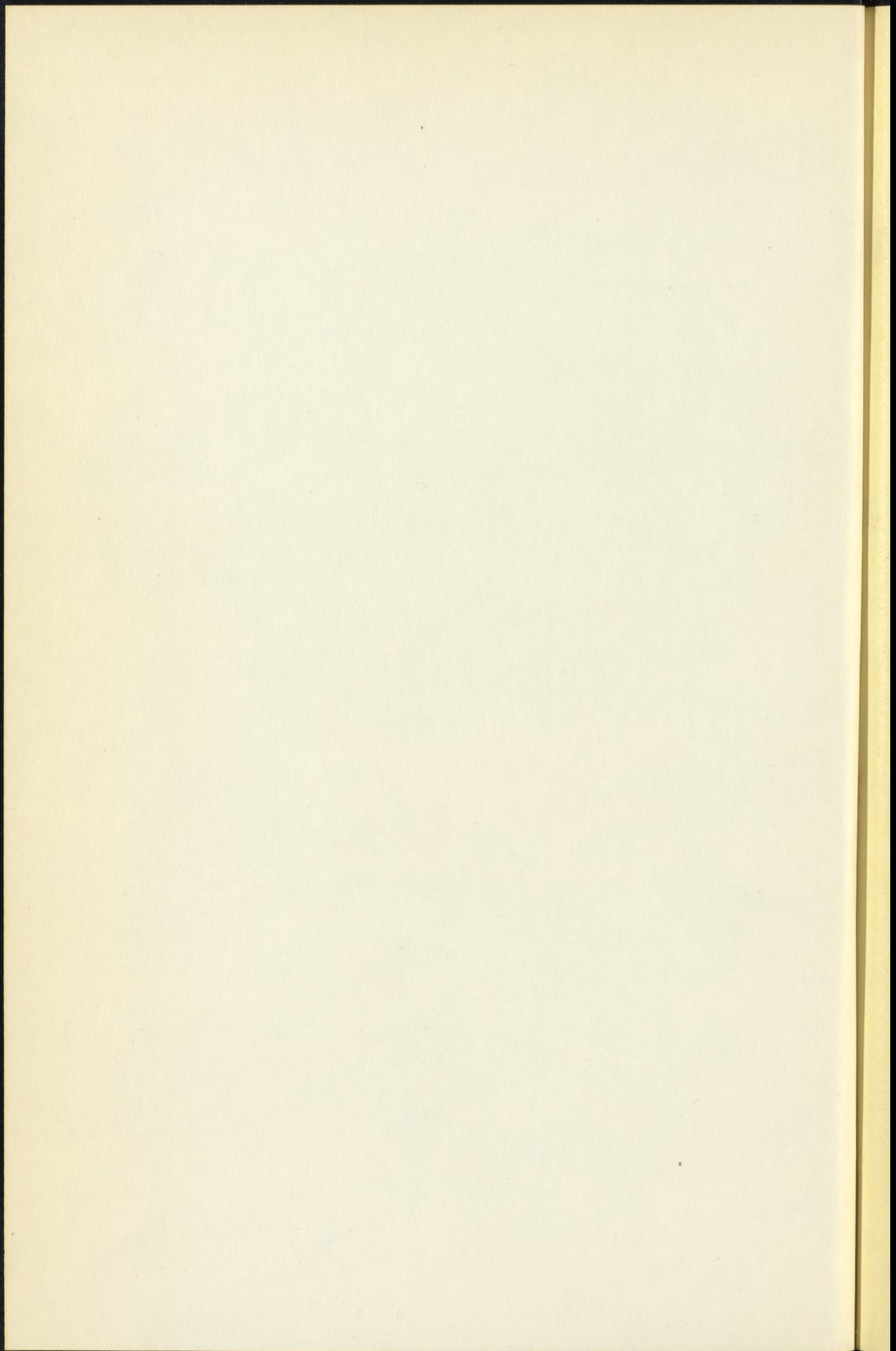
~~~~~

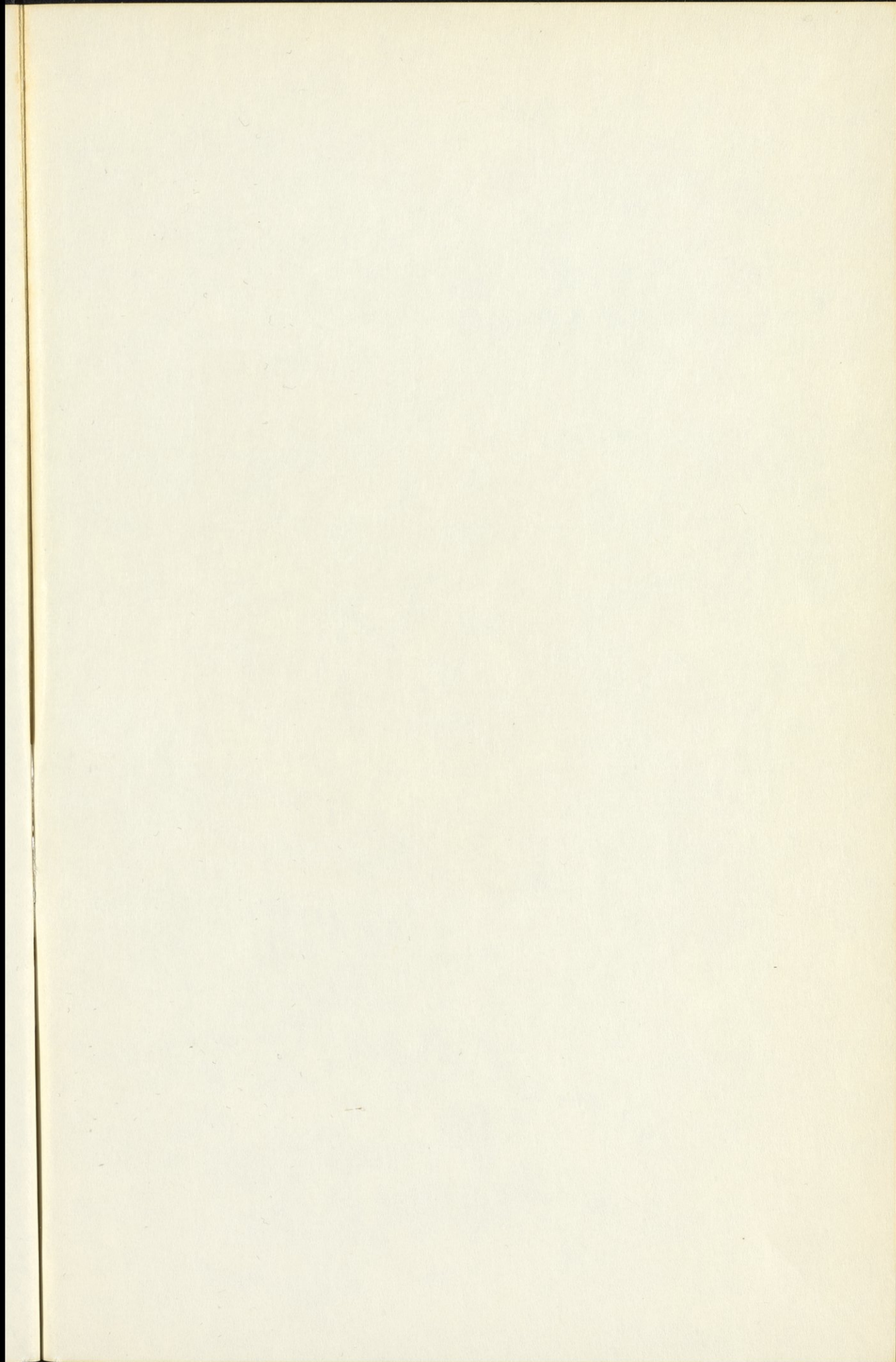
رجب - ١٣٨٣ هـ

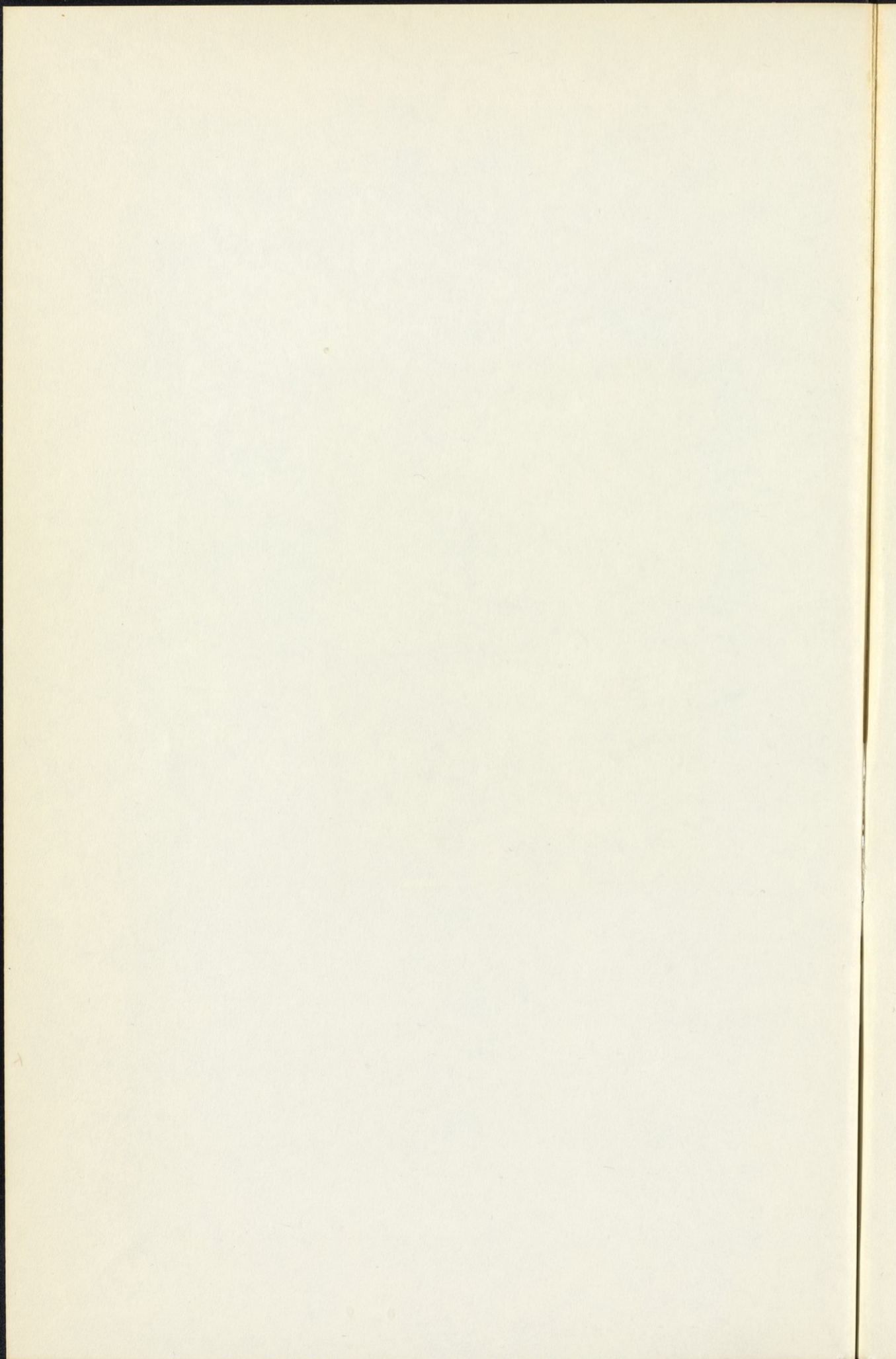


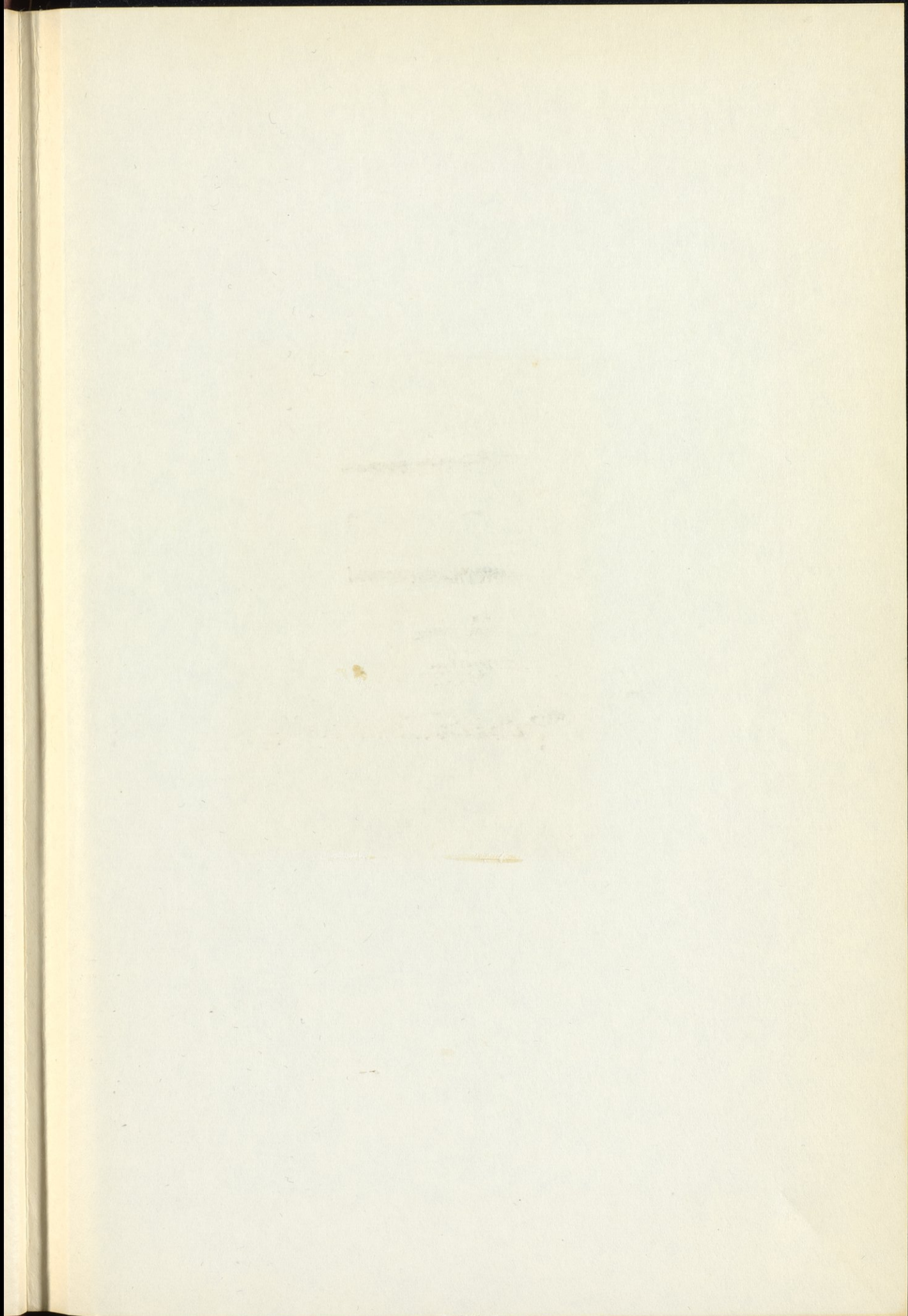
6229-74

50











Library of



Princeton University.

Princeton University Library



32101 074485663